صحيح التوثيق
في (٥)

تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي

تأليف
مجدي فتحي السيد

دار الصحابة للتراث بطنطا

كتاب قد حوى دررًا بعين الحسن ملحوظة

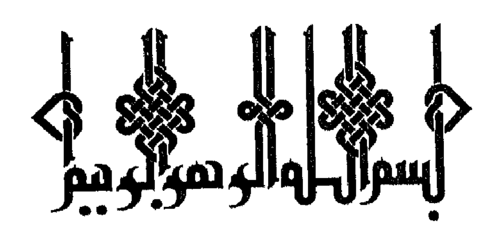
لهذا قلت تنبيهًا

المراسلات: دار الصحابة للتراث بطنطا
شارع المديرية أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص. ب: ٤٧٧/ الرمز البريدى ٣١٥٩٩

[٢/ الأمويون/ صحابة]

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ في تلك الصفحات:


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله... نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[3].

أما بعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

فهذه صفحات من تاريخنا الإسلامى، نحن أحوج ما نكون إليها فى زماننا لنستلهم منها العبرة، ونأخذ منها العظة.



(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .
(٢) سورة النساء : ١ .
(٣) سورة الأحزاب : ٧٠، ٧١ .

كلمة فى البدء

فى البدء نقول: إن الحديث عن تاريخ الأمة الإسلامية ذو شجون، فبعد رفعة وعلو، تأتى أيام الضعف والتراجع إلى الوراء.

وبعد الوحدة والعزة، تأتى أيام الفرقة والهوان، وبعد السعة ،والانتشار تأتى أيام الضيق والانغلاق.

وبعد الخلافة الراشدة على منهاج النبوّة تأتى أيام المُلك والسلطان، وبعد الشورى يأتى الاستبداد.

ولكن مع كل ذلك فلا بُدّ لكى نعود إلى الخلافة الراشدة أن تعود الأمة بأسرها إلى مرضاة ربها، والتحاكم إلى شرعه فى كل شئون الحياة، وتعود الهوية الإسلامية لأهل الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(١).

وقال جل شأنه:

﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(٢).

وها نحن فى هذه السلسلة التأصيلية التاريخية قد انتهينا فيما سبق من حياة الخلفاء الراشدين، ونشرع الآن فى التأصيل لدولة بنى أمية لنستلهم العبرة والعظة، ونضع اللبنات فى نهج العودة للخلافة الراشدة، مُظهرين مواطن القوة، وأسباب العزة، ومواطن الضعف وأسباب زوال ملكهم.

فإنه من الجدير بكل مسلم ومسلمة الوقوف على سير ممالك الإسلام، والتعرف على أحداث عصورهم، والوقوف على المكارم والمساوىء، ومعرفة أقوالهم وأفعالهم، والاطلاع على مناقبهم وفضائلهم، ومعرفة الإيجابيات والسلبيات فى أدوار حياتهم لتكون لنا نبراساً نهتدى به فى حياتنا.

---

(١) سورة الرعد: ١١. (٢) سورة الأنفال: ٥٣.

وبعد....

فتلك صفحات تضم سيرة وحياة دولة بنى أمية التى ملكت ديار الإسلام إحدى وتسعين سنة، ولعلَّ من فضل الله عليَّ أن وفقنى إلى استخلاص الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود، والمعروف من المنكر من الأحداث التاريخية المروية فى سيرة دولة بنى أمية، التى نشأت عقب نهاية الخلافة الراشدة.

فكم قد كُتِبَتْ الصفحات فى دولة بنى أمية اعتماداً على نصوصٍ باطلة وموضوعة من ناحية السند، ومنكرة من ناحية المتن.

وكم قد دُرِّست أحداث دولة بنى أمية لطلاب العلم اعتماداً على أخبار واهية ضمتها بعض كتب السير والتواريخ.

فالحمد لله على توفيقه أولاً وآخراً، وأسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أبو مريم

مجدى فتحى السيد إبراهيم

طنطا ـ مصر



الباب الأول

نبوءة ما بعد الخلافة الراشدة

من الأمور المستقرة فى عقيدة المؤمن أن خير القرون فى الإسلام هى العهد النبوى، والخلافة الراشدة، وما بعد ذلك يُعد مُلكاً، وإن اختلف من مُلكٍ ورحمةٍ عن مُلك عضوضٍ.

وقد تنبأ النبى ﷺ - وما ينطق عن الهوى - بنهاية خلافة الراشدين، ومجيىء سياسة المُلك.

فهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ يحدثنا عن النبى ﷺ أنه قال: -

«**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله ملكه أو الملك من يشاء**»[1].

وفى رواية أخرى: «**تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم تصير مُلكاً**».

وعلى هذا الحديث يعتمد أهل العلم فى تقرير خلافة الراشدين الأربعة رضى الله عنهم.

أما ما بعد الخلافة الراشدة فتأتى نبوءة الرسول ﷺ:

«**ستكون خلافة نبوة ورحمة، ثم يكون ملك ورحمة، ثم يكون ملك وجبرية، ثم يكون ملك عضوض**»[2].

والملك العضوض: أى الشديد البطش، فيه عسفٌ، وعنفٌ، يصيب الرعية من الراعى ظلم عريض، كأنهم يُعضون فيه عضاً.

فالنبى ﷺ أخبر أن الخلافة ثلاثون سنة، وسائرهم ملوك، فكل مَنْ تقلد أمور المسلمين بعد ثلاثين سنة ملوكاً.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ: أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠، ٢٢٢)، وأبو داود (٤٦٤٧)، والترمذى (٢٢٢٧)، والطيالسى (٢٥٩٤)، وابن حبان (٦٦٢٣)، والطبرانى (١٣)، (١٣٦) فى الكبير، والحاكم (١/ ٧١، ١٤٥)، والبغوى (٣٨٦٥) فى شرح السنة، والبيهقى (٦/ ٣٤١) فى سننه الكبرى.

(٢) حديثٌ حسنٌ: أخرجه الطيالسى (٤٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٧٣)، والبزار، والطبرانى فى الأوسط كما فى المجمع (٥/ ١٨٩).

فالرسول ﷺ قبضه الله إلى جنته يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، واستخلف أبو بكر يوم الثلاثاء ثانى وفاته ﷺ.

وتوفى أبو بكر الصديق ليلة الاثنين لسبع عشرة ليلة مضين من جمادى الآخرة، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ثم استخلف عمر بن الخطاب يوم الثانى من موت أبى بكر الصديق، ثم قُتل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهرٍ وأربع ليالٍ، ثم استخلف عثمان بن عفان - رضى الله عنه -، ثم قتل عثمان وكانت خلافته اثنى عشر سنة إلا اثنى عشر يوماً، ثم استخلف علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه -، وقتل وكانت خلافته خمس سنين وثلاثة أشهرٍ إلا أربع عشرة يوماً.

فلما قتل على - رضى الله عنه -، وذلك يوم السابع عشر من رمضان سنة أربعين، بايع أهل الكوفة الحسن بن على بالكوفة، وبايع أهل الشام معاوية بن أبى سفيان بإيلياء، وسار معاوية بجيشه يريد الكوفة، وسار إليه الحسن بن على بجيشه فالتقوا بناحية الأنبار، فاصطلحوا على كتابٍ بينهم بشروطٍ فيه، وسلم الحسن الأمر إلى معاوية، وذلك يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين، وتسمى هذه السنة: سنة الجماعة[1].



(١) انظر: صحيح ابن حبان (٨/٢٢٨).

جواز تسمية الملوك خلفاء

يتساءل المرء: بما أن الخلافة الراشدة قد انتهت وصرنا منذ أزمان مديدة فى المُلك على اختلاف صوره، فهل يجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء؟.

عندما يتصفح المرء الكثير من كتب السير والتاريخ يجد أن هؤلاء الملوك يُلقبون بالخلفاء كما يجد المرء ذلك فى «تاريخ الطبرى»، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطى مع التفاوت الزمنى بينهما.

وليس هذا ببدعٍ من القول، فقد جاءت السنة النبوية بذلك، وإن كان المراد بذلك ليس خلافة النبوة، ولا الراشدة كما سيأتى بيانه.

فيحدثنا جابر بن سمرة فيقول: دخلت مع أبى على النبى ﷺ فسمعته يقول:

«لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة، كلهم من قريشٍ»(1).

فالمتأمل فى هذا الحديث النبوى، وحديث «تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة» يظن أن بينهما مخالفة، وليس الأمر كذلك!

فالمراد فى حديث الخلافة ثلاثون سنة خلافة النبوة، ثم تكون مُلكاً، وقد سُمّى هؤلاء الملوك بالخلفاء.

ولم يشترط النبى ﷺ فى الحديث خلافة النبوة فى الاثنى عشر.

وقد يتساءل أحدنا: قد ولى الخلافة أكثر من هذا العدد المذكور فى الحديث، ألا يشكك ذلك فى مصداقية العدد؟

والإجابة بالتأكيد لا، فالمراد بهؤلاء الاثنى عشر خليفة من يعز الإسلام فى زمنه، ويجتمع المسلمون عليه، وقد حدث ذلك، ووُجد ذاك العدد بالتحديد قبل اضطراب أمر بنى أمية، واختلافهم فى زمن يزيد بن الوليد، وخروج بنى العباس عليه، وسيأتى كل ذلك بالتفصيل ويتضح لنا من ذلك أنه وإن كان قد ولى أكثر

---

(1) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه مسلم (١٨٢١)، (١٩٢٢)، وابو داود (٤٢٨٠)، (٤٢٨١)، والترمذى (٢٣٢٣)، واحمد (٥/٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٧)، والطبرانى (١٧٩١)، (١٧٩٢) فى الكبير.

من هذا العدد، فإنهم لم يجتمع الناس عليهم، وحدثت الاضطرابات والفتن والفرقة فى عهود مَنْ سواهم.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ـ يجوز تسمية من بعد «الخلفاء الراشدين» «خلفاء» وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، بدليل ما رواه البخارى، ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ، عن رسول الله ﷺ قال:

«كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء[1]، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى، وسيكون خلفاء[2] فتكثر».

قالوا: فما تأمرنا؟

قال: «**فوا[3] بيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم[4]، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»[5].

فقوله: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً.

وأيضاً قوله: «فوا بيعة الأول فالأول» دل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا.

وقوله: «فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» دليل على مذهب أهل السنة فى إعطاء الأمراء حقهم، من المال، والمغنم.

وقد ذكرتُ فى غير هذا الموضوع، أن مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة، والقضاة، والأمراء، ليس لنقصٍ فيهم فقط، بل لنقصٍ فى الراعى والرعية

---

(١) يسوسهم الأنبياء: ويُروى بالتاء، أى: يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء، والولاة بالرعية.

(٢) أى: بعدى سيكثر الخلفاء.

(٣) فوا: فعل أمر بالوفاء، والمعنى أنه إذا بويع الخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها وبيعة الثانى باطلة، هذا هو الصواب الذى عليه الجمهور.

(٤) اعطوهم حقهم: أى أطيعوهم وعاشروهم بالسمع والطاعة، فإن الله يحاسبهم على ما يفعلونه بكم.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البخارى (٤/ ٢٠٦)، ومسلم (٨٤٢)، وابن ماجه (٢٨٧١)، وأحمد (٢/ ٢٩٧)، والبيهقى (٨/ ١٤٤) فى سننه الكبرى.

جميعاً، فإنه كما تكونون يول عليكم[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾[2].

والمستفاد من ذلك كله أن إطلاق لفظ خليفة على ولاية الملك قد ورد فى السنة النبوية المطهرة، وإن كان لا يقصد من ذلك خلافة النبوة كما أسلفنا القول.

وعندما نتأمل فى سير السلف الصالح، وكلام الأئمة الأعلام، نجد أنهم يصفون معاوية بالخليفة، ويطلقون على فترة ولايته بالخلافةفما دلالة ذلك؟

إنه يدل على جواز إطلاق لقب خليفة على الملك، وخلافة على فترة الملك، وإن كان المراد بالتأكيد خلافة غير خلافة النبوة، وخليفة غير الخلفاء الراشدين.

وقد كان السلف الصالح يلقبون معاوية بالخلافة،وإليك بعض الأمثلة:

هذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، يقول: إن معاوية قدم حاجًا حجته الأولى، وهو يومئذ **خليفة**، فدخل عليه ابن حنيف الأنصارى[3].

وهذا الصحابى الجليل وائل بن حُجر ـ رضى الله عنه ـ، يقول: إن النبى ﷺ كتب له ـ وأمر معاوية، فقُلت له: لست من أرداف الملوك[4]، ثم أتيتُه فى **خلافته**[5].

وذلك أن النبى ﷺ وجّه معاوية مع وائل بن حجر رسولاً فى حاجة له، ووائل على نجيبٍ له، فقال له معاوية: أردفنى خلفك وشكى إليه حرَّ الرمضاء، فقال وائل: لستَ من أرداف الملوك.

وكان الملك يردف خلفه رجلاً شريفاً، وكانوا يركبون.

وعندما ذكر خادم النبى ﷺ أنس بن مالك قصة الخوارج، قال: أقبلوا بعد بيعة معاوية **بالخلافة**[6].

ويقول مجاهد التابعى: حدثنا أبو عياض فى **خلافة معاوية**[7].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/١٩) لابن تيمية.　　(٢) سورة الأنعام: ١٢٩.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٩٢/١) فى تاريخه الصغير.

(٤) أرداف الملوك: هم الذين يخلفونهم فى القيام بأمر المملكة بمنزلة الوزراء فى الإسلام.

(٥) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١١٩/١) فى تاريخه الصغير.

(٦) خبرٌ صحيحٌ. سيأتى تخريجه.　　(٧) خبرٌ حسنٌ. أخرجه البخارى (١٢٢/١).

وذكر أهل السير أن حبيب بن مسلمة، مات فى **خلافة معاوية**[١].

ويقول الأوزاعى إمام ديار الشام: أدركت **خلافة معاوية** عدة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، ورافع بن خديج، وأنس بن مالك، ورجال أكثر ممن سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم، حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: عبد الرحمن بن الأسود، وابن المسيب، وعروة بن الزبير، وابن محيريز فى أشباه لهم، لم ينزعوا يداً عن مجامعة فى أمة محمد ﷺ[٢].

ويروى عروة بن الزبير، فيقول: كان زيد بن ثابت يأخذ العطاء فى **خلافة معاوية**[٣].

ويقول سعيد بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ:

توفى فضالة بن عبيد فى **خلافة معاوية**[٤].

ويقول أحمد بن صالح: توفى عقبة بن عامر فى **خلافة معاوية**[٥].

ويقول عبد الرحمن بن إبراهيم: توفى سهل بن الحنظلية فى صدر **خلافة معاوية**[٦].

ويروى مروان بن محمد فيقول: كان ربيعة الجرشى يقص فى **خلافة معاوية**[٧].

ويحدثنا عطية بن قيس الكلابى فيقول: غزونا فى **خلافة معاوية**، مع مالك ابن عبد الله الخثعمى[٨].

ويقول إمام المؤرخين الطبرى فى تاريخه (٥/ ١٦٢):

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين، ومما كان فيها تسليم الحسن بن على الأمر إلى

---

(١) السابق (١/ ١٢٩).
(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (١٠٣)، (٥٧٥) فى تاريخه.
(٣) خبرٌ لا بأس به. أخرجه أبو زرعة (١٠٤)، (٥٧٦).
(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٢١٢).
(٥) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٢٢٥).
(٦) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٢٣٦).
(٧) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٢٥٠).
(٨) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٦٩٥)، (٦٩٦)

معاوية، ودخول معاوية الكوفة، وبيعة أهل الكوفة **معاوية بالخلافة**.

بل كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ يقول:

أنا أول الملوك، وآخر خليفة[1].

ويقول الصحابى الجليل سعيد بن حريث ـ رضى الله عنه ـ: لما كانت الغداة التى مات فى ليلتها معاوية فزع الناس إلى المسجد، ولم يكن قبله **خليفة** بالشام غيره[2].

ويتحدث الإمام البخارى عن وفاة ابن بريدة، فيقول:

يقال: توفى فى **خلافة** يزيد بن معاوية[3].

سبحان الله!! أتثبت الخلافة ليزيد مع ظلمه، ولا تثبت لمعاوية مع فضله؟!

فلا شك فى ثبوت صحة تسمية معاوية بن أبى سفيان بالخليفة، وتوليه منصب الخلافة، وإن كانت فى صورة الملك، وليست خلافة النبوة.

ونكمل سيرنا مع السلف الصالح فنجد عبد الرحمن بن يزيد بن جابر التابعى يقول:

إن أبا أيوب الأنصارى توفى فى غزاة يزيد بن معاوية القسطنطينية فى خلافة معاوية[4].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«إسلام معاوية وولايته على المسلمين، والإمارة، والخلافة، فأمر يعرفه جماهير الخلق»[5].

---

(١) خبرٌ لا بأس به. اخرجه ابن أبى خيثمة بسنده كما فى البداية (٨/١٤٦).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو مسهر كما فى تاريخ الإسلام (٤/١٦٨) من خبرٍ طويل.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. تاريخ البخارى الصغير (١/ ١٤٠).

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٢٢٠) فى تاريخه.

(٥) الفتاوى (٤/٤٧٧).

وقال العلامة السفارينى الحنبلى ـ رحمه الله ـ:

تحقيق القول عند أهل الحق أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ لم يكن فى أيام علىّ خليفة، وإنما كان من الملوك، وغاية ما هنالك أنه كان مجتهداً فله أجر الاجتهاد دون الإصابة.

وأما بعد موت علىّ ـ رضى الله عنه ـ وبعد تسليم الحسن ـ رضى الله عنه ـ الأمر له، فقد صحت خلافته، لنزول الحسن له عنها، **فهو خليفة** حق عند أهل الحق[(١)].



(١) لوائح الأنوار (٢/ ٨٠ ـ ٨١).

بدء نشأة الدولة الأموية

مَرَّ بنا ما حدث فى فتنة مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ من تفرقٍ واختلاف بين المسلمين.

وفى آخر لحظات أبى تراب علىّ ـ رضى الله عنه ـ، وهو يودع الدنيا، قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين، فقال: لا، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله ﷺ ـ يعنى بغير استخلافٍ ـ فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ.

فلما توفى ـ رضى الله عنه ـ صلَّى عليه ابنه الحسن ـ رضى الله عنه ـ، ودفن كما مَرَّ بنا بدار الإمارة على الصحيح، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة أربعين.

وهنا بايع الناس الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ، وكان أول من تقدم إلى المبايعة قيس بن سعد بن عبادة، فقال قيس للحسن: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله، وسُنة نبيه ﷺ، فبايعه.

ثم توالى الناس أفواجاً، فوج بعد فوج على مبايعة الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ، وفى هذا الوقت كان معاوية بن أبى سفيان على إمرة الشام، يُنظر إليه من أهل الشام كخليفة للمسلمين.

ألح أهل العراق على الحسن ـ رضى الله عنه ـ على مقاتلة أهل الشام، ولم يكن فى نية الحسن ـ رضى الله عنه ـ أن يقاتل أحداً، ولكن كثرة إلحاح أهل العراق، واجتماع الناس اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله.. من قبل جعله يدعو الناس إلى الخروج لقتال أهل الشام.

سار الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ بالجيوش قاصداً ديار الشام حتى نزل المدائن، وأمَّر قيس بن سعد على المقدّمة فى اثنى عشر ألفاً، فبينما هو فى المدائن معسكراً بظاهرها، إذ نادى منادٍ:

أيها الناس.. ألا إن قيساً قد قُتل، فثار الناس، واختلفوا، وانتهب الغوغاء، فكرههم الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ كراهية شديدة.

وهنا اقترب رجلٌ من الخوارج ـ قبحهم الله ـ وحاول طعن الحسن ـ رضى الله عنه بخنجرٍ، فوثب الناس عليه فقتلوه، ونجا الحسن ـ رضى الله عنه ـ.

نزل الحسن بن على القصر الأبيض بالمدائن، وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفى، وهنا تفكر الحسن فى حالة جيشه، وتفرقهم، وما هم عليه من حُبّ الدنيا، فخلع نفسه لهذا، وقام فيهم خطيباً قائلاً:

أيها الناس.. ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا زيغ، لكن كنتم فى منتدبكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم[(١)].

وهكذا كانت الأحوال ترشح قيام الحسن ـ رضى الله عنه ـ بالدخول فى الصلح، وكذا كان حال معاوية ـ رضى الله عنه ـ.

فكلاهما فكَّر فى الصلح، وشرع فيه، وإن كان الفضل بادياً للحسن ابن على ـ رضى الله عنه ـ.

ولعل أصح نصٍ ورد فى المصالحة بينهما ما رواه الحسن البصرى -رحمه الله-، قال:

استقبل ـ والله ـ الحسنُ بن عليٍّ معاويةَ بكتائبَ أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إنى لأرى كتائب[(٢)] لأتولّى[(٣)] حتى تقتُلَ أقرانها.

فقال له معاوية: آى عمرو! إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لى بأمور الناس؟! من لى بنسائهم؟!من لى بضيعتهم؟! من لى بذرارى المسلمين[(٤)]؟!

فبعث ـ يعنى معاوية ـ إليه رجلين من قريشٍ من بنى عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر ـ فقال: اذهبا إلى هذا الرجل ـ يعنى الحسن

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ١٥٩، ١٦٠)، الكامل (٣/ ٤٠٤) لابن الأثير، تاريخ الإسلام (٥/ ٦) للذهبى، تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٢٢٣) لابن بدران، مقاتل الطالبيين (ص/ ٦٣) للأصفهانى، البداية والنهاية (٨/ ١٧) لابن كثير.

(٢) **الكتائب**: جمع كتيبة، وهى طائفة من الجيش، والمراد الدلالة بأنها أمثال الجبال فى كثرتها وشدة بأسها.

(٣) أى لا تدبر حتى تقتل التى تقابلها.

(٤) يريد معاوية ـ رضى الله عنه ـ من ذلك الإشارة إلى أن رجال المعسكرين معظم من فى الإقليمين، فإذا قتلوا ضاع أمر الناس، وفساد حال أهلهم بعدهم وذراريهم، والمراد بقوله: «ضيعتهم» الأطفال والضعفاء سموا باسم ما يؤول إليه أمرهم لأنهم إذا تركوا ضاعوا لعدم استقلالهم بأمر المعاش.

ابن على ـ فأعرضا عليه[1]، وقولا له[2]، واطلبا إليه[3]. فأتياه، فتكلما وقالا له، وطالبا إليه، فقالا لهما الحسن بن على:

إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت فى دمائها.

قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك.

قال: فمن لى بهذا؟! قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به[4]. فصالحه[5].

ومن أهم ما اشترطه الحسن ـ رضى الله عنه ـ هو توليه الخلافة من بعده، ويبدو ذلك جلياً مما رواه أبو بصرة ـ رحمه الله ـ، يقول: سمعتُ الحسن بن على يقول فى خطبته عند معاوية: إنى اشترطتُ على معاوية لنفسى الخلافة بعده[6].

وبتمام هذا الصلح تمت النبوءة، **يقول الحسن البصرى**: سمعت أبا بكرة يقول:

بينا النبى ﷺ يخطب، جاء الحسن بن على إلى جنبه، فرأيت رسول الله ﷺ على المنبر، وهو يُقبل على الناس مرةً، وعليه أخرى، ويقول:

«إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[7].

ومن هذا الموقف نرى علماً من أعلام نبوته ﷺ وقد تحقق، وفيه منقبة للحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ فإنه ترك الملك لا لقلةٍ، ولا لذلةٍ، ولا لعلةٍ، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين، ومصلحة الأمة.

---

(١) فاعرضا عليه: اى ما شاء من الشروط. (٢) قولا له: أى فى حقن دماء المسلمين بالصلح.

(٣) اطلبا إليه: أى اطلبا منه خلعه نفسه من الخلافة، وتسليم الأمر لمعاوية، وابذلا له فى مقابلة ذلك ما شاء.

(٤) هذا يدل على أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ كان يرغب فى الصلح، وأنه عرض على الحسن الشروط التى يريدها، وحثه على رفع السيف.

(٥) خبرٌ حسنٌ. أخرجه البخارى (٢٧٠٤)، (٧١٠٩).

(٦) خبر صحيحٌ. أخرجه محمد بن قدامة فى «الخراج» بسندٍ قوى كما فى الفتح (١٣/ ٦٥).

(٧) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٢٧٠٤)، (٧١٠٩)، وأبو داود (٤٦٦٢)، والترمذى (٣٨٦٢)، والنسائى (٣/ ١٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٧، ٥١)، والبيهقى (٦/ ٤٤٢) فى الدلائل، والبغوى (١٤/ ١٣٦) فى شرح السنة.

وفى هذا الموقف الرد على الخوارج الذين كانوا يكفرون علياً ـ رضى الله عنه ـ ومَنْ معه، ومعاوية ـ رضى الله عنه ـ ومن معه بشهادة النبى ﷺ للطائفتين بأنهما من المسلمين.

وفى هذا الموقف دلالة على رأفة معاوية ـ رضى الله عنه ـ بالرعية، وشفقته على المسلمين، ونظره فى العواقب.

وفيه فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما فى حقن دماء المسلمين.

وفيه: ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل لأن الحسن ومعاوية ولى كل منهما الخلافة، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد فى الحياة، وهما بدريان.

وفيه: جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى فى ذلك صلاحاً للمسلمين(١).

وقد سميت سنة إحدى وأربعين عام الجماعة، لاجتماع الأمة على خليفة واحد، وهو معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

وارتحل الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ عائداً إلى المدينة النبوية، تاركاً الملك، زاهداً فى أُبهة الخلافة، وظل فى المدينة إلى أن توفى فى سنة تسع وأربعين.

وهكذا نشأت دولة بنى أمية، وملكت تسعين سنة وأحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً، وذلك ألف شهرٍ.

منها أيام الحسن بن على وهى خمسة أشهرٍ، وعشرة أيام، وأيام ابن الزبير، وهى سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام، فيكون خلاصة مدة حكمها بعيداً عن أيام الحسن وابن الزبير ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر.

وبدأت نشأة الدولة الأموية على يد معاوية بن أبى أبى سفيان فى منتصف سنة إحدى وأربعين.



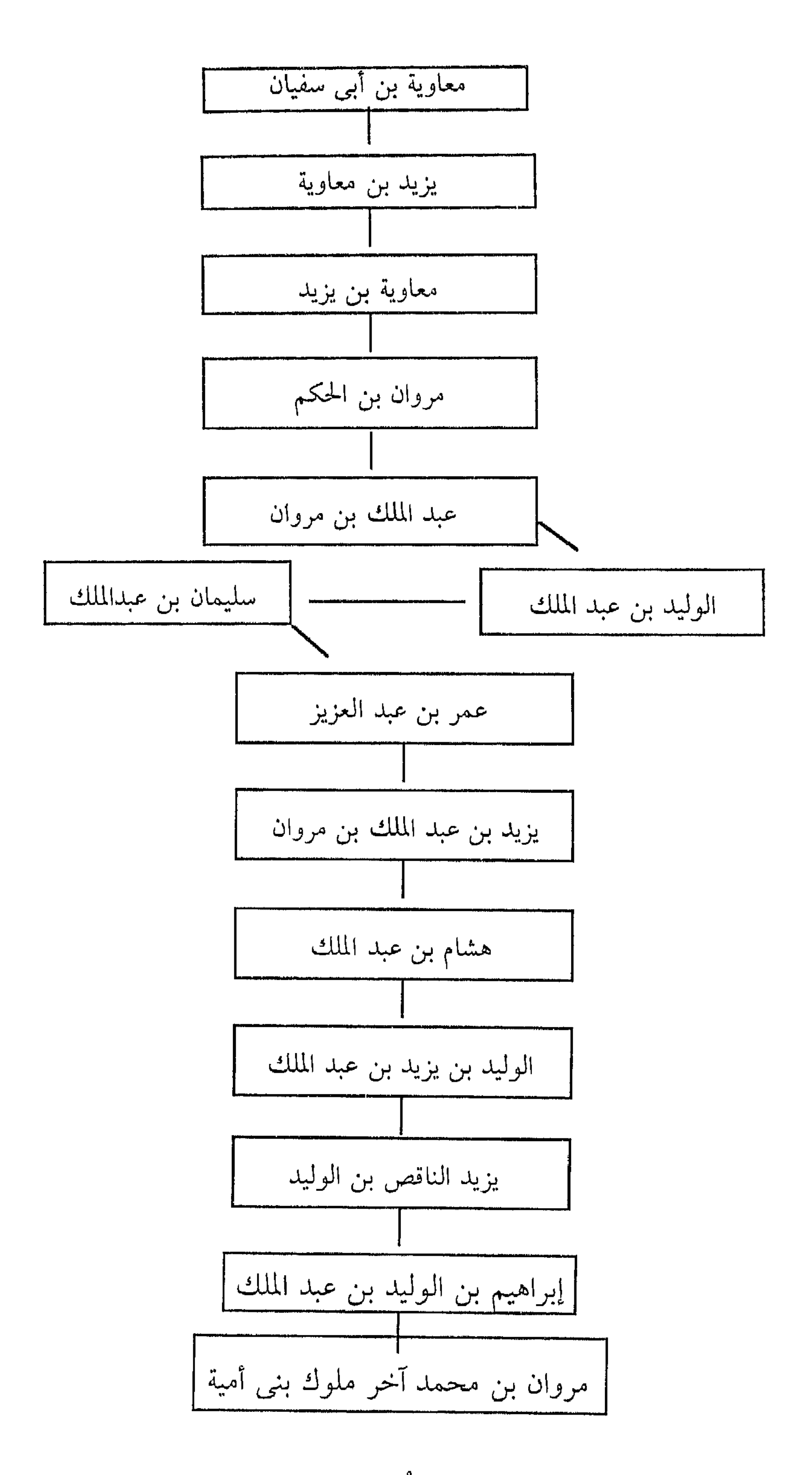
(١) نقلاً عن الفتح (١٣/ ٦٧).

شجرة نسب ملوك بنى أمية

الأموى: نسبة إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد وُلد له اثنا عشر ذكراً، وهم: العاصى، وأبو العاصى، والعيص، وأبو العيص، والعويص، وأبو عمرو، وعمرو، وسفيان، وأبو سفيان، حرب، أبو حرب، وعنبسة.

ومن هؤلاء كانت شجرة بنى أمية التى تولت الحكم فى العهد الأموى كالتالى:




معاوية بن أبى سفيان
يزيد بن معاوية
معاوية بن يزيد
مروان بن الحكم
عبد الملك بن مروان
الوليد بن عبد الملك
سليمان بن عبدالملك
عمر بن عبد العزيز
يزيد بن عبد الملك بن مروان
هشام بن عبد الملك
الوليد بن يزيد بن عبد الملك
يزيد الناقص بن الوليد
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك
مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية

التأريخ لحكام بنى أمية فى الخلافة.

اسم الخليفة	بدء ولايته	نهاية ولايته	مدة إمارته
[١] معاوية ابن أبى سفيان	يوم الخميس لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين	يوم الخميس لثمانٍ بقين من رجب سنة ستين	كانت إمارته تسع عشرة سنة وأربعة أشهر إلا أياماً (٤١هـ - ٦٠هـ)
[٢] يزيد ابن معاوية	يوم الخميس لثمانٍ بقين من رجب سنة ستين	يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين	كانت إمارته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا أياماً (٦٠هـ - ٦٤هـ)
[٣] معاوية ابن يزيد	يوم النصف من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين	يوم الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين	كانت إمارته أربعين ليلة (٦٤هـ - ٦٤هـ)
[٤] مروان ابن الحكم	يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من ذى القعدة سنة أربع وستين	فى شهر رمضان سنة خمس وستين	كانت إمارته عشرة أشهرٍ إلا ليالٍ. (٦٤هـ - ٦٥هـ)
[٥] عبد الملك ابن مروان	فى شهر رمضان سنة خمس وستين	فى شهر شوال سنة ست وثمانين	كانت إمارته ثلاثة عشر سنة، وأربعة أشهر. (٦٥هـ - ٨٦هـ)

اسم الخليفة	بدء ولايته	نهاية ولايته	مدة إمارته
[٦] الوليد ابن عبد الملك	فى شهر شوال سنة ست وثمانين	فى النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين	كانت إمارته تسع سنين وثمانية أشهر . (٨٦هـ ـ ٩٦هـ)
[٧] سليمان ابن عبد الملك	فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين	يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقين من صفر سنة تسع وتسعين	كانت إمارته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال . (٩٦هـ ـ ٩٩هـ)
[٨] عمر ابن عبد العزيز	يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقين من صفر سنة تسع وتسعين	يوم الجمعة لخمس ليالٍ بقين من رجب سنة إحدى ومائة	كانت إمارته سنتين وخمسة أشهر وخمس ليال . (٩٩هـ ـ ١٠١هـ)
[٩] يزيد ابن عبد الملك ابن مروان	فى رجب من سنة إحدى ومائة	فى الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس ومائة	كانت إمارته أربع سنين وشهراً (١٠١هـ ـ ١٠٥هـ)
[١٠] هشام ابن عبد الملك	فى الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس ومائة	فى ثلاث خلون من ربيع الأول من سنة خمس وعشرين ومائة	كانت إمارته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياماً . (١٠٥هـ ـ ١٢٠هـ)

اسم الخليفة	بدء ولايته	نهاية ولايته	مدة إمارته
[١١] الوليد ابن يزيد ابن عبد الملك	فى ثلاث خلون من ربيع الأول من سنة خمس وعشرين ومائة	فى يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة	كانت إمارته سنة وشهرين (١٢٥هـ - ١٢٦ هـ)
[١٢] يزيد ابن الوليد الناقص	فى جمادى الآخرة من سنة ست وعشرين ومائة	فى العشرين من ذى الحجة من سنة ست وعشرين ومائة	كانت إمارته ستة أشهر (١٢٦هـ - ١٢٦هـ)
[١٣] إبراهيم ابن الوليد	فى نهاية ذى الحجة سنة ست وعشرين ومائة	فى أواخر ربيع الثانى من سنة سبع وعشرين ومائة	كانت إمارته أربعة أشهر (١٢٦هـ - ١٢٧هـ)
[١٤] مروان ابن محمد	فى جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين ومائة	فى يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة	كانت إمارته خمس سنين، وستة أشهر وعشرة أيام (١٢٧هـ - ١٣٢هـ)

أول خليفة من بنى أمية

هو أول ملوك الإسلام وخيارهم، فقد تقدم أن خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً ورحمة، وقد انقضت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فأيام معاوية بن أبى سفيان أول الملك فى ديار الإسلام.

أ ـ نسبه وأصله:

هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصى بن كِلاب، أبو عبد الرحمن، القرشى، الأموى، المكى[1].

خال المؤمنين، وكاتب وحى ربّ العالمين.

وأُمُّه هى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصىّ.

فهو من أشراف مكة نسباً، وأرفعها قدراً، يلتقى فى نسبه مع نسب النبى ﷺ فى الجد الثالث.

أسلم هو وأبوه، وأمه يوم فتح مكة.

ب ـ مولده ونشأته:

اختلف فى تحديد موعد مولده على وجه الدقة والتحديد، فمن قائلٍ: إنه ولد قبل البعثة النبوية بخمس سنين، وقيل: بسبعٍ، وقيل: بثلاث عشرٍ.

قال ابن حجر العسقلانى: والأول أشهر[2].

نشأ وترعرع فى مكة بين والديه أبى سفيان بن حرب، وهند بنت عتبة فى دعةٍ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٢)، (٧/ ٤٠٦)، نسب قريش (ص/ ١٢٤) للزبيرى، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٣)، جمهرة أنساب العرب (ص/ ١١٢) لابن حزم، الاستيعاب (١٤١٦) لابن عبد البر، تاريخ بغداد (١/ ٢٠٧) للخطيب البغدادى، أسد الغابة (٤/ ٣٨٥) لابن الأثير، تهذيب الكمال (١٣٤٣) للمزى، تاريخ الإسلام (٢/ ٣١٨) للذهبى، السير (٣/ ١١٩) للذهبى، البداية والنهاية (٨/ ٢٠، ١١٧) لابن كثير، الإصابة (٣/ ٤٣٣) لابن حجر، تاريخ الخلفاء (ص/ ٩١٩٤) للسيوطى، شذرات الذهب (١/ ٦٥) لابن العماد الحنبلى.

(٢) انظر: الإصابة (٨/ ١١٢).

من العيش، ورغد. وقد كان أبواه ينظران إليه على أنه خليقٌ أن يسود فى كبره، حتى كانت أُمنية أمه أن يسود العرب قاطبة.

وقد عُرف منذ صغره بالذكاء، وسرعة التفكير، والتصرف الدقيق فى الأمور، مما جعل بعض الصحب الكرام يُدرك أن له من الشأن والمنزلة القدر الكبير.

فهذا ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ، مع أنه من البيت العباسى، يقول:

ما رأيتُ أحداً أخلق للمُلك من معاوية!

إن كان ليردُ النَّاس منه على أرجاء وادٍ رحبٍ، ولم يكن كالضيّق الحصر[1].

(جـ) إسلامه والصواب فى أوليته:

الصحيح فى بدء إسلامه: أنه أسلم هو، وأبوه، وأخوه يزيد، وأمه هند فى فتح مكة، وهذا هو الصواب[2].

وما روى أنه أسلم عام القضية[3]، ولقى رسول الله ﷺ مسلماً، وكتم إسلامه عن أبيه وأمه فلم يثبت ذلك بسندٍ صحيحٍ، فليس بصوابٍ.

ولعلَّ أوضح دليل على عدم صحته ما روى من أن رجلاً ذكر التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال الضحاك بن قيس بمحضرٍ من معاوية بن أبى سفيان: لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله.

فقال سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ: بئسما قلت يا ابن أخى، قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه، وهذا كافر بالعُرُش[4]، يعنى معاوية[5].

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الطبرى (٥/ ٣٣٧) فى تاريخه.

(٢) انظر: الاستيعاب (٣/ ١٤١٦)، أسد الغابة (٥/ ٢٠٩)، الإصابة (٦/ ١١٣).

(٣) أى عام عمرة القضاء سنة سبع.

(٤) العرش: هى بيوت مكة، وسميت بيوت مكة عرشاً لأنها عيدان تنصب وتظلل، وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذا رأى عروش مكة قطع التلبية.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (١٢٢٥)، وأحمد (١٥٠٣)، (١٥٦٨)، والنسائى (٣٧١٤) فى سننه الكبرى.

قال النووى فى تعليقه:

والمراد أنّا تمتعنا ومعاوية يومئذ كافر على دين الجاهلية مقيم بمكة، وهذا اختيار القاضى عياض وغيره، وهو الصحيح المختار.

والمراد بالمتعة العمرة التى كانت سنة سبع من الهجرة، وهى عمرة القضاء، وكان معاوية يومئذ كافراً، وإنما أسلم بعد ذلك عام الفتح، سنة ثمان[(١)].

وقد روى قصة إسلامه عام عمرة القضية الواقدى، وهو فى عداد المتروكين، فسنده ضعيفٌ جداً، فلا يعول عليه فى مثل ذلك[(٢)].

وكان ـ رضى الله عنه ـ هو وأبوه من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامهما وفى هذا يقول ابن إسحاق: وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم، ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعيرٍ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعيرٍ[(٣)].

وقد ثبت فى الصحيح من حديث رافع بن خديج إعطاء النبى ﷺ لأبى سفيان[(٤)].

ومع صفات معاوية الخَلْقية نتوقف فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى التوفيق والسداد.

(د) صفاته الخَلْقية والخُلُقية:

كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ رجلاً طويلاً، أبيض اللون، جميلاً مهيباً، أجلحاً[(٥)].

والجَلَحُ: هو ذهاب الشعر من مُقدَّم الرأس، وقيل عن جانبى الرأس.

---

(١) شرح النووى على مسلم (٨/ ٢٠٥).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٦)، السير (٣/ ١٢٢) للذهبى.

(٣) انظر: السيرة النبوية (١٨٣٣)، تاريخ الطبرى (٣/ ٩٠)، دلائل النبوة (٥/ ١٨٢) للبيهقى.

(٤) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (١٠٦٠)، والبيهقى (٥/ ١٧٨) فى الدلائل.

(٥) انظر: المعجم الكبير (٦٨٢) للطبرانى، تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٨)، أسد الغابة (٥/ ٢١٢)، تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٠٩).

ويحدثنا أسلم مولى عمر ـ رحمه الله ـ، فيقول:

قدم علينا معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ وهو أبيض الناس، وأجملهم[1].

ويروى لنا إسحاق بن يسار ـ رحمه الله ـ، فيقول:

رأيت معاوية بن أبى سفيان بالأبطح أبيض الرأس، واللحية كأنه ثلج[2].

وكان يُخضب بالصفرة، وإذا ضحك انقلبت شفته العليا.

يروى لنا أبو عبد رب ـ رحمه الله ـ، فيقول:

رأيتُ معاوية بن أبى سفيان يخضب بالصفرة، كأن لحيته الذهب[3].

وكان حليماً، وقوراً، كريماً، شهماً، رئيساً فى الناس، صاحب دهاءٍ وحكمة، ويضرب بحلمه المثل.

ذكر نسائه ونسله:

نذكر جملة من تزوج، ومن ولد له من الأولاد من الذكور والإناث:

من نسائه: مَيْسون بنت بَحْدَل بن أُنَيْف، ولدت له يزيد بن معاوية، تولى بعد أبيه. وولدت ميسون لمعاوية بنتاً، يقال لها: أمة رب المشارق، لكنها ماتت صغيرة.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الطبرانى (١٩/ ٣٠٦) فى الكبير، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٥٥): رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن جندب، وهو ثقةٌ.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرانى (١٩/ ٣٠٦)، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٥٥): إسناده حسن.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة الدمشقى (١/ ٣٤٩) فى تاريخه.

ومن نسائه: فاختة بنت قرظة، ولدت لمعاوية عبد الله، وعبد الرحمن، وهند بنت معاوية، أما عبد الرحمن فمات صغيراً، وأما هند بنت معاوية فقد تزوجها عبد الله بن عامر أما عبد الله فكان أحمقاً ضعيفاً.

ومن نسائه: كنوة بنت قرظة، أخت فاختة، وهى التى كانت معه حين افتتح قبرص، فماتت هنالك.

وولدت كنوة لمعاوية رملة، تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان.

ومن أبنائه: عائشة بنت معاوية، تزوجها محمد بن زياد بن أبى سفيان، وأمها: أُمُّ ولَدٍ.

ومن نسائه: نائلة بنت عمارة الكلبية، تزوجها، ثم طلقها فتزوجها من بعده النعمان بن بشير[1].



(1) انظر: نسب قريش (ص/ ١٢٨) للزبيرى، جمهرة الأنساب (ص/ ١١٢ - ١١٣) لابن حزم، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٩)، البداية والنهاية (٨/ ١٥٧) لابن كثير.

من فضائل معاوية رضى الله عنه

ورد الكثير من الأخبار التى تمدح وتثنى على معاوية، وأخرى تذم وتشنع عليه، والباحث المدقق يجد أن جُلّ تلك الروايات لم تصح سنداً.

ومن جملة مناقب معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ أنه كان من جملة الكُتّاب بين يدى الرسول ﷺ الذين يكتبون الوحى كما روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ، فقال:

كنتُ ألعب مع الغلمان، فإذا رسول الله ﷺ قد جاء، فقلت: ما جاء إلىّ، فقال: «اذهب فادع لى معاوية» وكان يكتب الوحى.

قال: فذهبتُ فدعوته له، فقيل: إنه يأكل، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: هو يأكل، فقال: «اذهب فادعه».

فأتيته الثانية، فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال فى الثالثة: «لا أشبع الله بطنه»[1].

قال: فما شبع بعدها.

ويعلق على هذا الحديث العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ، فيقول:

قد انتفع معاوية بهذه الدعوة فى دنياه وأخره، أما فى دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميراً، كان يأكل فى اليوم سبع مراتٍ، يجاء بقصعةٍ فيها لحمٌ كثيرٌ، وبصلٌ فيأكل منها، ويأكل فى اليوم سبع أكلاتٍ بلحمٍ، ومن الحلوى والفاكهة شيئاً كثيراً، ويقول:

والله ما أشبع، وإنما أعيا.

وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك، وأما فى الآخرة: فقد أتبع مسلمٌ هذا الحديث بالحديث الذى رواه البخارى وغيرهما من غير وجهٍ عن جماعةٍ من

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٣٣٥)، والبيهقى (٦/ ٢٤٣) فى دلائل النبوة.

الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال:

«اللهم إنما أنا بشرٌ، فأيما عبد سببته أو جلدته، أو دعوت عليه وليس لذلك أهلاً، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة»[(١)].

فركب مسلمٌ من الحديث الأول، وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك[(٢)].

وعلّق الإمامُ الذهبى على نفس الحديث قائلاً: فسره بعضُ المحبين[(٣)]، قال لا أشبع الله بطنه، حتى لا يكون ممن يجوع يوم القيامة، لأن الخبر عنه ﷺ أنه قال: **«أطول الناس شبعاً فى الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»**[(٤)].

ومن مناقب معاوية ـ رضى الله عنه ـ:

دعاء الرسول ﷺ له بالهداية.

فقد دعا رسول الله ﷺ لمعاوية بأن يكون هادياً للناس، ودالاً لهم على الخير، ومهتدياً فى نفسه.

يروى عبد الرحمن بن أبى عميرة المزنى ـ رضى الله عنه ـ، فيقول:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فى معاوية:

«اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده، واهد به»[(٥)].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠٣)، وأحمد (٢/ ٢٤٣)، (٣/ ٤٠٠)، والطيالسى (٢٧٤٦).

(٢) نقلاً عن البداية والنهاية (٨/ ١٣٠).

(٣) نقلاً عن سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٣) للذهبى.

(٤) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠)، وابن أبى الدنيا (ق ٢) فى الجوع، وخرجته هنالك مفصلاً.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى(٣٩٣١) وقال: حسن غريب، والبخارى فى التاريخ الكبير (٥/ ٢٤٠)، وأحمد (٤/ ٢١٦)، وابن سعد (٧/ ٤٨١) فى طبقاته، وابن أبى عاصم (١١٢٩) فى «الآحاد والمثانى»، والطبرانى (٣١١)، (٣٣٣)، (٣٣٤) فى مسند الشاميين، وأبو نعيم (٨/ ٣٥٨) فى حلية الأولياء، وابن الأثير (٣/ ٤٧٩) فى أسد الغابة، وصححه ابن حجر، والألبانى، وغيرهما.
وله شواهد مرسلة، انظر: البداية (٨/ ١٣٢)، والسير (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

وقد بوّب الإمام الترمذى لهذا الحديث بعنوان: مناقب معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ.

وأى منقبة مثل الدعاء بالهداية ممن لا يرد دعاؤه ﷺ؟!

وأى فضيلة أعظم من هداية الغير؟!

ومن مناقب معاوية ـ رضى الله عنه ـ: الدعاء النبوى له بالوقاية من العذاب، وتعليم الكتاب.

فيروى ابن أبى عميرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لمعاوية:

«اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب»[1].

تلك هى جملة ما صح من مناقب معاوية ـ رضى الله عنه ـ، وما سوى ذلك فى عداد الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، لذا أضربنا عنها صفحاً.

وقد يتعلق متعلقٌ بذم معاوية ـ رضى الله عنه ـ بدعوى قتاله لأمير المؤمنين على ـ رضى الله عنه ـ، وقد رددنا هذه المسألة، وأوضحنا نهج أهل السنة والجماعة فيها فيما سبق من «سيرة وحياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب».

ولكن لنتأمل سوياً فى بعض الآثار السلفية المبينة لنهج السلف الصالح فى النظر إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

يحدثنا الزهرى فيقول: سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لى: اسمع يا زهرى، من مات مُحباً لأبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وشهد للعشرة بالجنة، وترحمّ على معاوية، كان حقاً على الله ألا يناقشه الحساب.

وبالسند الصحيح إلى ابن المبارك ـ رحمه الله ـ، قال:

ترابٌ فى أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز.

---

(١) حديثُ صحيحٌ. أخرجه الطبرانى (٣٣٣) في مسند الشاميين، والذهبى (٨/ ٣٨) فى السير، وله شاهدٌ من حديث العرباض بن سارية، أخرجه أحمد (١٢٧/٤)، وابن حبان (٢٢٧٨)، والطبرانى (١٨/ ٢٥١) برقم (٦٢٨) فى الكبير، وسنده حسن فى الشواهد.

وقال محمد بن يحيى بن سعيد: سئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول فى رجلٍ قال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمد، فقال خلفه: ربنا ولك الحمد.

فقيل له: أيهما أفضل: هو أم عمر بن عبد العزيز.

فقال ابن المبارك: لترابٌ فى منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ وأفضل من عمر بن عبد العزيز.

وقال ابن المبارك: معاوية عندنا محنة دينٍ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة.

وسئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب، وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟!

معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحى الله(١).

هكذا كانت نظرة السلف الصالح، والخير كل الخير فى اتباع من سلف. والشر كل الشر فى ابتداع مَنْ خلف.



(١) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه، وعنه نقلها ابن كثير (٨/ ١٥١) فى البداية والنهاية.

معاوية بن أبى سفيان مع رعيته وولاته

كان معاوية مُحبباً بين رعيته، حليماً، وقوراً، كريماً، عادلاً، حريصاً على استرضاء الصحب الكرام، وتألفهم بالجوائز والعطايا.

فيحدثنا سعيد بن عبد العزيز أن معاوية بن أبى سفيان قضى عن عائشة ديناً قدره ثمانية عشر ألف دينار.

وبعث إليها مرةً بمائة ألف، فما أمست حتى فرقتها.

ودخل الحسن بن على على معاوية، فقال معاوية:

لأجيزنك بجائزةٍ لم يُجزها أحدٌ كان قبلى، فأعطاه أربعمائة ألف[1].

ولم يدخر شيئاً عن رعيته، بل خطبهم فقال:

إن فى بيت مالكم فضلاً عن عطائكم، وأنا قاسمه بينكم[2].

وكان ينصح لرعيته من خلال نصيحته لولاته، فها هو معاوية يستعمل عبيد الله بن زياد على خراسان، فيقول له:

اتق الله..

ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً، فإن فى تقواه عوضاً، وقِ عِرْضَك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهداً فَفِ به، ولا تبيعن كثيراً بقليلٍ، ولا تُخرجن منك أمراً حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يُردنّ عليك.

وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً فى غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق له[3].

ما أروعها من كلمات فى سجل أول خليفة من خلفاء بني أمية!

---

(١) أخبار صحاحٌ. انظر: تاريخ ابن عساكر (١٦/ ٣٦٩، ٣٧٠/ب) نقلاً عن السير (٣/ ١٥٤).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عساكر (١٦/ ٣٣٦/آ)، وانظر: السير (٣/ ١٥٢).

(٣) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٦).

وما أجدر أن يضعها كل والٍ من ولاة المسلمين نصب عينيه، عظة له، وتذكرة.

ويأتيه الرجل من رعيته، فيقول: والله لتستقيمن بنا يا معاوية، أو لنقوِّمنّك.

فيقول: بماذا؟ فيقولون: بالخُشُب[1]. فيقول: إذاً أستقيم[2].

فهو لين شديد الليونة فى مواطنها، فظ غليظ فى مواطن الشدة والفظاظة.

ومرض معاوية - رضى الله عنه - فأرجف به مصقلةُ بن هبيرة، فحمله زيادٌ إلى معاوية، وكتب إليه: إن مصقلة بن هبيرة يجتمع إليه مُرَّاق من أهل العراق، يُرجفون بأمير المؤمنين، وقد حملتهُ إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه، فوصله مصقلة، ومعاوية قد برأ، فلما دخل عليه أخذ بيده، وقال: يا مصقلة:

أبقى الحوادثُ من خليلِك مثل جَنْدَلَةِ المراجِمْ

قد رامنى الأعداءُ قبلكَ فامتنعتُ عن المظالم

صُلْبًا إذا خَارَ الرِّجا   لُ أَبَلَّ مُمْتَنِعَ الشكائم

ثم جذبه فسقط، فقال مصقلة: يا أمير المؤمنين، قد أبقى الله منك بطشًا، وحلمًا راجحًا وكلأً، ومرعًى لوليك، وسمًّا ناقعًا لعدوك، ولقد كانت الجاهلية، فكان أبوك سيّدًا، وأصبح المسلمون اليوم وأنت أميرهم.

فوصله معاوية ورده، فسُئِل عن معاوية فقال مصقلة: زعمتم أنه كبر وضعف، والله لقد جبذنى جبذةً كاد يكسر منى عضواً، وغمز يدى غمزة كاد يحطمنى[3]!!

وقد كان معاوية - رضى الله عنه - يسمع للنصح، ويطلب المشورة، وإن جاءته شديدة فى ألفاظها ومعانيها.

يحدثنا عروة بن الزبير - رحمه الله - فيقول:

أخبرنى المسور بن مخرمة أنه وفد على معاوية، فقضى حاجته، ثم خلا به،

---

(١) الخُشُب: جمع خشيب، وهو السيف الصيقل.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن عساكر (١٦/ ٣٦٨/ب) كما فى السير (٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه القالى (٢/ ٣١١) فى الأمالى.

فقال: يا مِسْور ما فعل طعنك على الأئمة؟

قال المسور بن مخرمة ـ رضى الله عنه ـ: دعنا من هذا، وأحسن.

قال معاوية: لا والله لتكلمنى بذات نفسك بالذى تعيبُ علىَّ.

قال مسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بنيتُ له.

فقال: لا أبرأ من الذنب، فهل تُعَدُّ لنا يا مسورُ ما نلى من الإصلاح فى أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعد الذنوب، وتترك الإحسان؟!

قال: ما تذكر إلا الذنوب.

قال معاوية: فإنا نعترفٌ لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوبٌ فى خاصتك تخشى أن تُهلك إن لم تغفر؟!

قال مسور: نعم.

قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحق منى؟!

فو الله، ما ألى من الإصلاح أكثر مما تلى، ولكن والله لا أُخيَّر بين أمرين بين الله، وبين غيره، إلا اخترتُ الله على ما سواه، وإنى لعلى دينٍ يُقبل فيه العملُ، ويُجزى فيه بالحسنات، ويُجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها.

قال مسور: فخصمنى.

قال عروة: فلم أسمع المسور بن مخرمة ذكر معاوية إلا صلَّى عليه، يعنى دعا له[1].

وفى رواية أخرى: قال معاوية ـ رضى الله عنه ـ: أنا على دينٍ يقبل الله فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوازى أمورًا عظامًا لا أحصيها ولا تحصيها، من عملٍ الله فى إقامة صلوات المسلمين، والجهاد فى سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التى لست تحصيها، وإن عددتها لك، فتفكر فى ذلك.

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧١٧) فى المصنف، والخطيب (١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) فى تاريخ بغداد، وأورده الذهبى (٣/ ١٥١) فى السير، (٤/ ٨٠) فى تاريخ الإسلام، وابن كثير (٨/ ١٣٣) فى البداية والنهاية.

قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمنى حين ذكر لى ما ذكر.

قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له.

هكذا كان معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ من الخير بمكان، مما دعا الربيع بن نافع ـ رحمه الله ـ أن يقول: معاوية بن أبى سفيان سِترُ أصحاب النبى ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر اجترئ على ما وراءه[1].

ويحدثنا رباح الموصلى فيقول: سمعتُ رجلاً يسأل المعافى بن عمران، فقال:

يا أبا مسعود، أين عمر بن عبد العزيز من معاوية بن أبى سفيان؟ فغضب من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: لا يقاس بأصحاب رسول الله ، أحدٌ، معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحى الله عز وجل[2].

وقد كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ مبجلاً لولاته، وقورًا معهم، مُدْركًا لقدرات كل واحدٍ منهم، مستشيرًا لهم.

فإن ظهر له من الشكاوى الصادقة فى حق بعضهم قام بعزله، وتولية غيره.

فهذا قاضى الشام أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ حضرته الوفاة، فماذا يفعل معاوية؟

طلب مشورته قبل موته وعمل بنصيحته قال له معاوية:

من ترى لهذا الأمر؟ قال: فضالة بن عبيد رضى الله عنه.

فلما مات أرسل معاوية إلى فضالة فقال: إنى قد وليتُك القضاء، فاستعف منه.

فقال معاوية: والله ما حابيتُك بها، ولكنى استترت بك من النار فاستتر منها ما استطعت فتولى القضاء[3].

يقول سعيد بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: فلما توفى فضالة فى خلافة معاوية، فحمل معاوية سريره، وقال لابنه عبد الله:

---

(١) أخرجه الخطيب (١/ ٢٠٩) فى تاريخه.
(٢) أخرجه الخطيب (١/ ٢٠٩) فى تاريخه.
(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة الدمشقى (١٤٣) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٣/ ١١٥) فى السير.

أعقبنى أى بُنىّ، فإنك لن تحمل بعده مثله[1].

وهذا عبد الله بن عامر استعمله معاوية على البصرة، وكان رجلاً لينًا كريمًا، لا يأخذ على أيدى السفهاء، ففسدت البصرة بسبب ذلك أيام عمله بها لمعاوية.

يروى يزيد الباهلى أن ابن عامر شكا إلى زياد فساد الناس، وظهور الخبث.

فقال: جرِّد فيهم السيف. فقال: إنى أكره أن أصلحهم بفساد نفسى[2].

ويقول أبو الحسن المدائنى: كان ابن عامر لينًا سهلاً، سهل الولاية، لا يعاقب فى سلطانه، ولا يقطع لصًا، فقيل له فى ذلك، فقال:

أنا أتألف الناس، فكيف أنظر إلى رجلٍ قد قطعتُ أباه وأخاه[3]؟!!

ومن هنا كان لعزل معاوية له؛أهمية كبرى فى إصلاح أحوال الرعية.

ولمعاوية من أساليب التربية والاختبار للولاة لمعرفة أحوالهم، والوقوف على قدراتهم.

يقول مسلمة بن محارب:

كان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حَرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيرًا، وما يعجبه ولاّه مكة معها، فإن أحسن الولاية، وقام بما وُلِّىَ قيامًا حسنًا، جمع له معهما المدينة.

فكان إذا ولى الطائف رجلاً،قيل: هو فى أبى جاد،أى فى أول الأمر.

فإذا ولاه مكة، قيل: هو فى القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق.

والمتأمل فى وصايا معاوية ونصائحه إلى ولاته يجد حرصه على أحوال المسلمين،وشدة شفقته عليهم،والتشديد على الولاة بالتزام العدل والرفق.

حدثنا مسلمة بن محارب، ومحمد بن أبان القرشى فقالا:

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو زرعة (٢١٢)، وخليفة (٢١٨) فى تاريخه، وانظر: الكامل (٣/ ٤٧٢) لابن الأثير.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢١٢).

(٣) خبرٌ حسنٌ. اخرجه الطبرى (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) فى تاريخه.

لما مات زيادٌ وفد عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فقال له:
من استخلف أخي على عمله بالكوفة؟

قال: عبد الله بن خالد بن أسيد. قال: فمن استعمل على البصرة؟ قال: سمرة بن جندب الفزارى، فقال له معاوية: لو استعملك أبوك استعملتك.

فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقولها إلىَّ أحدٌ بعدك: لو ولاّك أبوك وعمّك لوليتك!

قالا: فلما قال عبيد الله ما قال ولاّه خُراسان، ثم قال له حين ولاه: إنى قد عهدتُ إليك مثل عهدى إلى عمالى، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندى:

لا تبيعن كثيرًا بقليلٍ، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك،

وافتح بابك للناس تكن فى العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمتَ على أمرٍ فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحدٍ فيك مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبوك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تؤاسيهم بنفسك فآسِهم[1].

وفى روايةٍ أخرى لهذا الخبر، قال له:

اتق الله، ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا، فإن فى تقواه عِوضًا، وقِ عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهدًا فَفِ به.

وإذا أساء الأمير، وشكا منه أهل ولايته، فإن معاوية لا يتأخر عن عزله من ولايته. فهذا عبد الله بن عمرو بن غيلان، كان أميرًا على البصرة، فخطب على منبر البصرة، فحصبه رجلٌ من بنى ضبة، يُدعى جبير بن الضحاك، فأمر به فقُطعت يده.

فأتته بنوضبة، فقالوا: إن صاحبنا جنى ما جنى على نفسه، وقد بالغ الأمير

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الطبرى (٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) فى تاريخه.

فى عقوبته، ونحن لا نأمن أن يبلغ خبره أمير المؤمنين، فيأتى من قِبله عقوبة تخص أو تعمُّ، فإن رأى الأمير أن يكتب لنا كتابًا يخرج به أحدنا إلى أمير المؤمنين، يُخبره أنه قطعه على شُبهةٍ، وأمرٍ لم يَتضِحْ.

فكتب لهم بعد ذلك إلى معاوية، فأمسكوا الكتاب حتى بلغ رأس السنة، فوجّه إلى معاوية، ووافاه الضبيون، فقالوا:

يا أمير المؤمنين، إنه قطع صاحبنا ظلمًا، وهذا كتابه إليك، وقرأ الكتاب، فقال:

أما القود من عمالى فلا يصح، ولا سبيل إليه، ولكن إن شئتم وديت صاحبكم، قالوا: فَدِه، فَوَدَاه من بيت المال، وعَزَلَ عبد الله.

وسأل رجلٌ الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عن علىٍّ وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ فقال:

كانت لهذا سابقة، ولهذا سابقة،ولهذا قرابة، ولهذا قرابة، وابتلى هذا، وعُوفى هذا، فسأله عن علىٍّ ومعاوية؟ فقال: كان لهذا قرابة، ولهذا قرابة، ولهذا سابقة، وليس لهذا سابقة، وابتليا جميعًا(١).

حتى فى كل ما حدث بينه وبين علىٍّ من نزاعٍ كان معاوية متأولاً، فهذا أبو مسلم الخولانى يدخل مع أناسٍ على معاوية، فيقول:

أنت تنازع عليًا أم أنت مثله؟

فيقول معاوية: لا والله، إنى لأعلم أنه أفضل منى، وأحقُّ بالأمر منى، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلومًا. وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فائتوه، فقولوا له:

فليدفع إلىَّ قتلة عثمان، وأُسلّم له.

---

(١) انظر: السير (٣/ ١٤٢).

فأتوا عليًا، فكلموه، فلم يدفعهم إليه[1].

وكان معاوية - رضى الله عنه - حريصًا على السُّنة النبوية بين رعيته، ويتضح ذلك من الأمثلة الجلية التالية:

يقول أبو الدرداء - رضى الله عنه -: ما رأيت أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من أميركم هذا، يعنى معاوية[2].

ويروى حميد بن عبد الرحمن أنه رأى معاوية يخطب على المنبر، وفى يده قصة من الشعر، فسمعته يقول: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟! سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، ويقول: **«إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذت مثل هذه نساؤهم»**[3].

ويقول حميد: وسمعته يقول: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟!

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء، ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم، فإنى صائم»[4] فصام الناس.

ويخبرنا كريب مولى ابن عباس: أنه رأى معاوية صلى العشاء، ثم أوتر بركعةٍ واحدةٍ لم يزد، فأخبر ابن عباس، فقال: أصاب، أى بُنىّ، ليس أحدٌ منا أعلمَ من معاوية، هى واحدةٌ، أو خمسٌ، أو سبعٌ، أو أكثر[5].

وبمثل هذه الشهادة باتباع السنة، والعلم من الحبر العلامة، ابن عباس - رضى الله عنهما - لمعاوية أن يهنأ ويسر بذلك.

ففى روايةٍ صحيحة: قيل لابن عباس: ما أوتر إلا بواحدة؟!

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الجعفى فى كتاب «صفين» كما فى السير (٣/ ١٤٠)، وأورده ابن كثير فى البداية (٨/ ١٢٩).

(٢) خبرٌ صحيحٌ أورده الذهبى (٣/ ١٣٥) مُسندًا.

(٣) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢١٢٧)، وأبو داود (٤١٤٩)، والترمذى (٢٩٣١)، والنسائى (٨/ ١٨٦)، وأحمد (٤/ ٩٥، ٩٧).

(٤) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٢٠٠٣)، ومسلم (١١٢٩)، والحميدى (٦٠١)، وأحمد (٤/ ٩٥، ٩٧، ٩٨).

(٥) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الشافعى (١/ ١٠٨) فى مسنده.

قال: أصاب، إنه فقيهٌ.

ومن مواقف اتباعه للسنة النبوية: ما رواه أبو مجلز ـ رحمه الله ـ، قال:

إن معاوية دخل بيتًا فيه عبد الله بن عامر وابن الزبير، فقعد ابن الزبير، وقام ابن عامر، فقال معاوية لابن عامر اجلس! فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من أحب أن يتمثل له العباد قيامًا فليتبوء مقعده من النار»[1].

وفى روايةٍ أخرى: **«من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوء مقعده من النار»**.

وكان معاوية ـ رضى الله عنه ـ يحرص على تأديب رعيته، برفقٍ وحنكة، وشفقة وخبرة.

يروى حوشب بن سيف فيقول: غزا الناس فى زمان معاوية، وعليهم عبد الرحمن بن خالد، فغلّ رجلٌ من المسلمين مائة دينارٍ رومية، فلما قفل الجيش ندم الرجل، فأتى عبد الرحمن بن خالد فأخبره خبره، وسأله أن يقبلها منه، فأبى وقال: قد تفرق الجيش، فلن أقبلها منك حتى تأتى بها يوم القيامة، فجعل يستقرئ أصحاب النبى ﷺ يسألهم فيقولون، مثل ذلك.

فلما قدم دمشق على معاوية ذكر له ذلك، فقال له مثل ذلك، فخرج من عنده وهو يبكى، ويسترحم، فمرَّ بعبد الله بن الشاعر السكسكى، فقال:

ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال: أمطيعى أنت يا عبد الله؟ قال: نعم. قال: فانطلق إلى معاوية، فقل: اقبل منى خمسك، فادفع إليه عشرين دينارًا، وانظر إلى الثمانين الباقية، فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم، ومكانهم.

ففعل الرجل، فقال معاوية: لأن أكون أفتيته بها أحب إلىَّ من كل شيءٍ

---

(١) حديثٌ صحيح. اخرجه ابو داود (٥٢٠٧)، والترمذى (٢٩٠٣)، (٢٩٠٤)، واحمد (٤/ ٩١، ٩٣، ١٠٠) والطبرانى (١٩/ ٣٥١) فى الكبير، و (١٩/ ٣٦٢)، ويراجع الكلام عليه فى السلسلة الصحيحة (٣٥٧).

أملكه، أحسن الرجل[1].

وقام رجلٌ إلى معاوية، فقال له: سألتك بالرحم التى بينى وبينك؟

فقال: أمِنْ قريشٍ أنت؟ قال: لا. قال: أفمن سائر العرب؟ قال: لا. قال: فأيَّةُ رحمٍ بينى وبينك؟ قال: رَحِمُ آدم.

قال معاوية: رَحِمٌ مَجفُوَّة، والله لأكونن أول من وصلها، ثم قضى حاجته[2].

فقد كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ يعفو عن السفيه، ويحلُمُ عن الجاهل، ويسعى فى إصلاح الرعية، كما أوجز الذهبى ـ رحمه الله ـ، فقال: معاوية بن أبى سفيان، أمير المؤمنين، مَلِكُ الإسلام، أبو عبد الرحمن القرشى، الأموى[3].

حسبُك بمن يُؤمِّره عُمر، ثم عثمان على إقليمٍ فيضبطه، ويقوم به أتم قيامٍ، ويُرضى الناسَ بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألم مرةً منه، وكذلك فليكن المُلك. وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ، خيرًا منه بكثيرٍ وأفضل، وأصلح، فهذا الرجل ساد، وساس العالم بكمال عقله، وفرط حلمه، وسعةَ نفسه، وقوة دهائه، ورأيه.

وله هناتٌ، وأمورٌ، والله الموعد.

وكان محببًا إلى رعيته، عمل نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يَهِجْهُ أحدٌ فى دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب، وغير ذلك[4].

ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببرىءٍ من الهنات، والله يعفو عنه[5].

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الفزارى (ص/٢٤٩) فى السير، وابن عبد البر (٢/ ٢٤) فى التمهيد.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه القالى (١/ ١٩٨) فى الأمالى.

(٣) انظر: السير (٣/ ١١٩ ـ ١٢٠) للذهبى.

(٤) السير (٣/ ١٣٣).

(٥) السير (٣/ ١٥٩) وكان الحسن البصرى ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليًا، وقتله حُجر بن عدى، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه، انظر: البداية (٨/ ١٤١) ولكن فى هذه الأمور حدثت تأويلات، وقد ذكرنا بعضها فى «مناقب أمير المؤمنين» «على بان أبى طالب» رضى الله عنه وروى ابن =

وما أجمل أن نختم أحوال معاوية ـ رضى الله عنه ـ مع رعيته وولاته بالموقف السامى التالى:

ولّى معاوية روح بن زنباع فعتب عليه فى جناية، فكتب إليه بالقدوم، فلما قدم أمر بضربه بالسياط، فلما أُقيم ليُضرب، قال: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تهدم منى ركنًا أنت بنيته، أو أن تضع منى خسيسة أنت رفعتها، أو تُشمت بى عدوًا أنت وقمته[1]، وأسألك بالله إلا أتى حِلْمُك وعفوك دون إفساد صنائعك، فقال معاوية:

إذا الله سَنّى عَقْدَ أمرٍ تيسَّر، خَلُّوا سبيله[2].



= عساكر عن أبى زرعة الرازى أنه قال له رجلٌ:

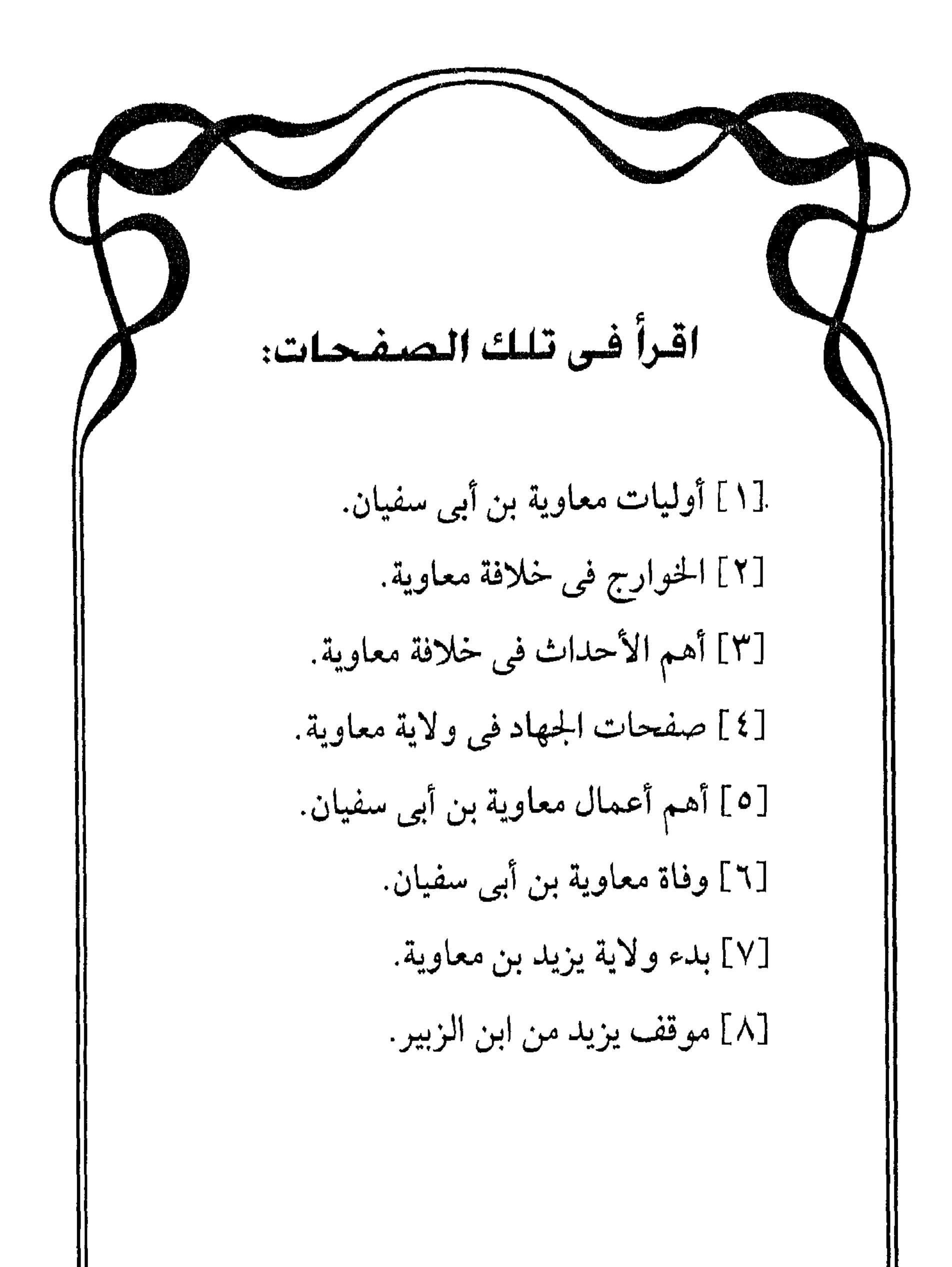
إنى أبغض معاوية!

فقال أبو زرعة له: لم؟! قال: لأنه قاتل عليًا. فقال أبو زرعة: ويحك، إن رب معاوية رحيمٌ، وخصم معاوية خصم كريم، فإيش دخولك أنت بينهما؟!! رضى الله عنهما.

وسئل الإمام احمد بن حنبل عما جرى بين علي ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ، فقرأ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة: ١٤١.

(١) وقمته: أذللته واصغرته.

(٢) خبرٌ حسنٌ: أخرجه القالى (١/ ٢٥٥) فى الأمالى، وابن عساكر في تاريخه، كما فى تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٤١).



اقرأ فى تلك الصفحات:

[١] أوليات معاوية بن أبى سفيان.

[٢] الخوارج فى خلافة معاوية.

[٣] أهم الأحداث فى خلافة معاوية.

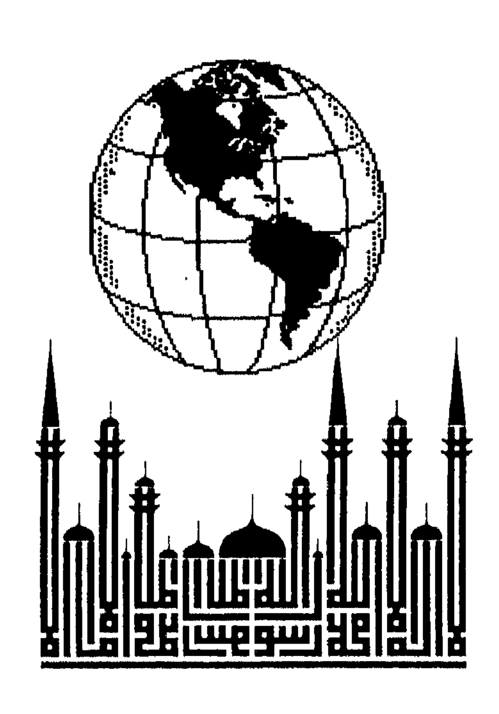
[٤] صفحات الجهاد فى ولاية معاوية.

[٥] أهم أعمال معاوية بن أبى سفيان.

[٦] وفاة معاوية بن أبى سفيان.

[٧] بدء ولاية يزيد بن معاوية.

[٨] موقف يزيد من ابن الزبير.



[٤٦ / الأمويون/ صحابة]

أوليَّات معاوية بن أبي سفيان

اختص معاوية بن أبى سفيان ببعض الأوائل التى لا تذكر إلا بذكره، وتعد ضمن سجل أولياته وإن كان فى بعضها ما يعد مخالفة عليه، لا له.

[١] أول من اتخذ الديوان للختم.

[٢] أول من اتخذ المقاصير فى الجامع.

[٣] أول من قتل مسلمًا صبرًا[١].

[٤] أول من اتخذ الخُدَّام الخصيان فى الإسلام.

[٥] أول من بلغ درجات المنبر خمس عشر مرقاة.

[٦] أول الملوك فى الإسلام.

[٧] أول من قام الحرس على رأسه.

[٨] أول من قيدت بين يديه النجائب.

[٩] أول من خطب الناس قاعدًا، وذلك حين كثرت سمنته.

[١٠] أول من أحدث الأذان فى العيد.

[١١] أول من نقص التكبير.

[١٢] أول من وضع البريد فى الإسلام.

[١٣] أول من أحدث الخطبة قبل الصلاة فى صلاة العيد.

[١٤] أول من استخلف فى البيعة.

[١٥] أول من أذن فى تجريد الكعبة، وكان كسوتها قبل ذلك يطرح عليها شيءٌ فوق شيءٍ[٢].

[١٦] أول من اتخذ لمكة الأبواب، وكانت أبواب مكة لا أغلاق لها[٣].

---

(١) يعنى حجر بن عدى وأصحابه.

(٢) انظر: السير (٣/١٥٧) للذهبى، تاريخ الخلفاء (ص/٣١٧ ـ ٣١٨) للسيوطى.

(٣) انظر: البداية (٨/ ١٥١).

الخوارج في خلافة معاوية

الخوارج تلك الفرقة الضالة المضلة، التى ظهرت عقب مسألة قبول أمير المؤمنين على بن أبى طالب التحكيم، وقد قاتلهم قتالاً شديدًا، وأبان عن ضلالهم ومروقهم من الدين.

ضمد الخوارج جروحهم، وجمعوا صفوفهم، وصوبوا نظراتهم إلى معاوية، فهو فى ميزانهم أولى بالقتل من علىٍّ، لأنه نال مقام الخلافة بالغلبة والقهر، لا بالشورى، واختيار أهل الحل والعقد. هكذا فى زعمهم الباطل.

وقد حاولوا منذ بدء ظهورهم اغتيال معاوية ـ رضى الله عنه ـ، وقد فشلوا فى خلافة علىٍّ فى تدبير مؤامرة قتل معاوية، وأفلحوا فى اغتيال الإمام على ـ رضى الله عنه ـ، كما مَرَّ بنا.

وإن كانت محاولة الاغتيال الأولى قد باءت بالفشل، فإن معاوية قد جُرح، وهم قد دبروا لمحاولة الاغتيال الثانية.

يحدثنا أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فيقول:

تعاهد ثلاثة من أهل العراق على قتل معاوية، وعمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة، وأقبلوا بعد بيعة معاوية بالخلافة حتى قدموا إيلياء[(١)]، فصلوا من السحر فى المسجد، فلما خرج معاوية لصلاة الفجر، كبَّر، فلما سجد انبطح أحدهم على ظهر الحرس الساجد بينه وبين معاوية حتى طعن معاوية فى مأكمته[(٢)].

فانصرف معاوية، وقال: أتموا صلاتكم، وأُمسك الرجلُ، فقال الطبيب: إن لم يكن الخنجر مسمومًا فلا بأس عليك.

(١) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس.

(٢) مأكمته: المأكمة: العجيزة، مؤخرة الرجل.

فأعدَّ الطبيبُ عقاقيره، ثم لحس الخنجر، فلم يجده مسمومًا، فكبَّر، وكبَّر من عنده.

فقيل: ليس بأمير المؤمنين بأس[1].

يعلق العلامة الذهبى ـ رحمه الله ـ على هذا الخبر قائلاً: هذه المرة غيرُ المرة التى جُرح فيها، وقتما قُتل علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ فإن تلك فلق أليته[2]، وسُقى أدوية خلصته من السم، لكن قُطع نسله.

ومن بعد فشل تلك المؤامرة ناصب الخوارج بنى أمية العداء، وخرجوا أكثر من مرة على أمراء معاوية رجاء أن يعيدوا الخلافة والشورى إلى حياة المسلمين، هكذا بزعمهم!

بدأت الخوارج الخروج فى سنة إحدى وأربعين، ثم فى سنة اثنتين وأربعين أعادوا الكرة.

فيروى لنا المؤرخ ابن جرير الطبرى فى أحداث سنة اثنتين وأربعين:

تحركت الخوارجُ الذين انحازوا عمن قتل منهم بالنهروان، ومن كان من جرحاهم فبرءوا، ومن عفا عنهم على بن أبى طالب رضى الله عنه[3].

وهكذا كان تحرك الخوارج مبكرًا لقتال معاوية، والخروج عليه، ولكن قلة عددهم لم تمكنهم من مرادهم.

ولكن دارت الدائرة على الخوارج فى سنة ثمان وخمسين، فاشتد عليهم ابن زياد، فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وفى الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبرًا عروة بن أدية.

أما سبب قتله إياهم فيقصه علينا عيسى بن عاصم الأسدى، فيقول:

إن ابن زياد خرج فى رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس، وفيهم

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الفسوى فى تاريخه، وعنه نقله الذهبى (٣/١٤٣) فى السير، ثم أخرجه الفسوى (١/٤١٣) بمعناه عن خالد بن عبد الله بن رباح.

(٢) الألية: هى العجيزة.

(٣) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى (٥/١٧٣ ـ ١٧٥).

عروة بن أديّة أخو مرداس بن أدية، فأقبل على ابن زياد، فقال:

ثلاثٌ كنا فى الأمم قبلنا، فقد صرن فينا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[1].

وخصلتين آخريين، فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يجترئ على ذلك إلا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه، فقيل لعروة: ما صنعت؟! تعلمنَّ والله ليقتلنك.

قال: فتوارى، فطلبه ابن زياد، فأتى الكوفة، فأُخذ بها، فأتى به على ابن زياد، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم دعا به فقال: كيف ترى؟

قال: أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك، فقتله[2].

أما ما حدث لأخيه مرداس، فيقصه علينا يونس بن عبيد - رحمه الله - فيقول:

خرج مرداس أبو بلال فى أربعين رجلاً إلى الأهواز، فبعث إليهم ابن زياد جيشًا عليهم ابن حصن التميمى، فقتلوه فى أصحابه وهزموه[3].

وهكذا كان أمراء معاوية بالمرصاد لكل حركةٍ من حركات الخوارج، فلم يرفعوا رأسًا فى خلافة معاوية.

وفى سنة ثمان وخمسين أيضًا: خرجت الخوارج فى أيام ابن أم الحكم، وكان رئيسهم فى هذه الوقعة حيَّان بن ظبيان السلمى، فبعث إليهم جيشًا فقتلوا الخوارج جميعًا. ومن كل ما سبق نستنتج أن الخوارج لم يكن لهم أى قدرٍ يذكر فى دولة معاوية، مما يجلى حقيقة أنه كان صاحب دولة قوية، اجتمعت فيها الرعية على إمامها.

---

(١) سورة الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الطبرى (٥/ ٣١٢ - ٣١٣) فى تاريخه.

(٣) خبرٌ صحيح. اخرجه الطبرى (٥/ ٣١٣ - ٣١٤)، وانظر: البداية (٨/ ٩٠).

أهم الأحداث في خلافة معاوية

بدءًا من عهد الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ كان معاوية أميرًا على الشام، وظل لمدة عشرين سنة يدير شئون ديار الشام خلال عهدى عثمان وعلى ـ رضى الله عنهما ـ

فساد معاوية ـ رضى الله عنه، ـ وساس ديار الشام فى ولايته، وقاد كل المسلمين فى خلافته، بكمال عقله، وفرط حلمه، وقوة دهائه، ورأيه.

وقد أدرك خلافته جمٌّ غفيرٌ من الصحب الكرام منهم سعد بن أبى وقاص، وأسامة بن زيد، وجابر بن عبد الله، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وأنس بن مالك، وغيرهم أضعاف مضاعفة رضى الله عنهم أجمعين[١].

بل كان زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ يأخذ العطاء فى خلافة معاوية، وكانت بيعته سنة إحدى وأربعين، وهو عام الجماعة، فأقام عشرين سنة إلا أشهرًا.

وكان مُلكه فى تلك الحقبة من القرن الأول يضم بلاد الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب وأجوارها.

واستطاع فى فترة حكمه أن يزيد فى رقعة دولة الإسلام من خلال إرسال الجيوش إلى ساحات الجهاد، وفتوح البلدان.

وهذا سجلٌ بأهم الأحداث فى سنوات خلافة معاويةٌ ـ رضى الله عنه ـ مبرزين فيه الأعمال التى تمت فى ولايته، وعلى رأسها الفتوحات.

فى سنة إحدى وأربعين: تمت البيعة لمعاوية ـ رضى الله عنه، وولى أمراء على البلدان كالتالى: ولى عبد الله بن عامر البصرة، ومروان بن الحكم المدينة، وعلى مصر عمرو بن العاص. واستعمل معاويةُ على الكوفة المغيرة بن شعبة، وكان على

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (١/١٨٩) لأبى زرعة الدمشقى.

قضائه بالشام فضالة بن عبيد وفى نفس تلك السنة أرسل معاويةُ جيشًا بقيادة عُقبة بن نافع الفهرى فغزا إفريقية[1].

حوادث سنة اثنتين وأربعين:

فيها بعث معاوية ـ رضى الله عنه ـ عبد الرحمن بن سمرة فى جيشٍ كثيفٍ فافتتح سجستان، وبلاد السند.

وكذا افتتحت بلاد الأهواز، وغزا المسلمون اللاّن بأرمينية فقتلوا وغنموا كثيرًا. وفيها سار راشد بن عمروش، وأوغل فى بلاد السند[2].

حوادث سنة ثلاث وأربعين:

فيها افتتح عقبة بن نافع بعض بلاد السودان، وودَّان، وهى من أعمال برقة.

وفيها فتح ابن سمرة الرُّخَّج[3] وغيرها من نواحى سجستان[4].

وفى هذه السنة مات عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ بمصر، فولى معاويةُ من بعده ولده عبد الله بن عمرو، فعمل له عليها سنتين.

وفيها: كانت وقعة عظيمة بين الخوارج، وجند الكوفة، فجهز إليهم المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ جندًا عليهم معقل بن قيس فى ثلاثة آلاف فقاتلهم[5].

حوادث سنة أربع وأربعين:

فيها: قام عبد الرحمن بن سمرة بفتح كابل، وغزا المهلب بن صفره أرض الهند، وسار إلى قَنْدابيل[6]، وكسر العدو، وعاد بغنائم كثيرة.

وفى هذه السنة حج معاوية ـ رضى الله عنه ـ بالناس، وعزل ابن عامر عن البصرة.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٤)، الكامل (٣/ ٤١٩) لابن الأثير، تاريخ الإسلام (٤/ ٨).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩ ـ ١٠)، شذرات الذهب (١/ ٥٣) لابن العماد.

(٣) الرخج: مدينة من نواحى كابل.

(٤) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٥)، الكامل (٣/ ٤٣٦)، شذرات الذهب (١/ ٥٣).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٧).

(٦) قَندابيل: هى مدينة ببلاد السند.

وفيها: غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم[1].

وفى هذه السنة استلحق معاوية ـ رضى الله عنه ـ زياد ابن أبيه، فألحقه بأبى سفيان بن حرب، وذلك أن رجلاً شهد على إقرار أبى سفيان أنه عاهر بسمية أم زياد فى الجاهلية، وأنها حملت بزياد هذا منه، فلما استلحقه معاوية قيل له: زياد ابن أبى سفيان.

وقد كان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ فقيه التابعين، وزاهدهم ينكر هذا الاستلحاق، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»[2].

وقد ساق الطبرى تلك القصة مطولة، فليرجع إليها من شاء[3].

حوادث سنة خمس وأربعين:

فيها: ولى معاويةُ ـ رضى الله عنه ـ الحارث بن عمرو الأزدى على البصرة، ثم عزله عن قريبٍ، وولّى عليها زياد ابن أبيه.

وفيها: غزا معاوية من حُديج إفريقية، وتوفى فيها.

وفيها: قُتل سهم بن غالب الهجيمى الذى كان قد خرج فى أول إمرة معاوية.

وفيها: حج بالناس مروان بن الحكم، وكان نائب المدينة.

وفيها: غزا الحكم بن عمرو نائب زياد على خراسان جبل الأسل، فقتل منهم

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٦)، تاريخ الإسلام (٤/١٢)، البداية والنهاية (٨/ ٣٠)، شذرات الذهب (١/ ٥٤).

(٢) حديثٌ صحيحٌ.أخرجه البخارى (٥/ ١٩٢)، ومسلم (١٤٥٧)، وأبو داود (٢٢٧٣)، والترمذى (١١٥٧)، والنسائى (٦/ ١٨٠)، وابن ماجه (٢٠٠٦)، (٢٠٠٧)، وأحمد (١/ ٥٩)، (٢/ ٢٣٩)، والحميدى (١٠٨٥)، وعبد الرزاق (٥٨٠٠) فى مصنفه، وسعيد بن منصور (٤٣٧)، (٢١٣١) فى سننه، والدارمى (٢/ ١٥٢) فى سننه، والشافعي (١٦٨٥)، والبيهقى (٦/ ٨٦)، (٧/ ١٥٧) فى سننه الكبرى.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

خلقًا كثيرًا وغنم أموالاً جمة(١).

وفى نفس هذه السنة سار عبد الله بن سوار ـ رحمه الله ـ فافتتح القيقان(٢)، وغنم، وعاد سالمًا بفضل الله تعالى(٣).

حوادث سنة ست وأربعين:

فيها: عزل معاويةُ ـ رضى الله عنه ـ عبد الرحمن بن سمرة عن سجستان، وولاّها الربيع بن زياد الحارثى. الذى دخل بدوره فى صراع مع أهل كابل، وهزمهم شر هزيمة عرفها الترك فى أيامها.

وفيها: انصرف عبد الرحمن بن خالد بنِ الوَليد من بلاد الروم إلى حمص، فدس ابن أثال النصرانى شربةً مسمومةً فقتلته عندما شربها.

وفيها: حج بالناس فى هذه السنة عُتبة بنُ أبى سفيان، أخو معاوية(٤).

حوادث سنة سبع وأربعين:

فيها: غزا رويفع بن ثابت الأنصارى أمير طرابلس إفريقية، فدخلها، ثم انصرف.

وفيها: جمعت الترك جموعها، فالتقى بها عبد الله بن سوار ببلاد القيقان، فاستشهد، وغلب المشركون أهل الإسلام، واستولوا على القيقان(٥).

وفيها: عزل معاوية ـ رضى الله عنه ـ عقبة بن عامر عن مصر، وأمَّر عليها مسلمة بن مخلد، وكذا عزل عبد الله بن عمرو عن ديار مصر، وولى عليها معاوية بن حديج.

وفيها: حج بالناس فى هذه السنة عنبسة بن أبى سفيان(٦).

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٧)، تاريخ الطبرى (٥/٢١٦)، البداية والنهاية (٨/٣٢)، شذرات الذهب (١/٥٤).

(٢) قيقان: من بلاد السند مما يلى خراسان.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ١٥).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٥/٢٢٧ ـ ٢٢٨)، تاريخ خليفة (٢٠٨)، تاريخ الإسلام (٤/١٦)، البداية والنهاية (٨/ ٣٣)، شذرات الذهب (١/ ٥٥).

(٥) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٧)، تاريخ الإسلام (٤/١٧)، وشذرات الذهب (١/ ٥٥).

(٦) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٨)، تاريخ الطبرى (٥/ ٢٣٠)، الكامل (٣/٤٥٦)، تاريخ الإسلام (٤/١٧)، البداية والنهاية (٨/ ٣٥).

حوادث سنة ثمان وأربعين:

فيها: عزل معاويةُ ـ رضى الله عنه ـ مروان بن الحكم عن المدينة، وولاها سعيد بن العاص الأموى، وولّى زياد بن سنان الهذلى لثغر الهند.

وفيها: غزا أبو عبد الرحمن القَيْنى أنطاكية، وغزا عقبة بن عامر بأهل مصر البحر.

وفيها: حج بالناس فى هذه السنة مروان بن الحكم، وهو يتوقع العزل، وقد كان[1].

حوادث سنة تسع وأربعين:

فيها: توفى الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ، وأرضاه، سيد شباب أهل الجنة.

وفيها: غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ القسطنطينية، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد.

وفيها: فتح فضالة بن عبيد بلدة جَرَبَة، وغنم شيئًا كثيرًا.

وفيها: حج فى هذه السنة بالناس سعيد بن العاص رضى الله عنه[2].

حوادث سنة خمسين:

فيها: غزا بُسر بن أبى أرطأة وسفيان بن عوف أرض الروم.

وفيها: أنفذ معاوية ـ رضى الله عنه ـ عقبة بن نافع إلى إفريقية، فخطّ القيروان، وأقام بها ثلاث سنين. ومن لطائف ما حدث يومئذٍ ما رواه محمد بن عمرو بن علقمة عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أنه قال: لما افتتح عقبة إفريقية ووقف على مكان القيروان قال: يا أهل الوادى، إنا حالّون إن شاء الله

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٨)، تاريخ الطبرى (٥/ ٢٣١)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٨)، شذرات الذهب (٤/ ٥٥).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (٢٠٩)، تاريخ الطبرى (٥/ ٢٢٣)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٩)، البداية (٨/ ٣٥).

فأظعنوا ـ ثلاث مراتٍ ـ قال:

فما رأينا حجرًا، ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادى، ثم قال للناس: إنزلوا باسم الله(١).

وفيها: غزا الربيع الحارثى بلدة بلخ من أعمال خراسان، وكانت قد أغلقت بعد رواح الأحنف بن قيس عنها، فصالحوا الربيع، ثم غزا الربيع قُهِسْتان(٢) ففتحها عنوةً.

وفيها: فتح معاوية بن حُديج فتحًا بالمغرب، وكان قد جاءه عبد الملك بن مروان فى مدد أهل المدينة، وهذه أول غزاة لعبد الملك(٣).

وفيها: غزا سنان بن سلمة القيقان، فجاءه جيشٌ عظيمٌ من العدو، فقال سنانٌ لأصحابه: أبشروا فإنكم بين خصلتين: الجنة أو الغنيمة، ففتح الله عليه ونصره، وما أصيب من المسلمين إلا رجلٌ واحد(٤).

وفيها: دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد فبايعوه.

وفيها: اشتكى بنو نهشل الفرزدق إلى زياد فهرب منه إلى المدينة، وكان سبب ذلك أنه عرّض بمعاوية فى قصيدةٍ له،

فتطلبه زياد أشد الطلب، ففر منه إلى المدينة، فاستجار بسعيد بن العاص، وقال فى ذلك أشعارًا، ولم يزل فيما بين مكة المكرمة والمدينة حتى توفى زياد، فرجع إلى بلاده(٥).

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢١٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٠)، الكامل (٣/ ٤٦٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢١)، البداية (٨/ ٥٠).

(٢) قهستان: طرف من بلاد العجم متصل بنواحى هراة، ونهاوند، وهمذان.

(٣) انظر: تاريخ خليفة (٢١٠)، (٢١١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢١).

(٤) انظر: تاريخ خليفة (٢١٣)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢٢).

(٥) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤١ ـ ٢٥٠)، البداية والنهاية (٨/ ٤٩).

حوادث سنة إحدى وخمسين:

فيها: خرج جيشٌ يغزوا القسطنطينية، وفيه أبو أيوب الأنصارى، فتوفى هنالك، وقبره تحت سورها.

وفيها: غزا الربيع الحارثى ما وراء النهر فغنم وسلم.

وفيها: مقتل حُجْر بن عدى وأصحابه فى هنةٍ من هنات معاوية، ولحجر صحبة ووفادة(١).

وكان حجر شريفًا، أميرًا مطاعًا، أمَّارًا بالمعروف، مُقْدِمًا على الإنكار، من شيعة على ـ رضى الله عنه ـ شهد صفين أميرًا، وكان ذا صلاحٍ وتعبدٍ(٢).

ويحدثنا التابعى الجليل محمد بن سيرين يرحمه الله عن هذا الحدث المفجع فيقول:

إن زيادًا أطال الخطبة، فقال حجر بن عدى: الصلاة، فمضى فى خطبته، فقال له: الصلاة، وضرب بيده إلى الحصى، وضرب الناس بأيديهم إلى الحصى، فنزل فصلى، ثم كتب فيه إلى معاوية، فكتب معاوية: أن سرح به إلىَّ، فسرحه إليه.

فلما قدم عليه، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال: أو أمير المؤمنين أنا؟!

إنى لا أقيلك ولا أستقيلك، اضربوا عنقه.

فلما انطلقوا به، وقدموه للقتل، قال: دعونى أصلى ركعتين، فصلاهما خفيفتين، ثم قال: لولا أن تظنوا بى غير الذى بى لأطلتهما، والله لئن كانت صلاتى لم تنفعنى فيما مضى ما هُما بنافعتى، ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عنى حديدًا، ولا تغسلوا عنى دمًا، وادفنونى فى ثيابى، فإنى مُلاقٍ معاوية

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٦/٢١٧)، المعجم الكبير (٤/٣٩)، الاستيعاب (١/٣٢٩)، المستدرك (٣/٤٦٨) للحاكم، أسد الغابة (١/٤٦١)، السير (٣/٤٦٣).

(٢) انظر: السير (٣/٤٦٣).

على الجادَّة، وإنى مخاصمٌ.

ثم قُدِّم فضربت عنقه(1).

وقد كان أثر ذلك أليمًا على الصحب الكرام، فهذا نافع مولى ابن عمر يقول:

لما كان ليالى بُعث حجرٌ إلى معاوية جعل الناس يتحيرون، ويقولون: ما فعل حجر؟!

وكان ابن عمر فى السوق، فنُعى إليه حجر، فأطلق حبوته، ووثب، وانطلق، فجعلت أسمع نحيبه، وقد غلب عليه النحيب(2).

وكانت مشورة السوء، والتأول المتعجل من أسباب حدوث ما حدث.

يقول بشر بن الحضرمى:لما بعث زياد بحجر بن عدى إلى معاوية، أمر معاويةُ بحبسه بمكانٍ يقال له: مرج العذراء، ثم استشار الناس فيه، فجعلوا يقولون: القتل . . . القتل! فقام عبد الله بن زيد البجلى، فقال: يا أمير المؤمنين أنت راعينا، ونحن رعيتك، وأنت ركننا ونحن عمادك، إن عاقبت قلنا: أصبت، وإن عفوت قلنا: أحسنت، والعفو أقرب للتقوى، وكل راعٍ مسئول عن رعيته.

قال: فتفرق الناس عن قوله(3).

هكذا ذهبت تلك النصيحة المخلصة الواعية أدراج الرياح، سُدى، ولم يبق إلا هتاف: القتل . . القتل.

ولما قال عبد الرحمن بن الحارث لمعاوية: الله الله فى حُجر وأصحابه، أين عَزُبَ عنك حِلْمُ أبى سفيان فى حجر وأصحابه؟!

---

(1) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن سعد (٦/ ٢٢٠) فى طبقاته، والحاكم (٣/ ٤٧٠)، والطبرى (٥/٢٥٦ ـ ٢٥٧) فى تاريخه، وابن عبد البر (١/٣٣١) فى الاستيعاب.

(2) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الحاكم (٣/٤٦٨ ـ ٤٦٩)، وابن ابن عبد البر (١/ ٣٣٠) فى الاستيعاب، وأورده الذهبى (٣/٤٦٦) فى السير.

(3) خبرٌ حسنٌ اخرجه الحاكم (٣/٤٦٩) فى مستدركه.

ألا حبستهم فى السجون[1]؟!

قال معاوية: حين غاب عنى مثلك من قومى. قال عبد الرحمن: والله لا تُعد لك العرب حلمًا بعدها أبدًا، ولا رأيًا، قتلت قومًا بُعث بهم إليك أسارى من المسلمين؟!

قال معاوية: فما أصنع؟! كتب إلىَّ فيهم زياد بشر أمرهم، يشدد، ويذكر أنهم سيفتقون علىَّ فتقًا لا يرقع.

وتعتب أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ على معاوية، فتقول: يا معاوية، أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه؟ فقال: إنما قتلهم مَنْ شَهِد عليهم[2].

وفى روايةٍ أخرى عن ابن أبى مليكة، قال: لما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجرًا؟!.

فقال: يا أم المؤمنين، إنى وجدتُ قتل رجلٍ فى صلاح الناس من استحيائه فى فسادهم[3]. وقد ندم معاوية كل الندم على التلك الفعلة النكراء.

فيحدثنا أبو زرعة بن عمرو فيقول: ما وفد جريرٌ قط إلا وفدت معه، وما دخل على معاوية إلا دخلت معه، وما دخلنا معه عليه إلا ذكر قتل حجر بن عدى[4].

ويقول ابن سيرين ـ رحمه الله ـ:

بلغنا أنه لما حضرت معاوية الوفاة جعل يُغرغر بالصوت، ويقول:

يومى منك يا حُجْر يومٌ طويل[5].

---

(١) انظر: الاستيعاب (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠) لابن عبد البر.

(٢) انظر: الاستيعاب (١/ ٣٣١)، والمستدرك (٣/ ٤٧٠)، البداية (٨/ ٥٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٩).

(٣) خبرٌ صحيح. اخرجه احمد كما فى البداية (٨/ ٦٠)، واورده الذهبى (٣/ ٤٦٧) فى السير.

(٤) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الحاكم (٣/ ٤٦٩).

(٥) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٧).

وفيها: حج بالناس معاوية[1]، وكان العامل في هذه السنة على المدينة سعيد بن العاص، وعلى الكوفة والبصرة، والمشرق كله زياد، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة عمير اليثربي[2].

أحداث سنة اثنتين وخمسين:

فيها: غزا بلاد الروم سفيان بن عوف الأزدي فمات هنالك، واستخلف على الجند بعده عبد الله بن مسعدة الفزاري.

وفيها: حج بالناس في تلك السنة سعيد بن العاص والي المدينة.

وكانت عمال الأمصار في هذه السنة هم العمال عليها فيما قبلها[3].

حوادث سنة ثلاث وخمسين:

من طرائف ما حدث في تلك السنة أن أسماء بنت أبي بكر اتخذت خنجرًا في ولاية سعيد بن العاص بالمدينة خوفًا من اللصوص، وكانوا قد استعزوا بالمدينة.

فكانت تجعله تحت رأسها رضي الله عنها وأرضاها[4].

وفيها: غزا عبد الرحمن بن أم الحكم بلاد الروم، وافتتح المسلمون جزيرة رودس بقيادة جنادة بن أبي أمية، وأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر، ويعترضون سبيلهم، وكان معاوية لكي يحضهم على استكمال جهادهم يدرّ عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة.

وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه، فحولهم من تلك الجزيرة، وقد كان للمسلمين بها أموال كثيرة، وزراعات غزيرة[5].

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢١٨)، تاريخ الإسلام (٤/١٤٧)، وخالف الطبري (٥/٢٨٦) فهو عنده يزيد بن معاوية.

(٢) انظر: الكامل (٣/ ٤٩٠)، تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٦).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٧)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٥)، البداية والنهاية (٨/ ٦٣).

(٤) نقلاً عن تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٦).

(٥) انظر: تاريخ الطبري (٥/ ٢٨٨)، البداية والنهاية (٨/ ٦٦).

وفيها: توفى زياد بن أبيه، الذى استلحقه معاوية، فقيل له: زياد بن أبى سفيان، وتوفى مطعونًا، وكم من رجالٍ قتلوا بمشورته!

قال أبو الشعثاء: كان زيادٌ أفتك من الحجاج لمن يُخالف هواه[1].

وقال الحسن البصرى: بلغ الحسن بن على أن زيادًا يتتبعُ شيعة علىٍّ بالبصرة، فيقتلهم، فدعا عليه[2].

وقد مَرَّ بنا مشورته فى حُجر بن عدى وأصحابه.

وكان العمال فى تلك السنة كما هم إلا ما حدث من تولى عبد الله بن خالد ابن أسيد على الكوفة، وسمرة بن جندب على البصرة كلاهما موضع زياد بن أبيه بعد وفاته، وتولى خُليد بن عبد الله الحنفى على خراسان[3].

حوادث سنة أربع وخمسين:

فيها: غزا عُبيد الله بن زياد، فقطع النهر إلى بُخارى، وافتتح راميثن من أعمال بخارى، وقطع النهر على الإبل، فكان أول عربى قطع النهر[4].

وفيها: توجه مصقلة بن هبيرة الشيبانى إلى طبرستان، فصالح أهلها على خمسمائة ألف درهم[5].

وفيها: عزل معاوية عن البصرة سمرة، بعبد الله بن عمرو الثقفى[6].

وفيها: حج بالناس مروان بن الحكم، وفتح جنادة بن أبى أمية جزيرة فى البحر قريبة من قسطنطينية يقال لها: أرواد.

وفيها: عزل معاويةُ سعيدَ بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[7].

---

(١) نقلاً عن السير (٣/ ٤٩٦).   (٢) المصدر السابق.   (٣) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٢).

(٤) انظر: تاريخ خليفة (٢٢٢)، وتاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٧)، الكامل (٣/ ٤٩٩).

(٥) انظر: تاريخ خليفة (٢٢٣)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٨).

(٦) انظر: تاريخ خليفة (٢٢٣)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٥٨).

(٧) انظر: تاريخ الطبرى (٩٢٣٥).

حوادث سنة خمس وخمسين:

فيها: عزل معاويةُ عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة، وولاها عُبيد الله ابن زياد، وعزل عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس[1].

حوادث سنة ست وخمسين:

فيها: ولى معاويةُ سعيد بن عثمان خراسان، وعزل عنها عبيد الله بن زياد، فسار سعيد إلى خراسان والتقى مع الترك عند سمرقند، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، واستشهد معه جماعةٌ من الأجلاء منهم: قثم بن العباس بن عبد المطلب[2].

وفيها: دعا معاويةُ الناسَ إلى بيعة ابنه يزيد من بعده، وجعله ولى العهد.

يقول الشعبى ـ رحمه الله:

قَدِم المغيرة بن شعبة على معاوية واستعفاه وشكا إليه الضعف، فأعفاه، وأراد أن يولّى سعيد بن العاص، وبلغ كاتب المغيرة ذلك، فأتى سعيد بن العاص فأخبره وعنده رجلٌ من أهل الكوفة، يقال له: ربيعة، أو ربيع من خُزاعة، فأتى المغيرة فقال: يا مغيرة، ما أرى أمير المؤمنين إلا قد قلاك، رأيتُ ابن خُنيس كاتبك عند سعيد بن العاص يخبره أن أمير المؤمنين يوليه الكوفة، قال المغيرة: أفلا يقول كما قال الأعشى:

أمْ غَابَ ربُّكَ فاعتَرتْكَ خَصاصةٌ   ولعـــل ربَّك أن يعودَ مؤيّدا

رُويدًا! ادخل على يزيد، فدخل عليه فعرض له البيعة، فأدى ذلك يزيد إلى أبيه، فرد معاويةُ المغيرة إلى الكوفة، فأمره أن يعمل فى بيعة يزيد، فشخص المغيرة إلى الكوفة، فأتاه كاتبه ابن خنيس، فقال: والله ما غششتك، ولا خُنتك، ولا كرهتُ ولايتك، ولكن سعيد كانت له عندى يدٌ وبلاءٌ، فشكرتُ ذلك له، فرضى عنه وأعاده إلى كتابته، وعمل المغيرةُ فى بيعة يزيد، وأوفد فى ذلك وافدًا إلى

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠١).   (٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٨٥).

معاوية[1].

وقد كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ لما صالح الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهلاً، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته.

فلما مات زياد بن أبيه شرع معاوية فى نظم البيعة لولده، والدعاء إليه، وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس فى سائر الأقاليم، إلا عبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر، والحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس.

فركب معاوية إلى مكة معتمراً، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة ـ استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة، فأوعده وتعهده بانفراده، فكان من أشدهم عليه رداً وأجلدهم فى الكلام عبد الرحمن بن أبى بكر، وكان ألينهم كلاماً عبد الله بن عمر، ثم خطب معاوية، وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيدوهم قعود، ولم يوافقوا ولم يظهروا خلافاً.

فاتسقت البيعة ليزيد فى سائر البلاد، ووفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد[2].

حوادث سنة سبع وخمسين:

فيها: عزل معاويةُ مروان بن الحكم عن المدينة، وولّى عليها الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وهو الذى حج بالناس فى هذه السنة.

وكان على الكوفة: الضحاك بن قيس، وعلى البصرة: عبيد الله بن زياد، وعلى خراسان: سعيد بن عثمان، ثم عزله وأعاد عليها عُبيد الله بن زياد.

وفيها: وجّه معاويةُ حسان بن النعمان الغسانى إلى إفريقية، فصالحه من يليه

---

(١) خبرٌ حسن. أخرجه الطبرى (٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، وأورده ابن كثير (٨/ ٨٦).

(٢) انظر تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٣)، البداية والنهاية (٨/ ٨٦).

من البربر، وضرب عليهم الخراج، وبقى عليها حتى توفى معاوية رضى الله عنه[1].

حوادث سنة ثمان وخمسين:

فيها: غزا مالك بن عبد الله الخثعمى أرض الروم.

وفيها: حج بالناس فى هذه السنة الوليدُ بن عتبة بن أبى سفيان[2].

حوادث سنة تسع وخمسين:

فيها: غزا أبو المهاجر دينار فنزل على قُرطاجنة، فالتقوا، فكثُر القتل فى الفريقين، وحجز الليل بينهم، وانحاز المسلمون من ليلتهم، فنزلوا جبلاً فى قبلة تونس، ثم عاودوهم القتال، فصالحوهم على أن يخلو لهم الجزيرة، وافتتح أبو المهاجر ميلة، وكانت إقامته فى هذه الغزاة نحواً من سنتين[3].

وفيها: ولى معاويةُ الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى، وهو ابن أم الحكم، وعزل عنها الضحاك بن قيس، وحج بالناس الوليد بن عتبة فى هذه السنة[4].

حوادث سنة ستين:

فيها: عهد معاوية لابنه يزيد، ووفاة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[5].

هذا هو حصاد سنوات ولاية معاوية على المسلمين، ولنا وقفات مع تلك السنوات من أوجهٍ أخرى.



---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٢٤)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٨)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٢).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٩)، البداية والنهاية (٨/ ٨٨).

(٣) انظر. تاريخ خليفة (٢٢٦)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٠٩، ٣١٤).

(٥) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٢)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٧).

صفحات الجهاد في ولاية معاوية

لما قُتل عثمانُ ـ رضى الله عنه ـ ووقع الاختلاف بين المسلمين، وانقسموا إلى فريقين، أهل الكوفة، وأهل الشام، لم يكن للناس غزوٌ يذكر حتى اجتمعوا على معاوية.

وهنا دعاهم للغزو والفتوحات، وأغزى ابنه فى جماعةٍ من الصحب الكرام براً، وبحراً حتى أجاز بهم الخليج ، وقاتلوا أهل القسطنطينية.

بل وفى بعض الغزاة غزا بنفسه، ومعه زوجته.

يروى لنا أبو زرعة الدمشقى بسنده إلى يزيد بن عبيدة رحمه الله قال:

غزا معاوية بن أبى سفيان قبرص سنة خمس وعشرين، ومعه امرأته فاختة ابنة قرظة[1].

ويحدثنا أحمد بن حنبل رحمه الله، فيقول: فتحت قيسارية سنة تسع عشرة، وأميرها معاوية بن أبى سفيان[2].

أما سعيد بن عبد العزيز رحمه الله ، فيقول:

أغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة، تذهب سرية فى الصيف، ويُشتوا بأرض الروم، ثم تقفل وتعقبها أخرى، وكان فى جملة من أغزى ابنه يزيد، ومعه خلقٌ من الصحابة، فجاز بهم الخليج، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها، ثم قفل بهم راجعاً إلى الشام،وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شُد خناق الروم[3].

وفى سنة ثمان وأربعين أرسل معاوية ـ رضى الله عنه ـ جيشاً كبيراً مع سفيان بن عوف إلى محاصرة القسطنطينية، فأوغلوا فى بلاد الروم، ولكنهم لم يفلحوا

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٨٩) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٣/ ١٣٥) فى السير.

(٢) خبرٌ صحيحٌ.أخرجه أبو زرعة(٧٢)،(٧٣)فى تاريخه،وأورده الذهبى(٣/ ١٣٥)فى السير.

(٣) انظر: تاريخ أبى زرعة (١/ ١٨٨)، البداية (٨/ ١٤٥).

فى اقتحام القسطنطينية.

وفى سنة خمسين، ولى عقبة بن نافع إفريقية، فخط القيروان، وأقام بها ثلاث سنين، وفتح معاوية بن حديج فتحاً بالمغرب.

وفى سنة ثلاث وخمسين غزا عباد بن زياد القُنْدُهار حتى بلغ بيت الذهب، فجمع له الهند جمعاً هائلاً، فقاتلهم فهزمهم، ولم يزل على سجستان حتى توفى معاوية. وفى نفس السنة فتحت جزيرة رودس بقيادة ابن أبى أمية.

وهكذا كانت صفحات الجهاد منشورة، والفتوحات فى مشارق الأرض ومغاربها، براً وبحراً.

وهذا مما يُعد فى صحيفة حسنات أول ملوك الإسلام، معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه.



أهم أعمال معاوية بن أبى سفيان

ذكرنا فيما مضى ماله من صفحاتٍ ناصعة فى سجل الجهاد فى سبيل الله تعالى، ولكن نريد ههنا أن نذكر أهم أعماله الإدارية، والتى لم يسبق إليها.

مسألة استحداث **فكرة البريد السريع**، وابتكر فى الوصول إلى ذلك أن جعل خيل مضمرات فى عدة أماكن متفاوتة، وعلى مسافات ليست ببعيدة، فإذا وصل صاحب الخبر على دابته إلى مكان منها، حمل عنه الرسالة من ينتظره على دابته المستريحة، ويستريح القادم، وهكذا يتنابون فى إكمال الطريق حتى يصل الخبر سريعاً.

وهكذا كان معاوية سباقاً إلى فكرة البريد السريع.

ومما يُعد من أعماله المبتكرة: ديوان الخاتم.

وتدور فكرة هذا الديوان فى أنه إذا حدث وصدر توقيع من الخليفة، وهو معاوية آنذاك، بأى أمرٍ من الأمور، كانت للرعية أو الولاة على حد سواءٍ، أحضر التوقيع إلى هذا الديوان، وأثبت نسخته فيه، وخزم بخيطٍ، وختم بشمعٍ.

وجاء فى بعض الروايات أن الداعى إلى ابتكار ديوان الخاتم أن معاوية أحال عمرو بن الزبير على زياد بمائة ألف درهم، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين ـ وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة ـ فلما رفع زياد ابن أبيه الأمر إلى معاوية، تعجب وأنكر ذلك، وقال: ما أحلته إلا بمائة ألفٍ، فأخذ عمراً بردّها وحبسه، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم، وخزم الكتب، ولم تكن تخزم من قبل[1].

وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن محصن الحميرى.

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠).

وفاة معاوية بن أبى سفيان

بعد هذا التاريخ الحافل بالأحداث الجسام، والأمور العظام، وبعد حياةٍ امتلأت بالحسنات، وإن لم تخل من السيئات كانت وفاة معاوية فى سنة ستين هجرية.

وفى آخر اللحظات يدعو ربه قائلاً:

اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب[1].

وتخرج الكلمات الواعظة، من الأنفاس المتقطعة: هل الدنيا إلا ما ذقنا وجربنا؟ والله، لوددتُ أنى لم أُغَبَّرْ فيكم إلا ثلاثا، ثم ألحق بالله.

قالوا: إلى مغفرة الله ورضوانه، قال: إلى ما شاء الله، قد علم الله أنى لم آلُ، ولو أراد الله أن يُغيِّر غيَّر[2].

وكانت الوفاة فى سنة ستين، وفى شهر رجبٍ، على خلافٍ فى تحديد اليوم أفى النصف من رجب، أم لثمانٍ بقين منه.

وكان يزيد بن معاوية غائباً بحوارين، فصلى الضحاك بن قيس عليه، ودُفن بين باب الجابية، وباب الصغير بدمشق.

وهكذا طويت صفحة حياة معاوية لنستقبل صفحة ولى عهده يزيد، وصدق القائل:

هو الموتُ لا منجى من الموت والذى ... نُحاذرُ بعد الموت أدهى وأقطعُ

وعن مدة ملكه اختلف أهل السير والتراجم، وإن كانوا قد اتفقوا على أنها تسع عشرة سنة، وعدة أشهر.

---

(١) انظر: السير (٣/ ١٦٠)، تاريخ الإسلام (٤/ ٣١٧)، البداية (٨/ ١٥٤).

(٢) انظر: السير (٣/ ١٦١)، البداية (٨/ ١٥١)، البداية (٨/ ١٥٤).

فقال أبو معشر الإخبارى: تُوفِّىَ معاوية فى رجب سنة ستين، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهرٍ.

وقال ابن سعد، والواقدى وغيرهما: توفى معاوية ليلة الخميس للنصف من رجب سنة ستين، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

أما على بن محمد فقال: مات بدمشق سنة ستين،يوم الخميس لثمان بقين،وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر،وسبعة وعشرين يوماً.

ويخالفهم هشام بن محمد فيقول: ولى تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر إلا أياماً، ثم مات لهلال رجب من سنة ستين[(١)].

واختلفوا فى تحديد مدة عمره، وكم عاش؟

فقال بعضهم: مات يومَ مات، وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة، وبه قال ابن شهاب الزهرى رحمه الله.

وقال آخرون مات، وهو ابن ثلاث وسبعين، وبه قال على بن محمد رحمه الله.

وقال آخرون: توفى، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وبه قال سعيد بن دينار السعدى، رحمه الله.

وخالفهم هشام بن محمد،فقال:توفى وهو ابن خمس وثمانين سنة[(٢)]

ورجح الذهبى أنه عاش سبعاً وسبعين سنة[(٣)].

وانتهت رحلة أول خليفة من بنى أمية، لتبدأ رحلة الخليفة الثانى يزيد بن معاوية.

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤)، البداية والنهاية (٨/ ١٢٥)، (٨/ ١٥٣).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٥)، البداية (٨/ ١٢٥)، (٨/ ١٥٣).

(٣) انظر: السير (٣/ ١٦٢)، وتاريخ الإسلام (٤/ ٣١٧).

الباب الثانى

بدء ولاية يزيد بن معاوية

توفى معاوية رضى الله عنه ولم يكن ابنه من الحاضرين لدفنه لوجوده فى مدينة حُوّارين، فعاد سريعاً إلى الشام، ليبدأ فى تولى المُلكِ بعد أن أخذ له والده العهد قبل وفاته.

يحدثنا أحد الصحب الكرام الذين حضروا رجوع يزيد من حوارين، وتسلمه البيعة والعهد، فيقول سعيد بن حريث ـ رضى الله عنه ـ:

لما كان الغداة التى مات فى ليلتها معاوية فزع الناس إلى المسجد، ولم يكن قبله خليفة بالشام غيره، فكنت فيمن أتى المسجد، فلما ارتفع النهار وهم يبكون فى الخضراء[1]، وابنه يزيد غائب فى البرية، وهو ولى عهده، وكان نائبه على دمشق الضحاك بن قيس الفهرى، فدفن معاوية.

فلما كان بعد أسبوع بلغنا أن ابن الزبير خرج بالمدينة وحارب، وكان معاوية قد غُشى عليه مرة، فركب بموته الركبان، فلما بلغ ذلك ابن الزبير خرج، فلما كان يوم الجمعة صلى بنا الضحاك ثم قال: تعلمون أن خليفتكم يزيد قد قدم، ونحن غداً متلقوه.

فلما صلى الصبح ركب، وركبنا معه، فسار إلى ثنّية العُقاب، فإذا بأثقال يزيد، ثم سرنا قليلاً، فإذا يزيد فى ركبٍ معه أخواله من بنى كلب، وهو على بُخْتىّ، له رحلٌ، ورائطة[2] مَثْنِيّة فى عنقه، ليس عليه سيف، ولا عمامة، وكان ضخماً سميناً، قد كثر شعره وشعث، فأقبل الناس يسلمون عليه، ويعزّونه، وهو تُرى فيه الكآبة، والحزن، وخفض الصوت، فالناس يعيبون ذلك منه ويقولون:

هذا الأعرابى الذى ولاه أمر الناس ؟ !! والله سائله عنه، فسار، فقلنا:

(١) الخضراء: هى دار الإمارة بدمشق، وكان لها باب يفضى إلى المسجد الأموى.

(٢) قطعة من النسيج توضع على الرقبة.

يدخل من باب توما، فلم يدخل، ومضى إلى باب شرقى، فلم يدخل منه وأجازه، ثم أجاز باب كيسان إلى باب الصغير، فلما وافاه أناخ ونزل، ومشى الضحاك بين يديه إلى قبر معاوية، فصفّنا خلفه، وكبّر أربعاً.

فلما خرج من المقابر أتى ببغلةٍ فركبها إلى الخضراء، ثم نودى الصلاة جامعة لصلاة الظهر، فاغتسل ولبس ثياباً تقية، ثم جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر موت أبيه، وقال:

إنه كان يُغزيكم البر والبحر، ولستُ حاملاً واحداً من المسلمين فى البحر، وإنه كان يُشتيكم بأرض الروم، ولست مُشتياً أحداً بها، وإنه كان يُخرج لكم العطاء أثلاثاً، وأنا أجمعه لكم كله.

قال: فافترقوا وما يفضلون عليه أحداً[1].

هكذا كانت بداية عهد يزيد محاولة استرضاء الرعية، واستجلاب مودتهم، ولو كان بالإعراض عن الجهاد فى سبيل الله فى البحر بدعوى عدم التفريط فى أحد من المسلمين !.

وقد نال يزيد بغيته، وفاز بطلبته، فافترقوا، وما يفضلون عليه أحداً.

وأحس الكثيرون من بقايا الصحب الكرام أن تولية يزيد ليس بالرأى السديد، ولكن ما العمل وقد اجتمع الناسُ عليه.

يقول حُميد بن عبد الرحمن: دخلنا على بشير ـ وكان صحابياً ـ حين استخلف يزيد، فقال: يقولون: إنما يزيد ليس بخير أمة محمد ﷺ، وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة مُحمدٍ أحبّ إلىَّ من أن تفترق[2].

هكذا استتب الأمر ليزيد بن معاوية فى ديار الشام، ولكن اختلف الأمر فى مواطن أخرى. فيزيد بن معاوية عرف كيف يكسب ود أهل الشام، ولكن كيف

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو مسهر كما فى السير (٣/ ١٦٨)، (٤/ ٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) السير (٣/ ١٦٩).

يكتسب من رفضوا البيعة له كالحسين بن على، وابن عمر، وابن الزبير؟ !.

أما ابن عمر - رضى الله عنهما - فقد كان حاله منذ أزمانٍ، حرصٌ على الأمة، بعدٌ وفراراً من الفتن، زهدٌ فى الإمارة.

يقول محمد بن المنكدر رحمه الله:

لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية، قال ابن عمر - رضى الله عنهما -:

إن كان خيرنا رضينا، وإن كان بلاء صبرنا[1].

فمن خلافة معاوية، وابن عمر يحرص على عدم تفرق جمع الأمة، ويخشى من سفك دمائها.

فقد خطب معاوية يوماً، فقال: من أحق بهذا الأمر منا؟ من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر، فليطلع إلىَّ قرنه، فنحن أحقُّ بذلك منه، ومن أبيه.

قال ابن عمر: فخففت الفساد. قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته فداك أبى، وأمى؟

فقال ابن عمر: حللتُ حبوتى، فهمتُ أن أقول: أحقُ بذلك منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تُفرق الجمع، ويُسفكُ فيها الدماء، فذكرتُ ما أعد الله فى الجنات[2].

أما ابن الزبير فقد رفض البيعة ليزيد، بل طلب البيعة لنفسه، فكان بينه وبين يزيد من القتال ما يأتى ذكره.

يقول عروة بن الزبير - رحمه الله.

اصطلح الناس، وابن الزبير يدعو لنفسه، ولم يبايع ليزيد بالخلافة[3].

وكذلك رفض أبو عبد الله الحسين بن على البيعة ليزيد، فكان بينهما من القتال ما يأتى الحديث عنه.

---

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو زرعة (٢٣٠) فى تاريخه.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٤١٠٨)، وابن سعد (٤/ ١٨٢) فى طبقاته، وعبد الرزاق (٥/ ٤٦٥) فى مصنفه.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو زرعة (١٦٣٩) فى تاريخه.

موقف يزيد من ابن الزبير

لما مات معاوية ـ رضى الله عنه ـ تثاقل عبد الله بن الزبير عن طاعة يزيد بن معاوية، وأظهر الرفض لبيعته، فبلغ ذلك يزيد، فأرسل أن يؤتى به.

فماذا حدث بينهما؟

يحدثنا عروة بن الزبير رحمه الله، فيقول:

كتب يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن الزبير: إنى قد بعثت إليك بسلسلة من فضةٍ، وقيد من ذهبٍ، وجامعة من فضة، وحلفت لتأتينى فى ذلك، فقيل لابن الزبيرِ: يصنع لك أغلالاً من ذهبً، فتسدل عليها الثوب، وتبر قسمه، والصلح خير.

فقال: لا أبر الله قسمه، ثم قال:

ولا ألين لغير الحـــق أنملة حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

ثم قال: والله لضربة بسيفٍ فى عزّ أحب إلىّ من ضربة بسوطٍ فى ذلّ، ثم دعا إلى نفسه، وأظهر الخلاف ليزيد بن معاوية، فوجه إليه يزيدُ بن معاوية مسلم بن عقبة المزنى فى جيش أهل الشام، وأمره بقتال أهل المدينة.

فإذا فرغ من ذلك، سار إلى مكة.

هكذا أراد يزيد التخلص من مخالفة ابن الزبير له بالقتل والقتال، فإذا انتهى من مخالفة ابن الزبير، بدأ فى النظر فى مخالفة الحسين بن على رضى الله عنه.

يكمل عروة بن الزبير فيقول:

فدخل مسلم بن عقبة المدينة، وهرب منها يومئذ بقايا أصحاب رسول الله ﷺ، وعبث فيها، وأسرف فى القتل، ثم خرج منها، فلما كان فى بعض الطريق إلى مكة مات.

واستخلف حصين بن نمير الكندى، وقال له: يا برذعة الحمار، احذر خدائع

قريش، ولا تعاملهم إلا بالنفاق، ثم القطاف.

فمضى حصين حتى ورد مكة، فقاتل بها ابن الزبير أياماً.

وضرب ابن الزبير فسطاطاً فى المسجد فكان فيه نساء يسقين الجرحى ويداوينهم، ويطعمن الجائع، ويكتمن المجروح.

فقال حصين: ما يزال يخرج علينا من هذا الفسطاط أسدٌ، كأنما يخرج من عرينه، فمن يكفينيه؟

فقال رجلٌ من أهل الشام: أنا، فلما جن الليل وضع شمعةٍ فى طرف رمحه، ثم ضرب فرسه، ثم طعن الفسطاط فالتهب ناراً، والكعبة يومئذ مؤزرة بالطنافس، وفى أعلاها الحبرة[1]، فطارت الريح باللهب على الكعبة حتى أُحرقت.

فبلغ حصين بن نمير موت يزيد بن معاوية، فهرب[2].

ويلخص لنا تلك الأحداث، مؤرخ الإسلام الذهبى ـ رحمه الله ـ، فيقول: ثم جهز يزيد جيشاً قوامه ستة آلاف، إذا بلغه أن أهل المدينة خلعوه، فجرت وقعة الحرَّة، وقُتل نحو ألفٍ من أهل المدينة، ثم سار الجيش، عليهم حصين بن نُمير فحاصروا الكعبة، وبها ابن الزبير، وجرت أمورٌ عظيمة، فقلع الله يزيد، وبايع حصين وعسكره ابن الزبير بالخلافة، ورجعوا إلى الشام[3].

هكذا انتهت خلافة يزيد ولم يستطع التخلص من ابن الزبير، بل خرج الأخير منتصراً.

---

(١) الحبرة: الجمع حبرات وحبر، وهو ضربٌ من البرود اليمنية.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الحاكم (٣/ ٥٥٠) فى مستدركه، وتحرف فيه شعيب بن إسحاق إلى سعيد بن أبى إسحاق فليصوب هنالك، وأخرجه ابن عساكر (ع/ ٤٧٣) مطولاً واخرجه أبو نعيم (١/ ٣٣١) فى الحلية، وأورده الذهبى (٣/ ٣٧٣) فى السير.

(٣) انظر: السير (٣/ ٣٧٤).

ولنا وقفة هنا من موقف يزيد بن معاوية من ابن الزبير، فحرص يزيد على تقوية ملكه، وقلة معرفته بمناقب القوم جعلته يتسرع فى استخدام البطش بمن خالفه.

وهذا على العكس من والده معاوية ـ رضى الله عنه ـ، الذى استطاع باللين والحلم، والحكمة أن يفوز بالهدوء فى فترة خلافته، وعدم خروج أحدٌ من الصحب الكرام عليه، بل اتفقوا على بيعته، وإن كان فيهم مَنْ هو أفضل من معاوية كسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم جميعاً.

فلنتأمل فى معاملة معاوية لابن الزبير لنتعرف على الفرق الشاسع بينه وبين ولده.

كان محمد بن أبى يعقوب الضبى يقول:

إن معاوية كان يلقى ابن الزبير فيقول: مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ، وابن حوارى رسول الله ﷺ، ويأمر له بمائة ألف[1].

هكذا كانت حفاوة معاوية بابن الزبير، فشتان بينه وبين ابنه يزيد.

ويقول هشام بن عروة:

نازع مروانُ بن الحكم ابن الزبير، فكان هوى معاوية مع مروان، فقال ابن الزبير:

يا أمير المؤمنين، إن لك حقاً وطاعة، فأطع الله نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا إلا فى حق الله عز وجل،ولا تُطرق إطراق الأفعوان فى أصول السّخبر[2]، فإنه أقرٌ صامتٌ[3].

هكذا كان معاوية يلين مع ابن الزبير، ويسمع له، فبدأ يزيد بالبطش فلم يجد السمع، ولم ينل الطاعة.

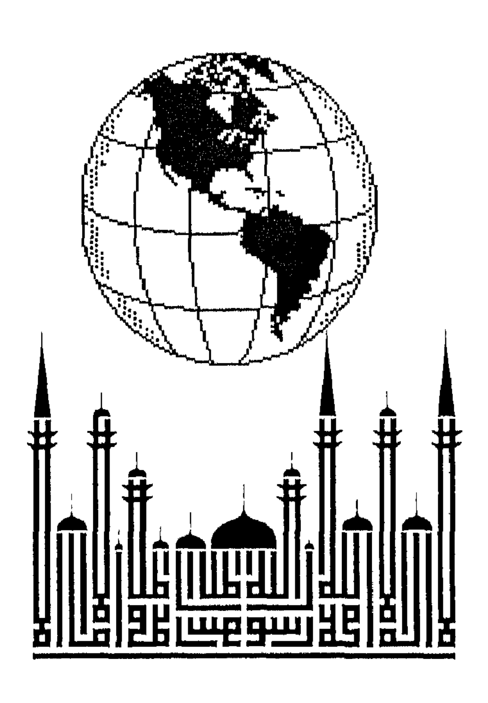
وعاش ابن الزبير بعد موت يزيد، وكانت له جولات وجولات مع بنى أمية، سنتعرض لها فى مواضعها من هذا الكتاب.

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن عساكر (ع/ ٤٠٤) فى تاريخه.

(٢) السخبر: شجر تألفه الحيات فتسكن فى أصوله، المفرد: سخبرة، والمعنى: لا تتغافل عما نحن فيه.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عساكر (ع/ ٤٤١) فى تاريخه.



اقرأ فى تلك الصفحات

[١] مشورة مروان بن الحكم بقتل الحسين.

[٢] خروج الحسين إلى الكوفة ومقتله.

[٣] أهم الأعمال والأحداث فى عهد يزيد.

[٤] من مثالب يزيد بن معاوية.

[٥] خلافة معاوية بن يزيد ووفاته.

[٦] حصار الكعبة ومبايعة ابن الزبير.

[٧] خلافة مروان بن الحكم وبيعة عبد الملك.

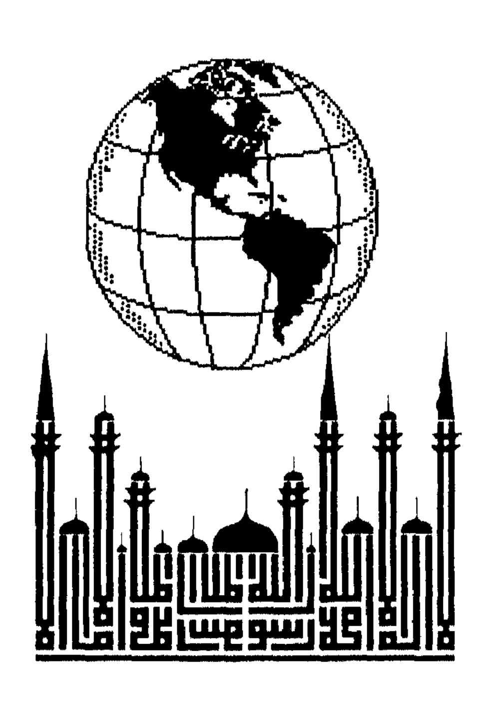
[٨] علو شأن المختار الكذاب ومصرعة.

[٩] مقتل ابن الزبير وعلو شأن الحجاج.

[١٠] وفاة عبد الملك وخلافة الوليد بن عبد الملك.

[١١] وفاة الوليد بن عبد الملك وخلافة سليمان أخيه

[١٢] خلافة عمر بن عبد العزيز.



مشـورة مروان بن الحكم بقتل الحسين !!

أطاع الحسين ـ رضى الله عنه ـ أخاه الحسن ـ رضى الله عنه ـ وبايع لمعاوية، وكان يقبل جوائز معاوية ـ رضى الله عنه ـ وكان معاوية يرى له، ويحترمه، ويُجِلُّه.

فلما عهد معاوية ـ رضى الله عنه ـ لابنه من بعده، تألم الحسين وحُقَّ له، وامتنع هو وعبد الرحمن بن أبى بكر، وابن الزبير عن المبايعة، فلم تؤخذ منهم البيعة فى حياة معاوية إلا بالاكراه.

فلما مات معاوية، وتسلم يزيد من بعده الخلافة، بايعه أكثر الناس، إلا ابن الزبير والحسين، وخرجا من المدينة، فقصد ابن الزبير مكة، وقصد الحسين إلى العراق.

وقد بدأت المؤامرة لقتل الحسين بسبب مشورة مروان بن الحكم كما يقص علينا رزيق مولى معاوية، قال:

لما هلك معاوية بعثنى يزيد بن معاوية إلى الوليد بن عتبة، وهو أمير المدينة، وكتب إليه بموت معاوية، وأن يبعث إلى هؤلاء الرهط فيأمرهم بالبيعة له.

قال رزيق: فقدمت المدينة ليلاً فقلت للحاجب: استأذن لى، فقال: قد دخل ولا سبيل إليه، فقلت: إنى قد جئت بأمرٍ، فدخل فأخبره، فأذن لى، وهو على سريره.

فلما قرأ كتاب يزيد بوفاة معاوية، واستخلافه، جزع لموت معاوية جزعاً شديداً، فجعل يقوم على رجليه، ويرمى بنفسه على فراشه، ثم بعث إلى مروان فجاء وعليه قميص أبيض وملاءة موردّة، فنعى له معاوية، وأخبره أن يزيد كتب إليه أن يبعث إلى هؤلاء الرهط فيدعوهم إلى البيعة ليزيد.

قال: فترحَّم مروان على معاوية، ودعا له بخيرٍ، وقال: ابعث إلى هؤلاء الرهط الساعة فادعهم إلى البيعة، فإن بايعوا وإلا فاضربوا أعناقهم.

قال الوليد: سبحان الله !! أقتل الحسين بن على وابن الزبير؟ !!.

قال: هو ما أقول لك[١].

هكذا نجد أن مطلب يزيد بن معاوية هو أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير، أما مروان بن الحكم فقد فتح باب الفتنة بذكر القتل، الذى كان غريباً عجيباً أن يذكر فى هذا الموضع.

حتى والى المدينة الوليد بن عتبة تعجب من هذا المطلب العجيب، فلما وصلت الأخبار إلى ابن الزبير والحسين شرعاً فى الخروج من المدينة بعد المشورة.

أما ابن ـ عباس رضى الله عنهما ـ فكان من رأيه عدم خروج الحسين، يقول: استشارنى الحسين فى الخروج، فقلت: لولا أن يُزْرَى بى وبك، لنشبتُ يدى فى رأسك.

فقال الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحبَّ إلىَّ من أن أستحل حُرمتها[٢]، يعنى مكة.

أما الحسين فقد شرع فى التفكير فى الذهاب إلى العراق، حيث أرسلوا له الكتب يدعونه فيها بالقدوم إليهم حيث النصرة والمنعة، ولكن هناك من يرى أن البيئة العراقية لا تصلح لذلك.

قال ابن الزبير للحسين: إلى أين تذهب؟ إلى قومٍ قتلوا أباك، وطعنوا أخاك!.

فقال: لأن أُقتل أحبُّ إلىَّ من أن تُستحلَّ، يعنى مكة[٣].

وبالفعل يمضى الحسين قدماً، ولكن هناك من يرى أن خروج الحسين فى غير موضعه، كان ابن عمر قدم المدينة، فأخبر أن الحسين قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين، فقال : أين تريد؟

(١) خبرٌ صحيحٌ: اخرجه خليفة (ص/١٤٤) فى تاريخه.

(٢) خبرٌ صحيحٌ: اخرجه الطبرانى (٢٨٥٩) فى الكبير، وانظر: المجمع (٩/ ١٩٢) للهيثمى.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الفسوى كما فى البداية(٨/ ١٦١)، وأورده الذهبى (٣/ ٢٩٣) فى السير.

قال الحسين: العراق، ومعه طوامير[1]، وكتب. فقال : لا تأتهم.

قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خيَّر نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعةٌ منه، لا يليهم أحدٌ منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خيرٌ لكم، فارجعوا، فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال:

أستودِعكَ الله من قَتيلٍ، وإن أهل العراق قومٌ مناكير، قتلوا أباك وضربوا أخاك، وفعلوا، وفعلوا [2].

وكان ابن عمر يقول: غلبنا حسين بن على بالخروج، ولعمرى لقد رأى فى أبيه، وأخيه عبرة، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغى له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل فى صالح ما دخل الناس، فإن الجماعة خيرٌ.

وقال ابن عباس تارة أخرى: إلى أين يا ابن فاطمة؟ فقال: العراق وشيعتى. فقال: إنى لكاره لوجهك هذا، تخرج إلى قومٍ قتلوا أباك، وطعنوا أخاك حتى تركهم سخطة وملالة لهم؟ أذكرك الله أن تغرر بنفسك.

وقال أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - غلبنى الحسين على الخروج، وقلت له: اتق الله فى نفسك، والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك.

وقال أبو واقد الليثى - رضى الله عنه - بلغنى خروج الحسين بن على فأدركته بمللٍ، فناشدته الله ألا يخرج، فإنه يخرج فى غير وجه خروجٍ، إنما خرج يقتل نفسه. فقال: لا أرجع.

وقال جابر بن عبد الله - رضى الله عنه: كلمت حسيناً فقلت: اتق الله، ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فو الله ما حمدتم ما صنعتم.

وأتاه أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث، فقال له: يا ابن عم، قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك، وأخيك، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا،

---

(١) طوامير: الصحف.

(٢) خبرٌ صحيحٌ أخرجه ابن عساكر كما فى تهذيب تاريخه (٤/ ٣٣٢)، وعنه أورده ابن كثير (٨/ ١٦٠) فى البداية، والذهبى (٣/ ٢٩٢) فى السير.

فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فأذكرك الله فى نفسك.

فقال الحسين: جزاك الله عنى خيراً، مهما يقض الله من أمرٍ يكن.

فقال أبو بكر: إنا لله، وإنا إليه راجعون، نحتسب أبا عبد الله عند الله[1].

فهكذا كان الصحب الكرام، والأهل الأبرار يحضون الحسين على عدم الخروج، ويشفقون عليه من هذا الخروج، وينصحونه بالبقاء فى مكة.

ولكن كثرة الكتب والرسائل من أهل الكوفة، وتحضيض ابن الزبير أنه سيجد العون والنصرة جعلا الحسين يستبق الأمر، وكان أمر الله قدراً مفعولاً.

وقد كان رأى ابن الزبير فى البدء عدم الخروج، فلما ذكر له الحسين أمر الكتب والرسائل الكوفية لم يعترض على الخروج.



(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٧٧).

خروج الحسين إلى الكوفة ومقتله

أقام الحسين ـ رضى الله عنه ـ بمكة شعبان، ورمضان، وشوال، وذا القعدة، وخرج يوم التروية يُريد الكوفة.

وصل فى المحرم إلى أرض كربلاء بالعراق، وقتل يوم الأحد لعشرٍ مضين من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ومعه جُلّ أهل بيته رضى الله عنهم أجمعين.

روى ابن الحنفية ـ رحمه الله ـ أنه قُتل معه سبعة عشر ممن ارتكض فى رحم فاطمة رضى الله عنه[1].

وحصرهم الليث بن سعد، فقال: قُتل الحسين بن على وأصحابه رضى الله عنهم، لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء، وقتل العباس بن على بن أبى طالب، وجعفر بن على بن أبى طالب، وعبد الله بن على بن أبى طالب، وعثمان بن على بن أبى طالب، وأبو بكر بن على بن أبى طالب، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب الأكبر، وعبد الله بن الحسين، وأبو بكر بن الحسين، والقاسم بن الحسن، وعون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وجعفر بن عقيل بن أبى طالب، ومسلم بن عقيل بن أبى طالب، وسليمان مولى الحسين، وعبد الله رضيع الحسين ـ رضى الله عنهم ـ وقتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ وهو ابن ثمان وخمسين[2].

أبى الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ أن يستأسر، فقاتلوه، فقتلوه، وقتلوا ابنيه، وأصحابه الذين قاتلوا معه، بمكانٍ يقال له: الطف، يعنى بكر بلاء.

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرانى (٢٨٠٥) فى الكبير، وابن عبد البر (١/ ٣٩٦) فى الاستيعاب، وخليفة (ص/١٤٦) فى تاريخه.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الطبرانى (٢٨٠٣) فى الكبير. وانظر: السير (٣/ ٣٢٠).

وانطلق بعليٍّ بن الحسين، وفاطمة بنت الحسين، وسكينة بنت الحسين إلى عبيد الله بن زياد، وعلى يومئذ غلام قد بلغ، فبعث بهم إلى يزيد بن معاوية، فأمر بسكينة فجعلها خلف سريره، لئلا ترى رأس أبيها، وذو قرابتها، وعلى بن الحسين - رضى الله عنهما - فى غلّ، فوضع رأسه فضرب على ثنيتى الحسين - رضى الله عنه - وقال:

نفلق هاماً من رجالٍ أحبةٍ إلينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال على بن الحسين - رضى الله عنه -

﴿ ما أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1].

فثقل على يزيد أن يتمثل ببيت شعر، وتلا على آية من كتاب الله عز وجل، فقال يزيد: بل ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[2].

فقال عليٌّ - رضى الله عنه - أما والله لو رآنا رسول الله ﷺ مغلولين لأحب أن يخلينا من الغل، قال: صدقت، فخلوهم من الغل.

قال: ولو وقفنا على رسول الله ﷺ على بُعدٍ لأحب أن يقربنا، قال: صدقت فقربوهم.

فجعلت فاطمة وسكينة يتطوولان لترياان رأس أبيهما، وجعل يزيد يتطاول فى مجلسه، ليستر عنهما رأس أبيهما، ثم أمر بهم فجهزوا، وأصلح إليهم، وأخرجوا إلى المدينة[3].

وممن قُتل مع الحسين - رضى الله عنه - ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب، قتله ابن زياد صبراً، وكان الحسين قدمه إلى الكوفة، ليخبر مَنْ بها من

---

(١) سورة الحديد: ٢٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) إسناده صحيحٌ إلى الليث. اخرجه الطبرانى(٢٨٠٦) فى الكبير، والذهبى(٥/١٨ - ١٩) فى تاريخ الإسلام، وانظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠)، الكامل (٤/ ٨٩، ٩٠) لابن الأثير الأثير.

شيعته بقدومه، فنزل على هانىء بن عروة المُرادى، فأحس به عبيد الله بن زياد، فقتل مسلماً وهانئاً[1].

ويحدثنا أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فيقول:

أتى عُبيدُ الله بن زياد برأس الحسين بن على، فجُعل فى طستٍ، فجعل ينكتُ.

وقال فى حُسنه شيئاً[2].

فقال أنسٌ: كان أشبههم برسول الله ﷺ، وكان مخضوباً بالوشمة.

وقوله: فجعل ينكت: أى جعل ابن زياد يقرع ويضرب من النكت، وهو أن يقرع بطرف القضيب الأرض، فعل المفكر.

واختلفت الأقوال فى تحديد قاتل الحسين، وهو على الأرجح شمر بن ذى الجوشن، وأمير الجيش هو عمر بن سعد، وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحى، وهو الذى حز رأسه، وأتى به عبيد الله بن زياد[3].

وقد كان الجزاء من جنس العمل، فقُطعت رأس ابن زياد، وحملت إلى المختار الثقفى عندما قام بتتبع قتلة الحسين رضى الله عنه.

يروى عنه الشعبى عما شاهده، فيقول: دخلت على عبيد الله بن زياد، وإذا رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ قدامه على ترسٍ، فوالله ما لبثت إلا قليلاً حتى دخلت على المختار، فإذا رأس عبيد الله بن زياد قدامه على ترسٍ[4].

ومن عجائب القدر أن تكون نهاية ابن زياد يوم عاشوراء كما قتل الحسين

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٤٦٨, ٤٦٩)، تاريخ خليفة (٢٣٤)، تاريخ الإسلام (٥/ ٢١).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٣٧٤٨)، وأحمد (٣/ ٢٦٨)، والترمذى (٣٧٧٨) وابن حبان(٢٢٤٣)، والطبرانى (٢٨٧٩) فى الكبير.

(٣) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٤٦)، والسير (٣/ ٣٠٢).

(٤) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرانى (٢٨٧٧) فى الكبير، وأبو يعلى كما فى المجمع(٩/ ١٩٦).

بأمره فى نفس اليوم، ويقول عُمارة بن عمير:

جىء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه، فأتيناهم وهم يقولون: قد جاءت... قد جاءت، فإذا حية تتخلل الرؤوس حتى دخلت فى منخر عبيد الله، فمكثت هُنيهة، ثم خرجت وغابت، ثم قالوا: قد جاءت... قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً[1].

هذا ابن زياد، وهذه نهايته بما جنت يداه، وما الله بظلام للعبيد، نبغضه فى الله تعالى، ونبرأ منه.

أما الحسين - رضى الله عنه - فقد أكرمه الله تعالى بالشهادة، وأهان بذلك من قتله، أو أعان على قتله، أو رضى بقتله، وله أسوة حسنة بمن سبقه من الشهداء، فإنه وأخاه سيدا شباب أهل الجنة، وكانا قد تربيا فى عز الإسلام، ولكن فرط فى حقهما أهل الإسلام.

ولكن يبقى السؤال: ما حقيقة موقف يزيد من مسألة قتل الحسين رضى الله عنه؟

هذا هو ما نتعرف عليه فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى العون والتيسير، والتوفيق والسداد.



(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الترمذى (٣٧٨٠) وقال: حسن صحيح، وابن الأثير (٢/ ٢٣) فى أسد الغابة، وعزاه لابن منده، وابن عبد البر، وأبى نعيم، وله شاهدٌ من خبر أبى الطفيل، أخرجه ابن أبى الدنيا(٩) فى الإشراف بتحقيقى.

ابن زياد يقتل الحسين

أمر ابن زياد الناس أن يأخذوا ما بين واقصة إلى طريق الشام،وإلى طريق البصرة حفظاً، فلا يدعون أحداً يلج، ولا أحداً يخرج.

وأقبل الحسين ولا يشعر بشيء، حتى أتى الأعراب فسألهم عن الناس، فقالوا: والله لا ندرى غير أنك لا تستطيع أن تلج، ولا تخرج.

قال: فانطلق يسير نحو يزيد بن معاوية، فتلقته الخيول بكر بلاء، فنزل يناشدهم الله والإسلام.

وفى هذا الوقت كان ابن زياد قد بعث إليه عمر بن سعد، وشمر بن ذى الجوشن، وحصين بن تميم، فناشدهم الله والإسلام أن يسيروه إلى أمير المؤمنين يزيد، فيضع يده فى يده، فقالوا: لا، إلا أن تنزل على حكم ابن زياد.

وكان فى جملة من معهم: الحُرّ بن يزيد الحنظلى على الخيل، فلما سمع ما يقول الحسين، قال لهم: ألا تتقون الله ؟! ألا تقبلون من هؤلاء ما يعرضون عليكم؟!.

والله لو سألتكم هذا الترك والديلم ما حلّ لكم أن تردوهم، فأبوا إلا على حكم ابن زياد. فضرب الحر وجه فرسه، وانطلق إلى الحسين، فظنوا أنه إنما جاء ليقاتلهم، فلما دنا منهم قلب ترسه وسلّم عليهم، ثم كرّ على أصحاب ابن زياد فقتل منهم رجلين، ثم قتل رحمه الله[1].

وممن عاشوا تلك المأساة **سعد بن عبيدة رحمه الله**، يقول:

إنا لمستنقعون فى الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجلٌ فساره فقال له: قد بعث إليك ابن زياد جُويرية بن بدر التميمى، وأمر إن لم تقاتل القوم أن يضرب عنقك.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو زرعة كما فى البداية (٨/ ١٨٤).

قال: فوثب إلى فرسه فركبها، ثم دعا بسلاحه فلبسه، وإنه لعلى فرسه ونهض بالناس إليهم فقاتلوهم فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد، فوضع بين يديه، فجعل ينكتُ بقضيبه فى أنفه ويقول:

إن أبا عبد الله قد شمط.

وجيء بنسائه وبناته وأهله، وكان أحسن شيء صنعه أن أمر لهم بمنزلٍ فى مكان معتزلٍ، وأجرى عليهم رزقاً، وأمر لهم بنفقة وكسوة.

قال: وانطلق غلامان منهم من أولاد عبد الله بن جعفر، فأتيا رجلاً من طيء، فلجآ إليه مستجيران به، فضرب أعناقهما، وجاء برأسيهما حتى وضعهما بين يدى ابن زياد، قال: فهم ابن زياد بضرب عنقه، وأمر بداره فهدمت.

قال: وحدثنى مولى لمعاوية بن أبى سفيان قال[١]:.

لما أتى يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه، رأيته يبكى، ويقول: لو كان بين ابن زياد وبينه رحم ما فعل هذا[٢] !!.



(١) هو رزيق مولى معاوية.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة كما فى البداية(٨/ ١٨٦).

موقف يزيد من مقتل الحسين

حض شمر بن ذى الجوشن على قتل الحسين، فصار يكتب فى ذلك إلى نائب السلطان على العراق عبيد الله بن زياد، وابن زياد أمر بمقاتلة الحسين، وقام بتنفيذ ذلك نائبه عمر بن سعد بن أبى وقاص.

هذا مما لا يختلف أحدٌ فى حدوثه، وإن اختلف فى تحديد شخصية القاتل الرئيسى، ولكن لكل منم من الإثم والخطيئة أعظم الحظ والنصيب.

أما عن موقف يزيد بن معاوية من هذه الجريمة النكراء فالروايات كثيرة ولكن لم يصح منها ما يجعل المرء يطمئن إلى الحكم من خلاله حكماً فاصلاً[(١)].

ولكن يكفى المرء أن يعود إلى إمامين جليلين من أئمة المسلمين، وبقية أعلام الدين، أما الأول فهو الإمام الحافظ، قوَّام السُّنة **إسماعيل التيمى الأصبهانى**، المتوفى سنة ٥٣٥هـ، يقول:

الذى ثبت عند أهل النقل أنه أمر عبيد الله بن زياد بحفظ الكوفة، وكتب إليه أن يمنع من أراد الاستيلاء على الكوفة، فلما قصد الحسين بن على - رضى الله عنه - الكوفة استقبلته خيل ابن زياد ليمنعوه من دخول الكوفة، فلم يتمكنوا من منعه إلا بقتله[(٢)].

هذا ما ثبت عند أهل النقل، مع ما ظهر من إنكاره عليه، ولعنه عبيد الله بن زياد، وقوله: قد كنا نرضى فيك بدون قتل الحسين، وإظهاره التحيّد والبكاء لقتله[(٣)]، وأنه جعل يضرب بيده على فخده، ويلعن قتلته وصلب قاتل الحسين،

---

(١) انظر: «افترا؟ءات وأباطيل عن بنى أمية».

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٣٨٩).

تعمد جند ابن زياد قتل الحسين مسالة أوضح من الشمس فى ربعة النهار، فلقد طلب الحسين رضى الله عنه كما مَرَّ بنا الرجوع أو الانطلاق إلى يزيد لكنهم أبوا عليه إلا الخضوع لابن زياد، فكان ما كان.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٧٣، ١٩٣)، والفتاوى (٣/ ٤١٠) لابن تيمية.

فقال: لقد عجل عليه ابن زياد قتله الله، ولم يثبت ضربه بالقضيب على أسنانه، إنما ثبت ذلك من فعل ابن زياد بالرواية الصحيحة[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:[2] يزيد بن معاوية ولد فى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ولم يدرك النبى ﷺ، ولا كان من الصحابة باتفاق العلماء، ولا كان من المشهورين بالدين، والصلاح، وكان من شبان المسلمين، ولا كان كافراً ولا زنديقاً، وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين، ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مظهراً للفواحش كما يحكى عنه خصومه.

وجرت فى إمارته أمور عظيمة:ـ

أحدها: مقتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ وهو لم يأمر بقتل الحسين، ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثناياه ـ رضى الله عنه ـ ولا حمل رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى الشام، لكن أمر بمنع الحسين ـ رضى الله عنه ـ، وبدفعه عن الأمر، ولكن كان بقتاله، فزاد النواب على أمره،وحض الشمر ذى الجيوش على قتله لعبيد الله بن زياد، فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد، فطلب منهم الحسين ـ رضى الله عنه ـ أن يجىء إلى يزيد، أو يذهب إلى الثغر مرابطاً، أو يعود إلى مكة، فمنعوه ـ رضى الله عنه ـ إلا أن يستأسر لهم، وأمر عمر بن سعد بقتاله ـ فقتلوه مظلوماً ـ له ولطائفة من أهل بيته رضى الله عنهم.

وكان قتله ـ رضى الله عنه ـ من المصائب العظيمة، فإن قتل الحسين، وقتل عثمان قبله، كانا من أعظم أسباب الفتن فى هذه الأمة، وقتلتهما من شرار الخلق عند الله.

ولما قدم أهله ـ رضى الله عنه ـ على يزيد بن معاوية أكرمهم، وسيرهم إلى

---

(١) انظر: الحجة فى بيان المحجة(٢/ ٥٢٤) للأصبهانى.

(٢) الفتاوى (٣/ ٤١٠) لابن تيمية.

المدينة، وروى عنه أنه لعن ابن زياد على قتله، وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله، والانتصار له، والأخذ بثاره، كان هو الواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب مضافاً إلى أمور أخرى.

وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء.

ولهذا كان الذى عليه معتقد أهل السنة، وأئمة الأمة أنه لا يُسَبّ، ولا يُحَبّ.

قال صالح بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى:

إن قوماً يقولون: إنهم يحبون يزيد؟! قال: وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟!.

فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟

قال: يا بنى، ومتى رأيت أباك يلعن أحداً؟!.

وروى عنه: قيل له: أتكتب الحديث عن يزيد بن معاوية؟ فقال: لا، ولا كرامة، أو ليس هو الذى فعل بأهل المدينة ما فعل؟!.

فيزيد عند علماء المسلمين ملك من الملوك، لايحبونه محبة الصالحين، وأولياء الله، ولا يسبونه، فإنهم لا يحبون لعنة المسلم المعين، لما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً كان يدعى حماراً، وكان يكثر شرب الخمر، وكان كلما أتى به إلى النبى ﷺ ضربه، فقال رجلٌ: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه، فإنه يحب الله وسوله»[1].

وروى أنه لما قدم على يزيد قتل الحسين وأهله ظهر فى داره البكاء والصرخ لذلك، وأنه أكرم أهله، وأنزلهم منزلاً حسناً، وخيّر ابنه علياً بين أن يقيم عنده، وبين أن يذهب إلى المدينة، فاختار المدينة.

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (٨/١٩٧)، وعبد الرزاق (١٣٥٥٢)، (١٧٠٨٢) فى مصنفه والبغوى (٢٦٠٦) فى شرح السنة.

والمكان الذى يقال له: سجن على بن الحسين بجامع دمشق باطل لا أصل له.

لكنه مع هذا لم يقم حد الله على من قتل الحسين-رضى الله عنه-، ولا انتصر له[1].

ولعل فى هذا الكلام كفاية لمن رام الوصول إلى الحق والصواب فى موقف يزيد من مقتل الحسين رضى الله عنه، وأرضاه.



(١) انظر: الفتاوى (٤/٥٠٦) بتصرف.

أهم الأعمال والأحداث فى عهد يزيد

عندما ننظر إلى أهم الأحداث الواقعة فى عهد يزيد بن معاوية نستطيع أن نحصرها فيما يلى:

فى سنة ستين:

توفى معاوية - رضى الله عنه - فى رجبٍ، واستخلف يزيد بن معاوية.

وفيها: حمل أهل مصر الطعام إلى جزيرة رودس.

وفيها: نزع الوليد بن عتبة عن المدينة، وأمِّر عمرو بن سعيد على المدينة، ومكة، والطائف، وحج بالناس فى تلك السنة عمرو بن سعيد، ثم نُزع فى مستهل ذى الحجة، وأمر الوليد بن عتبة.

وفيها: خرج الحسين بن على - رضى الله عنه - إلى العراق، وابن الزبير إلى مكة.

وفى هذه السنة كانت غزوة مالك بن عبد الله سُورية، ودخول جنادة ابن أبى أمية جزيرة رودس(1).

أحداث سنة إحدى وستين:

فيها: قتل الحسين بن على - رضى الله عنه -، يوم الأربعاء، لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء.

وفيها: ولَّى يزيد بن معاوية سَلْمَ بن زياد سجستان، وخُراسان.

وفيها: كانت غزوة مالك بن عبد الله الصائفة، غزوة قونية بأرض الروم(2).

حوادث سنة اثنتين وستين:

فيها: غزا سلم بن زياد خوارزم، فصالحوه على مالٍ كثيرٍ، ثم عبر إلى

---

(1) انظر: تاريخ خليفة (١٤١، ١٤٢)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٢)، البداية والنهاية (٨/ ١٢٤)، شذرات الذهب (١/ ٦١ - ٦٢) لابن العماد الحنبلى.

(2) انظر: طبقات خليفة (١٤٦)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٠)، تاريخ الإسلام (٥/ ٥).

سمرقند فصالحوه.

وفيها: وُلّي المنذر بن الجارود ثغرقندابيل، فمات المنذر بالثغر، فخرج الحكم بن المنذر، فغلب على قندابيل.

وفيها: نقض أهل كابل، وأخذوا أبا عبيدة بن زياد أسيراً، فسار يزيد ابن زياد فهجم على العدو فقاتلوه فقتل يزيد بن زياد، وقتل معه رجالٌ من أهل الصدق.

وفيها: غزا عبد الله بن أسد بن كرز القسرى قيسارية قيادية مما يلى الحدث.

وفيها: أقام الحج فى تلك السنة عثمان بن محمد بن أبى سفيان[1].

حوادث سنة ثلاث وستين:

وفيها: وقعة الحَرَّة[2] على باب طيبة، واستشهد فيها خلقٌ من الصحب الكرام، وسيأتى الحديث عنها مفصلاً.

وفيها: بعث سلم بن زياد: ابن أبيه طلحة بن عبد الله الخزاعى والياً على سجستان، فأمره أن يفدى أخاه من الأسر، ففداه بخمسمائة ألفٍ، وأقدمه على أخيه، وأقام طلحة بسجستان.

وفيها: غزا عقبة بن نافع من القيروان، فسار حتى أتى السُوس الأقصى، وغنم وسلم، وردّ، فلقيه كُسَيْلة وكان نصرانياً، فالتقيا، فاستشهد فى الوقعة عقبة بن نافع، وأبو المهاجر دينار مولى الأنصار، وعامة أصحابهما.

ثم سار كُسيلة النصرانى، فسار لحربه زهير بن قيس البلوى خليفة عُقبة على القيروان، فقُتل فى الوقعة كسيلة، وهُزم جنده، وكانت لهم مقتلة عظيمة.

حوادث سنة أربع وستين:

توفى يزيد بن معاوية فى ليلة البدر من شهر ربيع الأول. وفى هذه السنة: ظهرت الخوارج الذين فى مصر، ودعوا إلى بيعة ابن الزبير، وكانوا يظنونه على

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (٢٣٥، ٢٣٦)، تاريخ الطبرى (٥/٤٧٨)، تاريخ الإسلام (٥/٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٧٠).

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة، وكأنها أحرقت بالنار، والجمع: الحرات، والأحرّون، والحرار، وهى فى بلاد العرب كثيرة، والمراد هنا: حرة واقم، إحدى حرتى المدينة، وهى الشرقية.

مذهبهم، ولحق به خلقٌ من مصر إلى ديار الحجاز، فبعث ابن الزبير على مصر: عبد الرحمن بن جَحْدَم الفهرى، فوثبوا على سعيد الأزدى فاعتزلهم.

وأما الكوفيون، فإنهم بعد هروب ابن زياد اصطلحوا على عامر بن مسعود الجمحى، فأقره ابن الزبير.

وفيها: هدم ابن الزبير الكعبة لما احترقت، وبناها على قواعد إبراهيم الخليل ﷺ، وذلك لقول النبى ﷺ: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهدٍ بكفرٍ لنقضت الكعبة، ولأدخلت الحِجْرَ فى البيت، ولجعلت لها بابين، باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون منه»[1].

وكان البيت قد احترق حين غزاه أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم، يُريد أن يُجرئهم[2] على أهل الشام.

فلما صدر الناس، قال: يا أيها الناس.. أشيروا علىَّ فى الكعبة، أنقضها، ثم أبنى بناءها، أو أُصلح ما وهى منها؟

قال ابن عباس: فإنه قد فُرق[3] لى رأىٌ فيها، أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلَمَ الناسُ عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبُعث عليها النبى ﷺ.

فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته، ما رضى حتى يُجِدّه[4]، فكيف بيتُ ربكم؟

إنى مستخيرٌ ربى ثلاثاً، ثم عازمٌ على أمرى.

فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه، أمرٌ من السماء، حتى صعده رجلٌ فألقى منه حجارةً، فلما لم يره الناس أصابه شىءٌ تتابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدةً، فستر عليها الستور[1]، حتى ارتفع بناؤه.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه البخارى (٢/ ١٨٠)، ومسلم (١٣٣٣)، والنسائى (٥/ ٢١٦)، وأحمد (٦/ ٢٣٩، ٢٥٣، ٢٦٢)، والطحاوى (٢/ ١٨٥) فى «معانى الآثار»، والبيهقى (٥/ ٨٩) فى سننه الكبرى.

(٢) **يجرئهم**: من الجراءة أى يشجعهم على قتالهم، بإظهار قبح فعالهم.

(٣) **فرق لى**: أى كشف وبيِّن.

(٤) **يجده**: أى يجعله جديداً.

وقال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة تقول: إن النبى ﷺ قال:

«لولا أن الناس حديثٌ عهدهم بكفرٍ، وليس عندى من النفقة ما يُقوِّى على بنائه، لكنتُ أدخلتُ فيه الحِجْرِ خمس أذرع، ولجعلتُ لها باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون منه»[٢].

قال: فأنا اليوم أجد ما أنفق، ولستُ أخاف الناس، فزاد فيه خمس أذرع من الحجر، حتى أبدى أسًّا [٣]، نظر الناسُ إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعاً؛ فلما زاد فيه استقصره، فزاد فى طوله عشر أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه، والآخر يخرج منه.

فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير، قد وضع البناء على أُسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ[٤] ابن الزبير فى شىء.

أما ما زاد فى طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسُدَّ الباب الذى فتحه، فنقضه، وأعاده إلى بنائه[٥].



(١) المقصود بهذه الأعمدة والستور أن يستقبلها المصلون فى تلك الأيام ويعرفوا موضع الكعبة، ولم تزل تلك الستور حتى ارتفع البناء، وصار مشاهداً للناس فأزالها لحصول المقصود بالبناء المرتفع من الكعبة.

(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (١٣٣٣)، والنسائى (٥/ ٢١٨).

(٣) أبدى أسًّا: أى حفر من أرض الحجر ذلك المقدار إلى أن بلغ أساس البيت الذى أسس عليه إبراهيم ﷺ حتى أرى الناس أساسه، فنظروا إليه فبنى البناء عليه.

(٤) تلطيخ: يريد بذلك سبّه وعيب فعله، يقال: لطخته، أى: رميته بأمرٍ قبيح.

(٥) انظر: تاريخ الإسلام (٥/ ٣٩)، تاريخ خليفة (ص/ ٢٦١)، تاريخ الطبرى (٥/ ٥٢٤، ٥٣٠، ٥٤٠).

من مثالب يزيد بن معاوية

عندما نتحدث عن مثالب أحد الأمراء إنما يراد بذلك الإنصاف للحق والحقيقة، وإيضاح بعض الأمور التى تعارضت فيها الآراء، بذكر تلك الأمور على حقيقتها.

فمن أهم المثالب التى دونت فى سيرة يزيد بن معاوية، هى مسألة قتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ وقد جلينا حقيقة القول فى ذلك، واستخلصنا أن جُلّ ما يؤاخذ به يزيد بن معاوية فى هذه المسألة هو عدم قصاصه من قتلة الحسين رضى الله عنه.

ومن أهم المثالب الأخرى: **وقعة الحرة**.

وكانت تلك المأساة على أبواب مدينة الرسول ﷺ لثلاثٍ بقين من ذى الحجة، فى السنة الثالثة بعد الستين.

وكان سبب تلك الوقعة والتى حدثت بين أهل المدينة، وجند أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة، الذى لُقب بـ«مُسْرِف» بعد تلك الوقعة، أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية، وولّوا على قريش عبد الله بن مطيع، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة ابن أبى عامر، وكان شريفاً فاضلاً عابداً.

وولوا على قبائل المهاجرين: معقل بن سنان الأشجعى، وأخرجوا عثمان بن محمد والى المدينة الأموى، ومن كان بها من بنى أمية.

يروى عكرمة أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ سأل عنهم، وهو بالطائف، فقيل له: استعملوا ابن مطيع على قريش، وابن حنظلة على الأنصار، فقال: أميران! هلك القوم[1].

ثم إن يزيد بعث إلى أهل المدينة النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا، ويحذرهم غِبَّ ذلك، ويأمرهم الرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة، فسار

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/١٤٨) فى تاريخه.

إليهم ففعل ما أمره يزيد، وخوفهم الفتنة، وقال لهم: إن الفتنة وخيمة، ولا طاقة لكم بأهل الشام.

فقال له ابن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال له النعمان: أما والله لكأنى بك، وقد تركت لك الأمور التى تدعو إليها، وقامت الرجال على الرُّكب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودرات رحا الموت بين الفريقين، وكأنى بك قد ضربت جنب بغلتك إلىَّ، وخلّفت هؤلاء المساكين - يعنى الأنصار - يُقتلون فى سككهم ومساجدهم، وعلى أبواب دُورهم.

فعصاه الناس فلم يسمعوا منه، فانصرف وكان الأمر - والله - كما قال سواء[1].

واجتمع أهل المدينة على رأىٍ واحدٍ، ألا وهو القتال والدفاع عن أنفسهم ضد أهل الشام، واعتزل الناس علىٌّ بن الحسين «زين العابدين» وكذلك عبد الله بن عمر لم يخلعا يزيد، وأنكر على أهل المدينة فى ذلك.

قال نافع مولى ابن عمر: لما خلع أهل المدينة يزيد جمع ابن عمر أهله وبنيه، ثم تشهد، وقال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بَيْع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»[2].

وإن من أعظم الغدر أن لا يكون الإشراك بالله تعالى، أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحدٌ منكم يزيد، ولا يشرفن أحدٌ منكم فى هذا الأمر، فيكون صيلم[3] بينى وبينه[4].

ومقصد ابن عمر أن من بايع أميراً على شرط ما أمر الله ورسوله به من بيعة

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٤٨١)، البداية (٨/ ٢٣٤).

(٢) حديثٌ صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٢٩)، والبخارى (٣١٨٨)، (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥)، وأبو داود (٢٧٥٦)، والترمذى (١٦٣٠).

(٣) الصيلم: القطيعة المنكرة، والداهية.

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٥٠٨٨)، (٥٧٠٩).

الأمير، فقد أعطاه الطاعة، وأخذ منه العطية، فكان شبيه من باع سلعةً، وأخذ ثمنها.

وكانت وقعة الحرة، وحدثت المأساة، واستبيحت المدينة النبوية ثلاثة أيامٍ، فقد أباح مُسرف بن عقبة قائد أهل الشام المدينة ثلاثة أيام، قبحه الله من شيخ سوءٍ، وقتل خلقاً من أشرافها، وقُرّائها، وانتهب أموالاً كثيرة، ووقع شرٌ عظيم، وفساد عريض.

فصار رجال الشام يقتلون من وجدوا من الناس بالمدينة، ويأخذون الأموال، ويقعون على النساء!!

وسئل الزهرى: كم كان القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالى، وممن لا أعرف من حرٍّ وعبد غيرهم عشرة آلاف[1].

واختفى جماعةٌ من كبار الصحب الكرام، منهم: جابر بن عبد الله، وخرج أبو سعيد الخدرى فلجأ إلى غارٍ، فلحقه رجلٌ من أهل الشام، وكاد أن يقتله.

يروى أبو نضرة فيقول: دخل أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ يوم الحرة غاراً، فدخل عليه رجلٌ ثم خرج، فقال لرجلٍ من أهل الشام: أدلك على رجلٍ تقتله؟!

فلما انتهى الشامى إلى باب الغار، فقال لأبى سعيد ـ والسيف فى عنق أبى سعيد ـ: اخرج إلىَّ، قال: لا، وإن تدخل علىَّ أقتلك.

فدخل الشامى، فوضع أبو سعيد السيف، وقال: بوء بإثمى وإثمك، وكن من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

فلما رأى الشامى ذلك قال: من أنت؟ قال: أنا أبو سعيد الخدرى. قال: صاحب رسول الله ﷺ؟! قال: نعم.

قال: فاستغفرلى. قال: غفر الله لك، فمضى وتركنى[2].

(١) نقلاً عن البداية (٨/ ٢٣٩).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه خليفة (ص/ ١٤٩) فى تاريخه، وابن عساكر (٧/ ٩٦)، واورده الذهبى (٣/ ١٧٠) فى السير، والبداية (٨/ ٢٣٩).

ويقول الحسن ـ رحمه الله :ـ

أصيب ابنا زينب يوم الحرة فحملا إليها، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظم المصيبة عليَّ فيهما، ولهى فى هذا أعظم عليَّ منها فى هذا.

أما هذا فبسط يده فقاتل حتى قتل فأنا أخاف عليه، وأما هذا فكف يده حتى قتل فأنا أرجو له[1].

ويقول نافع:

مشى ابن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، وقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب؟!

فقال ابن الحنفية:

ما رأيتُ منه ما تذكرون، وقد أقمت عنده، فرأيته مواظباً للصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه.

فقال ابن مطيع: كان ذلك منه تصنعاً لك ورياء[2].

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً فى قوله لمسلم بن عقبة: أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، فقد وقع فى هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد، ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد يزيد بإرسال مسرف بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر[3].

روى سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال:

«من أراد أهل المدينة بسوءٍ أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء»[4].

---

(١) خبرٌ صحيحٌ أخرجه خليفة (ص/ ١٤٩).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه المدائنى كما فى تاريخ الإسلام ٥/ ٢٧٤)، والبداية (٨/ ٢٣٦)، السير (٤/ ٤٠).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٤) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه البخارى (١٨٧٧)، ومسلم (١٣٨٧)، وأحمد (٢/ ٣٥٧)، وابن ماجه (٣١١٤)، وابن حبان (٦/ ٢٠)، والبغوى (٤/ ٢٠) فى شرح السنة.

وفى روايةٍ أخرى: «**لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا إنماع كما ينماع الملح فى الماء**».

وقد فعل الله تعالى ذلك بمن غزاها، وقاتل أهلها كمُسْرِف بن عقبة إذ أهلكه الله عند منصرفه عنها إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير.

ابتلاه الله بالماء الأصفر فى بطنه، فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث ليالٍ.

وكإهلاك يزيد بن معاوية إثر إغرائه أهل المدينة، فمات بعد هذه الوقعة بالذبحة، وذات الجنب(١)، وحُمل إلى دمشق، ودفن فى مقبرة باب الصغير(٢).



---

(١) ذات الجنب: علة تصيب الإنسان، وتقضى عليه، وتبدأ من جنبه.

(٢) انظر: التذكرة (٢/٥١٨) للقرطبى بتحقيقى.

نظرة مؤرخي الإسلام وعلمائه ليزيد

اختلفت نظرة مؤرخي الإسلام وعلمائه إلى يزيد بن معاوية، وذلك بحسب اعتبار المواقف المنظور إليها.

فهذا مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ، يقول:

يزيد بن معاوية، الخليفة، الأموي. له على هناته حسنة، وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش، وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاري.

عقد له أبوه بولاية العهد من بعده، فتسلَّم المُلْكَ عند موته أبيه في رجب سنة ستين، وله ثلاث وثلاثون سنة.

فكانت دولته أقل من أربع سنين، ولم يُمْهِلْهُ على فعله بأهل المدينة لما خلعوه.

ويزيد ممن لا نسبُّهُ ولا نُحبُّهُ، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك في ملوك النواحي، بل فيهم من هو شرٌّ منه، وإنما عظم الخطب لكونه وُلِّيَ بعد وفاة النبي ﷺ بتسع وأربعين سنة، والعهد قريب، والصحابة موجودون، كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه، ومن أبيه، وجده.

افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرة، فمقته الناس، ولم يُبارك في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد الحسين، كأهل المدينة قاموا لله[1].

ويقول مؤرخ الإسلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أبو خالد الأموي، بويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون ولي العهد من بعده، ثم أكد ذلك بعد موت أبيه، فاستمر متولياً إلى أن توفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين.

وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في ذلك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه

---

(١) انظر: السير (٤/ ٣٦، ٣٨) بتصرف.

أيضاً إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات فى بعض الأوقات، وإماتتها فى غالب الأوقات.

وفى حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«يكون خلفٌ من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف بعد ستين سنة يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر»(١).

وكقول أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ: أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لأنها كانت سنة ستين من الهجرة.

واستجاب الله دعاء أبى هريرة، فمات قبلها بسنة(٢).

وقال ابن كثير: يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه فى عمله شرب الخمر، وإتيان بعض الفواحش، فأما قتل الحسين فإنه لم يأمر بذلك، ولم يسؤه.

ولما خرج أهل المدينة عن طاعته، وخلعوه، وولوا عليهم ابن مطيع، وابن حنظلة، لم يذكروا عنه ـ وهم أشد الناس عداوة له ـ إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر، وإتيانه بعض القاذورات، ولم يتهموه بزندقة.

بل قد كان فاسقاً، والفاسق لا يجوز خلعه، لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة، ووقوع الهرج، كما وقع فى زمن الحرة، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام، وقد كان فى قتال أهل الحرة كفاية، ولكن تجاوز الحد بإباحة المدينة ثلاثة أيام، فوقع بسبب ذلك شرٌّ عظيم.

وقد جوز لعنته قومٌ، وانتصر لذلك أبو الفرج ابن الجوزى فى مصنفٍ مفردٍ، ومنع من ذلك آخرون، وصنفوا فيه أيضاً لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه، أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول وأخطأ، وقالوا: إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على

---

(١) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه احمد (٣/٣٨)، والحاكم (٢/ ٣٧٤)، (٤/ ٥٤٧) وصححه، وأقره الذهبى، والبيهقى (٦/ ٤٦٥) فى دلائل النبوة.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٦١١) بنحوه، وانظر: السير (٢/ ٦٢٦)، الفتح (١/ ٢١٦) لابن حجر.

أصح قولى العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما فى ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهم، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه، كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا[1].

وقد بين جُلّ الافتراءات والأباطيل فى هذا الباب فى كتابنا:

«أباطيل وافتراءات حول العهد الأموى».



(١) انظر: البداية (٢٤١٨، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥١) بتصرف.

ذكر نسائه ونسله

فمن ولده: معاوية بن يزيد، ويكنى أبا ليلى، وخالد بن يزيد، ويكنى أبا هاشم، وأمهما: أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة.

وعبد الله بن يزيد، ويقال له: الأُسوار، وكان من أرمى العرب، وأمه: أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر.

ومن ولده: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعُمر، وعتبة، وحرب، وعبد الرحمن، والربيع، ومحمد، لأمهات أولادٍ شتى.

وكان له من البنات: عاتكة، ورملة، وأم عبد الرحمن، وأم يزيد، وأم محمد، فهؤلاء خمس بناتٍ.

ومن حكمة الله تعالى أنهم انقرضوا جميعاً، فلم يبق ليزيد عقب[1].

ومات يزيد بن معاوية بُحوَّارين من قرى دمشق، وذلك على الصحيح فى ليلة البدر من شهر ربيع الأول، من سنة أربعٍ وستين.

وطويت صفحة يزيد بن معاوية لتبدأ صفحة معاوية بن يزيد الذى لم يبق إلا قليلاً فى الخلافة، بحيُث كأنه لم يكن ممن تولاها.



(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٥٠٠)، البداية (٨/ ٢٥٦).

الباب الثالث

(٣) معاوية بن يزيد بن معاوية

استخلف أبو عبد الرحمن معاوية بن يزيد بعهدٍ من أبيه فى ربيع الأول من سنة أربع وستين، وكان شاباً صالحاً.

ولكن ياله من حكمةٍ بالغة، لما استخلف كان مريضاً، فاستمر مريضاً إلى أن مات، ولم يخرج إلى الخلافة، ولا صلَّى بالناس، ولا فعل شيئاً من الأمور.

وأصح ما ورد فى شأن المدة التى لبثها فى الخلافة هى أربعون يوماً، يحدثنا عنها أبو مسهر إمام الشام، فيقول:

عهد يزيد من بعده لمعاوية بن يزيد، فأقامه أربعين يوماً، فلما حضرته الوفاة، قيل له: ألا تعهد؟

قال: ما أصبت من حلاوتها ما أتحمّل مرارتها[1].

وأبى أن يستخلف أحداً من بعده، وكان الضحاك بن قيس هو القائم بأعمال الخلافة، والصلاة بالناس.

فى مقابر باب الصغير بدمشق دفن معاوية بن يزيد، ولما فرغ من دفنه قال مروان بن الحكم: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد.

فقال مروان: أبو ليلى الذى قال فيه أزنم الفزارى:

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

فهل كانت الفتنة التى تغلى مراجلها؟

وهل كان الملك لمن غلب؟

هذا ما نتعرف عليه فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى العون والسداد.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو زرعة (٧٥٧) فى تاريخه، وانظر: البداية (٨/ ٢٥٦)، تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٣٤) للسيوطى.

أحداث سنة أربع وستين

مات معاوية بن يزيد، ولم يل من الخلافة شيئا، ولم يعهد لأحدٍ من بعده، فكان ماذا؟ فى هذه السنة بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، على أن يقوم لهم بأمرهم حتى يتفق الناس على خليفةٍ يرتضونه.

ثم أرسل ابن زياد رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل ذلك، فأبوا عليه، وحصبوا الوالى الذى كان عليهم، ثم خالفه أهل البصرة أيضاً، فهاجت بالبصرة فتنة، وفر ابن زياد إلى الشام هارباً.

والمتأمل فيما حدث لابن زياد يتعجب فلقد استطاع فى البداية استمالة أهل البصرة، ثم قاموا عليه!!

خطب ابن زياد أهل البصرة فى البداية، فقال لهم:

يا أهل البصرة، انسبونى، فوالله لتجدن مُهاجر والدى، ومولدى فيكم، ودارى، ولقد وليتُكُم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل.

ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً، وما أحصى ديوان عُمَّالكم إلا تسعين ألفاً، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً، وما تركت لهم ذا ظِنَّة أخافه عليكم إلا وهو فى سجنكم هذا، وإن يزيد بن معاوية قد توفى، وقد اختلف أهل الشام، وأنتم اليوم أكثُر الناس عددًا، وأعرضُه فِناءً، وأغناه عن الناس، وأوسَعُهُ بلاداً، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم، فأنا أولُ راضٍ من رضيتموه وتابع، فإن اجتمع أهل الشام على رجلٍ ترتضونه، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنتم على جديلتكم[1] حتى تُعطوا حاجتكم، فما بكم إلى أحدٍ من أهل البلدان حاجةٌ، وما يستغنى الناس عنكم.

فقام خُطباءُ أهل البصرة فقالوا: قد سمعنا مقالتك أيها الأمير، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك، فَهَلُمَّ نبايعك.

فقال ابن زياد: لا حاجة لى فى ذلك، فاختاروا لأنفسكم، فأبوا عليه، وأبى

(١) الجديلة: الحال والناحية، والشاكلة.

عليهم، حتى كرروا ذلك عليه ثلاث مرات، فلما أبوا بسط يده فبايعوه.

ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون: لا يظن ابن مرجانة أنّا ننقاده فى الجماعة والفرقة، كذب والله!

ثم وثبوا عليه[1].

وقد خرج ابن زياد من البصرة متخفياً حتى وصل إلى الشام، وفى هذا يروى الحارث بن قيس، فيقول:

عرض نفسه - يعنى ابن زياد - علىَّ، فقال: أما والله إنى لأعرف سوءَ رأيٍ كان فى قومك، قال: فوقفتُ له، فأردفته على بغلتى - وذلك ليلاً - فأخذتُ على بنى سُلَيم، فقال: من هؤلاء؟ قلت: بنو سليم، قال: سلمنا إن شاء الله، ثم مررنا ببنى ناجية وهم جُلوسٌ ومعهم السلاح - وكان الناس يتحارسون إذ ذاك فى مجالسهم - فقالوا:

من هذا؟ قلت: الحارث بن قيس. قالوا: امضِ راشداً.

فلما مضينا قال رجلٌ منهم: هذا والله ابن مرجانة خلفه، فرماه بسهمٍ، فوضعه فى كُور عمامته، فقال: يا أبا محمد، من هؤلاء؟ قال: الذين كنت تزعم أنهم من قريشٍ، هؤلاء بنو ناجية.

قال: نجونا إن شاء الله، ثم قال: يا حارث، إنك قد أحسنت وأجملت، فهل صانع ما أشير عليك؟

قد علمتَ منزلة مسعود بن عمرو فى قومه وشرفه، وسنَّه وطاعة قومه له، فهل لك أن تذهب بى إليه فأكون فى داره، فهى وسط الأزد، فإنك إن لم تفعل صدع عليك أمر قومك؟

قلت: نعم، فانطلقت به، فما شعر مسعود بشىءٍ حتى دخلنا عليه، وهو جالسٌ ليلتئذ يوقد بقضيبٍ على لبنة، وهو يعالج خفيه - قد خلع أحدهما وبقى الآخر - فلما نظر فى وجوهنا عرفنا وقال: إنه كان يُتَعَوَّذُ من طوارق السوء، فقلتُ له: أفتُخْرِجه بعدما دخل عليك بيتك؟!

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٥/ ٥٠٤ - ٥٠٥) فى تاريخه.

قال: فأمره فدخل بيت عبد الغافر بن مسعود، وامرأة عبد الغافر يومئذ خيرةُ بنت خفاق بن عمرو.

قال: ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه، فطافوا فى الأزد ومجالسهم، فقالوا: إن ابن زياد قد فُقد، وإنا لا نأمن أن تلطّخوا به، فأصبحوا فى السلاح، وفقد الناس ابن زياد، فقالوا: أين توجّه؟ فقالوا: ما هو إلا فى الأزد(1).

وكان مسعود قد بعث مع ابن زياد مائة من الأزد، عليهم قرة بن عمرو، حتى قدموا به الشام.

وبايع أهل البصرة من بعده عبد الله بن الحارث الهاشمى، فولى أمرهم أربعة أشهر، ثم لزم بيته، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، وكان قد تغلب على الحجاز.

فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره بالصلاة بالناس، فصلى بهم أربعين يومًا.

وفى نفس الوقت تغلب مروان بن الحكم على الشام، وبايع أهل خراسان سلم بن زياد، حتى يتولى على الناس خليفة، وأحبوه محبة عظيمة، وسار فيهم سيرة حسنة أحبوه عليها، ثم أخرجوه من بين أظهرهم!!

فكانت بصدق سنة الفتنة الهوجاء، والرياح العصفاء، إنها فتنة عمياء صماء.

ففى نفس السنة تحركت الشيعة بالكوفة، واتعدوا الاجتماع بالنُّخَيلة فى سنة خمس وستين للمسير إلى أهل الشام للمطالبة بالثأر لدم الحسين رضى الله عنه.

وفى هذه السنة فارق ابن الزبير الخوارجُ الذين كانوا قدموا عليه مكة، فقاتلوا معه حصين بن نمير السكونى قائد جند الشام، فصاروا إلى البصرة، ثم افترقت كلمتهم، فصاروا أحزاباً.

وفى النصف من شهر رمضان من هذه السنة قدم المختار بن أبى عُبيد الكوفة، وكان قد أقام مع ابن الزبير حتى هلك يزيد بن معاوية، وكذا معاوية بن يزيد.

(1) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٥/ ٥١٠ - ٥١١).

وحج بالناس فى تلك السنة ابن الزبير، وكان عامله على المدينة عبيدة بن الزبير، وعلى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمى، وعلى قضائها سعيد بن نمران، وأَبَى شُريح القاضى القضاء فى الكوفة، وقال: أنا لا أقضى فى الفتنة، وكان على البصرة عمر بن عبيد الله التيمى، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان: عبد الله بن خازم.

وقد أحس الصحابى الجليل ابن عمر كالعادة بالفتنة الهوجاء، فأحرز دينه، وباع دنياه.

فهذا مروان بن الحكم يقول لابن عمر:

هلم يدك نُبايعك، فإنك سيد العرب، وابن سيدها.

فقال ابن عمر: فكيف أصنع بأهل المشرق؟

قال: نضربهم حتى يبايعوا. فقال ابن عمر:

والله ما أحب أنها دانت لى سبعين سنة، وأنه قُتل فى سيفى رجلٌ واحد[1].

فلما اطمأن مروان من جهة ابن عمر، بادر إلى الشام، وحارب ابن الزبير، فرضى الله عن ابن عمر.

فقد كان نهج ابن عمر فى الحياة:

إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء المسلمين، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فأفعل.

ونعم النهج لمن أراد أن ينجو فى الدار الآخرة.

وانتهت سنة أربع وستين، ودخلت سنة خمس وستين.



(١) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابن سعد (٤/١٦٩) فى طبقاته.

حصار الكعبة ومبايعة ابن الزبير

انتهى مسلم بن عقبة من جريمته الشنعاء بالمدينة، ثم سار بالناس نحو مكة، يريد مقاتلة ابن الزبير وجنده.

حتى إذا صدر عن الأبواء ثقل، فلما عرف أن الموت قد نزل به دعا حصين بن نمير الكندى، فقال: قد دعوتك فما أدرى أستخلفك على الجيش، أو أقدمك فأضرب عنقك.

قال: أصلحك الله، سهمك فارم بى حيث شئت.

قال: إنك أعرابىٌ جلف جاف، وإن هذا الحى من قريشٍ لم يمكنهم أحدٌ قط من أذنيه إلا غلبوه على رأيه، فسر بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم فإياك أن تمكنهم من أذنيك، لا يكونن إلا الوقاف، ثم الثقاف، ثم الانصراف.

ومات مُسرف، ومضى حصين بن نمير بجيشه ذلك، فلم يزل جيشه محاصراً لأهل مكة حتى هلك يزيد، فبلغت ابن الزبير وفاة يزيد قبل أن تبلغ حصيناً، فناداهم ابن الزبير: علام تقاتلون، وقد مات صاحبكم؟!!

قالوا: نقاتل لخليفته. قال: فقد هلك خليفته الذى استخلف. قالوا: نقاتل لمن استخلف بعده. قال: إنه لم يعهد إلى أحدٍ.

قال حصين: إن يكن ما تقول حقاً فما أسرع الخبر.

وكان حصار حصين خمسين يوماً حتى مات يزيد، ونصب حصين المجانيق على الكعبة وحرقها يوم الثلاثاء لخمسٍ خلون من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين[(١)].

فدعا ابن الزبير من يومئذٍ إلى نفسه، بعد رجوع حصين إلى الشام، فبايع الناس له على الخلافة، وسُمِّىَ أمير المؤمنين، وترك الشعار الذى عليه، ودعاءه عائذ الله، ولا حكم إلا لله، وفارقته الخوارج وتركوه.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٥٨).

وولى ابن الزبير عماله، فولى المدينة مصعب بن الزبير بن العوام فبايع له الناس، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة إلى البصرة فبايعوه.

وبعث عبد الله بن مطيع إلى الكوفة فبايعوه، وبعث عبد الرحمن بن عتبة الفهرى على مصر أميراً فبايعوه، وبعث واليه إلى اليمن فبايعوه، وبعث واليه إلى خراسان فبايعوه، وبعث الضحاك بن قيس الفهرى إلى الشام والياً، فبايع له عامة أهل الشام، واستوثقت له البلاد كلها ما خلا طائفةٌ من أهل الشام كان بها مروان بن الحكم، وأهل بيته(١).

وحج ابن الزبير بالناس ثمان حججٍ، من سنة أربع وستين إلى سنة إحدى وسبعين، وكان أول من كسا الكعبة الديباج، وكان يُطيبها حتى يجد ريحها من داخل الحرم(٢).

فماذا كان موقف مروان بن الحكم من ابن الزبير؟



(١) نقلاً عن تاريخ ابن عساكر (ع/٣٣/ ٤٥١).
(٢) خبرٌ صحيحٌ أخرجه ابن عساكر (ع/٣٣/ ٤٥٩) فى تاريخه، وانظر العقد الثمين (٥/ ١٧٤).

(٤) مروان بن الحكم بن أبى العاص

بايع الناس مروان بن الحكم فى النصف من ذى القعدة[١] سنة أربع وستين، وقد كان أهل الشام بايعوا ابن الزبير، ما خلا أهل الجابية، ومن كان من بنى أمية ومواليهم، وابن زياد فبايعوا مروان بن الحكم.

وكان الضحاك بن قيس قد وُلى على دمشق من قِبل ابن الزبير، فسار مروان بن الحكم وجنده إليه، فالتقوا بمرج راهط، وبه سُمّيت الواقعة: وقعة راهط[٢].

اقتتلوا عشرين يوماً، ثم كانت الهزيمة على الضحاك بن قيس، فقتل الضحاك وأصحابه، ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً، والضحاك فى ستين ألفاً!

أقاموا عشرين يوماً يقتتلون فى كل يوم، فقال ابن زياد لمروان: إن الضحاك فى فرسان قيس، ولن تنال منهم ما نريد إلا بمكيدة فسلهم الموادعة، واكفف عن القتال، وأعدّ الخيل، فإذا كفّوا فارمهم بها، فمشت بينهم السفراء، فكفّ الضحاك عن القتال، فشدّ عليهم مروان فى الخيل، ففزعوا إلى رايتهم من غير تعبئة، فقُتل الضحاك، وقتل من فرسان قيس جماعة، وأصيب يومئذ ثلاثة بنين لزفر بن الحارث.

وهكذا غلب مروان على الشام، وفى هلال شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين، دخل مصر، ثم خرج من مصر فى جمادى الآخرة، واستمر إلى أن مات فى مستهل رمضان من سنة خمس وستين[٣].

وعندما نقف أمام شخصية مروان بن الحكم، نجد أن من أجله كان ابتداء فتنة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فهو ابن عمه، وكاتبه.

وكان إليه الخاتم، فخانه، وأجلبوا بسببه على عُثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم

---

(١) خالف فى ذلك ابن الأثير (١٤٩/٤) فى الكامل، فقال: لثلاث خلون من ذى القعدة، والصواب ما أثبتناه نقلاً عن تاريخ خليفة (ص/١٦١).

(٢) راهط: موضع فى الغوطة من دمشق فى شرقيه بعد مرج عذراء كما فى معجم البلدان(٢٣/٣)لياقوت.

(٣) انظر: تاريخ خليفة (ص/١٦١ ـ ١٦٢)، تاريخ الطبرى (٥/٥٣٤، ٥٤٠).

نجاهو، وسار مع طلحة والزبير للمطالبة بدم عثمان، فقتل طلحة يوم الجمل، ثم نجا هو، وولي المدينة في عهد معاوية أكثر من مرة.

وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهرٍ، وكان ذا شجاعة، ومكر، ودهاء، وكان قارئاً، فقيهاً قبل البحث عن الإمارة!

قال مالكٌ: تذكَّر مروانُ، فقال: قرأتُ كتاب الله من أربعين سنة، ثم أصبحتُ فيما أنا فيه من هرقِ الدماءِ، وهذا الشأن[1]؟!!

وكان المحرض على قتل الحسين، وكان يوم الحرة مع مُسرف بن عقبة يُحرضه على قتال أهل المدينة.

واستولى مروان على الشام ومصر تسعة أشهر، ومات خنقاً من أول رمضان سنة خمس وستين.

فقد عقد لولديه عبد الملك وعبد العزيز بعده، وزَهَّد الناسَ في خالد ابن يزيد بن معاوية، ووضع منه، وسبَّه يوماً، وكان متزوجاً بأُمِّه، فأضمرت له الشر، فنام، فوثبت في جواريها، وغمَّته بوسادةٍ قعدن على جوانبها، فتَلِفَ، وصرخْنَ، وظنَّ أنه مات فُجاءةً[2].



(١) تاريخ ابن عساكر (١٦/ ١١٧٩)، السير (٣/ ٤٧٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٣٧، ٤٠)، السير (٣/ ٤٧٩).

بيعة عبد الملك بن مروان

خرج مروان بن الحكم من مصر بعد أن تغلب على والى ابن الزبير بها، وولى ابنه عبد العزيز على مصر، ثم خرج يريد الشام.

فلما دنا مروان من دمشق بلغه أن ابن الزبير قد أرسل إليه جيشاً كثيفاً يقوده مصعب بن الزبير، وعلى الفور أرسل إليه مروان بجيشٍ يقوده عمرو بن سعيد حتى يمنعه من الدخول إلى دمشق.

التقى ابن سعيد مع مصعب بن الزبير، ودار بينهما قتال شديد، أسفر عن هزيمة مصعب، واستقر مروان بدمشق إلى حين وفاته، وهو ابن ثلاث وستين سنة[1].

وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وكان قد أخذ العهد لابنيه من بعده، فلما مات فى ثالث رمضان جددت البيعة لابنه عبد الملك، وكان عبد العزيز والياً على مصر آنذاك.

وكان أبوه قبل وفاته قد بعث جيشين، أحدهما مع ابن زياد إلى العراق لينتزعها من نائب ابن الزبير، فلقى فى طريقه جيش التوابين المطالبين بدم الحسين فظفر بهم ابن زياد، وقتل أميرهم سليمان بن صُرد.

والبعث الآخر مع جيش بن دُلجة إلى المدينة ليرتجعها من نائب ابن الزبير، فسار نحوها، فلما وصل إليها هرب نائبها جابر بن الأسود.

وهنا كان على ابن الزبير أن يتصرف سريعاً، فبعث عباس بن سهل نائباً على المدينة، وجهز نائبه بالبصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة بجيشٍ، وأمره بالسير إلى ابن دُلجة بالمدينة، فلما سمع حبيش بن دلجة بقدوم جيش البصرة، سار إليهم.

وعند الربذة[2] كان الالتقاء، فرمى يزيد بن سياه حبيشاً بسهمٍ فقتله، وقتل

---

(١) انظر: البداية (٨/ ٢٦٣)، تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٠ - ٦١١).

(٢) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميالٍ منها،

بعض أصحابه، وفر الباقون عائدين إلى الشام[1].

كل ذلك كان فى سنة خمس وستين مفتتح خلافة عبد الملك بن مروان.

وفى هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة، وقتل كبيرهم نافع ابن الأزرق[2] وانقضت تلك السنة، وقد صار عبد الملك بن مروان خليفة على ديار مصر والشام، وابن الزبير فى الحجاز والعراق.

وفى هذه السنة أيضاً خالف مَنْ كان بخراسان من بنى تميم عبد الله ابن خازم حتى وقعت بينهم حروب طويلة.



(١) انظر: تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢)، البداية (٨/ ٢٨١)، تاريخ خليفة (ص/ ١٦٣).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٣ - ٦١٥)، البداية (٨/ ٢٨١).

(٥) خلافة عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، ويُلقب بأبى الملوك، لأنه ولى الخلافة أربعة من ولده: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام.

ويكنى أبا الوليد، ولد سنة ست وعشرين.

عُرف قبل توليه الخلافة بغزارة علمه، والنُسك والتعبد، يقول نافع:

لقد رأيت المدينة وما بها شابٌ أشدُّ تشميراً، ولا أفقه، ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك[١].

حتى الشعبى إمام الكوفة كان يقول: ما جالستُ أحداً إلا وجدتُ لى عليه الفضل إلا عبد الملك[٢].

فكأنه بعد الخلافة قال للعلم: هذا فراق بينى وبينك!

فلقد صار من رجال الدهر، ودُهاة الرجال، وكان الحجاجُ من ذنوبه.

فهكذا وصف أهل العلم أخلاقه، أما عن صفاته، فقالوا: كان عبد الملك رجلاً طويلاً، أبيض، مقرون الحاجبين، كبير العينين، مشرف الأنف، دقيق الوجه، ليس بالنحيف ولا البادن، أبيض الرأس واللحية[٣].

وقد كان بليغاً إذا تحدث، قال الشعبى:

خطب عبد الملك، فقال: اللهم إن ذنوبى عظام، وهى صغار فى جنب عفوك يا كريم، فاغفرها لى[٤].

فلنستعرض الآن سنوات خلافة عبد الملك بن مروان، لنتعرف على أهم الأحداث التى دارت فى أيامه، ومن الله العون والتيسير.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن سعد (٥/ ٢٣٤) فى طبقاته، وابن عساكر (١٠/ ١٢٥٤) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٤/ ٢٤٨)، وأخرجه الخطيب (١٠/ ٣٨٩) فى تاريخ بغداد.

(٢) السير (٤/ ٢٤٨).

(٣) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٩١)، السير (٤/ ٢٤٧).

(٤) السير (٤/ ٢٤٩).

حصاد السنين فى خلافة

عبد الملك بن مروان

أحداث سنة ست وستين:

فى هذه السنة كان وثوب المختار بن أبى عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين ـ رضى الله عنه ـ، فأخرج منها عبد الله بن مُطيع العدوى عامل ابن الزبير بها[1].

وفى نفس السنة تمت البيعة للمختار فى البصرة، وذلك أن المثنى بن مخربة العبدى كان من جيش التوابين، الذى هُزِم مع سليمان بن صرد، ثم رجع مع الفارين إلى الكوفة. فلما رجع، وجد أن المختار محبوسٌ، فأقام حتى خرج المختار من السجن، فبايعه المثنى سراً، وقال له المختار: الحق ببلدك بالبصرة فادْعَ الناسَ، وأسِرّ أمرك.

فقدم البصرة فدعا، فأجابه رجالٌ من قومه وغيرهم، فلما أخرج المختارُ ابن مطيع من الكوفة، خرج المثنى فاتخذ مسجداً، فاجتمع إليه قومه، ودعا إلى المختار.

ثم أتى مدينة الرّزق فعسكر عندها، وجمعوا الطعام فى المدينة، ونحروا الجزُر، فوجَّه إليهم القُباعُ[2] عَبَّادَ بن حصين، وهو على شُرطته، وقيس بن الهيثم فى المقاتلة، فأخذوا فى سكة الموالى حتى خرجوا إلى السبخة[3]، فوقفوا ولزم الناسُ دورهم، فلم يخرج أحدٌ فجعل عبَّادٌ ينظر هل يرى أحداً يسأله، فلم ير أحداً، فقال:

أما ههنا رجلٌ من بنى تميم؟ فقال خليفة الأعور مولى بنى عدى: هذه دار ورّاد مولى بنى عبد شمس.

قال: دُقّ الباب، فدقه، فخرج إليه ورّاد، فشتمه عباد، وقال: ويحك أنا

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٧)، البداية (٨/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٢) القباع: لقب والى البصرة، الحارث بن عبد الله.

(٣) السبخة: هى أرض تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

واقفٌ ههنا، لِمَ لَمْ تخرج إلىَّ؟!

قال: لم أدر ما يوافقك، قال: شُدَّ عليك سلاحك واركب، ففعل، ووقفوا، وأقبل أصحاب المثنى فواقفوهم، فقال عبَّادٌ لورّاد: قف مكانك مع قيس، فوقف قيس بن الهيثم مع وراد، ورجع عباد فأخذ فى طريق الذبَّاحين، والناس وقوفٌ فى السبخة، حتى أتى الكلأ، ولمدينة الرزق أربعة أبواب:

باب مما يلى البصرة، وبابٌ إلى الخلاّلين، وباب إلى المسجد، وبابٌ إلى مهب الشمال، فأتى الباب الذى يلى النهر، وهو بابٌ صغير، فوقف ودعا بسلم فوضعه مع حائط المدينة، فصعد ثلاثون رجلاً، وقال لهم: الزموا السطح، فإذا سمعتم التكبير فكبروا على السطوح، ورجع عباد إلى قيس بن الهيثم، وقال لوراد: حَرِّش القومَ، فطارهم وراد، ثم التبس القتال، فقُتل أربعون رجلاً من أصحاب المثنى، وقتل رجلٌ من أصحاب عباد، وسمع الذين على السطح فى دار الرزق الضجة والتكبير، فكبروا فهرب من كان فى المدينة، وسمع المثنى وأصحابه التكبير من ورائهم، فانهزموا، وأمر عباد وقيس الناس بالكف عن الناس، وعن اتباعهم، وأخذوا مدينة الرزق وما كان فيها.

وأتى المثنى وأصحاب عبد القيس، ورجع عباد وقيس ومن معهما إلى القباع، فوجههما إلى عبد القيس، فأخذ قيس بن الهيثم من ناحية الجسر، وأتاهم عباد من طريق المربد، فالتقوا، فأقبل زياد بن عمر والعتكى إلى القباع، وهو فى المسجد جالس على المنبر، فدخل زياد المسجد على فرسه، فقال:

أيها الرجل، لتردن خيلك عن إخواننا أو لنقاتلنَّها، فأرسل القباعُ الأحنف بن قيس، وعمر بن عبد الرحمن المخزومى ليصلحا أمر الناس.

فأتيا عبد القيس، فقال الأحنف لبكر والأزد وللعامة: ألستم على بيعة ابن الزبير؟!

قالوا: بلى، ولكنا لا نُسلِم إخواننا.

قال: فمروهم فليخرجوا إلى أى البلاد أحبوا، ولا يفسدوا هذا المِصرَ على أهله، وهم آمنون فليخرجوا حيث شاءوا.

فمشى مالك بن مُسمِع وزيادُ بن عمرو ووجوه أصحابهم إلى المثنى، فقالوا له ولأصحابه: إنا والله ما نحن على رأيكم، ولكنا كرهنا أن تُضامُوا فالحقوا بصاحبكم، فإن من أجابكم إلى رأيكم قليل، وأنتم آمنون.

فقَبِل المثنَّى قولهما وما أشارا به، وانصرف، ورجع الأحنف وقال: ما غَبنت رأيي إلا يومي هذا، إني أتيت هؤلاء القوم، وخلَّفت بكراً، والأزدورائي، ورجع عباد، وقيس إلى القباع، وشخص المثنى إلى المختار بالكوفة في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، وأصيب في تلك الحرب سُويد بن رئاب، وعقبة بن عشيرة.

وأخبر المثنى المختار حين قدم عليه بما كان من أمر مالك بن مسمع، وزياد بن عمرو، ومسيرهما إليه، وذبّهما عنه حتى شخص عن البصرة، فطمع المختار فيهما، فكتب إليهما:

أما بعد، فاسمعا وأطيعا، ولكما من الدنيا ماشئتما، وأضمن لكما الجنة.

فقال مالكٌ لزياد: يا أبا المغيرة، قد أكثر لنا أبو إسحاق إعطاءنا الدنيا والآخرة!

فقال زيادٌ لمالك مازحاً: يا أبا غسان، أما أنا فلا أقاتل نسيئةً، من أعطانا الدراهم قاتلنا معه، وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس:

من المختار إلى الأحنف ومن قِبَله، فسَلْم أنتم، أما بعد.. فويلٌ أمّ ربيعة من مضر، فإن الأحنف بن قيس مُورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصدر، وإني لا أملك ما خُطّ في القدر، وقد بلغني أنكم تسمُّونني كذاباً، وقد كُذب الأنبياء مِنْ قبلي، ولستُ بخيرٍ من كثيرٍ منهم(1).

وفي هذه السنة بعث المختارُ جيشاً إلى المدينة للمكر بابن الزبير، وهو مُظهرٌ له أنه وجَّههم معونةً له لحرب الجيش الذي كان عبد الملك بن مروان وجَّهه إليه لحربه، فنزلوا وادي القرى.

وفي هذه السنة خرج إبراهيم بن الأشتر متوجِّهاً إلى ابن زياد لحربه، وذلك

(1) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبري (٦/ ٦٦ ـ ٦٨) في تاريخه، وانظر: البداية (٨/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

لثمانٍ بقين من ذى الحجة.

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان على المدينة مصعب بن الزبير من قِبَل أخيه عبد الله، وعلى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وكانت الكوفة بها المختار غالباً عليها، وبخراسان ابن خازم.



علو شأن المختار الكذاب!

هو المختار بن أبى عبيد الثقفى، كان من كبراء ثقيف، وذوى الرأى، والدهاء، غلب على الكوفة، ودانت له العراق.

وجاء تلقيبه بالكذاب إذ أنه ادعى أن الوحى يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وقد تنبأ النبى ﷺ بوجود هذا الرجل الضال.

فعن أسماء بنت أبى بكر، وابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: -

«يكون فى ثقيف كذابٌ ومبيرٌ»(١).

أما المختار فكان الكذاب المدعى للغيب، وأما المبير فكان الحجاج الثقفى وسيأتى الكلام عليه فى حينه.

يقول رفاعة القتبانى: دخلتُ على المختار، فألقى لى وسادةً، وقال: لولا أن جبريل قام عن هذه، لألقيتها لك، فأردتُ أن أضرب عنقه، فذكرتُ حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أيما مُؤمن أمَّن مؤمنًا على دمه فقتله، فأنا من القاتل برىء»(٢) فتبينت كذابته.

ويقول الشعبى: خرجتُ أنا وأبى مع المختار، فقال لنا: أبشروا، فإن شرطة الله قد حسُّوهم بالسيوف بقرب نصيبين، فدخلنا المدائن، فوالله إنه ليخطبنا، إذ جاءته البشرى بالنصر، فقال: ألم أبشركم بهذا؟ قالوا: بلى، فقال لى همذانى: أتؤمن الآن؟ قلت: بماذا؟ قال: بأن المختار يعلمُ الغيب، ألم يقل لنا: إنهم هُزمُوا؟!

قلت: إنما زعم أن ذلك بنصيبين، وإنما وقع ذلك بالخازر من الموصل. قال: والله لا تؤمن يا شعبى حتى ترى العذاب الأليم(٣).

وعلا شأن المختار الكذاب عندما تتبع قتلة الحسين، وكانوا يأتون بهم حتى

(١) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢٥٤٥)، والترمذى (٢٢٢٠)، (٣٩٤٤)، وأحمد (٢/٢٦).
(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه أحمد (٥/٢٢٢، ٢٢٣)، وابن ماجه (٢٦٨٨).
(٣) السير (٣/٥٤٢)، البداية (٨/٣٠٤).

يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواعٍ من القتلات مما يناسب ما فعلوا، فمنهم من حرقه بالنار، ومنهم من قطع أطرافه، وتركه حتى مات، ومنهم من يُرمى بالنبال حتى يموت.

فأتوه بمالك بن النسير، فقال له المختار: أنت الذى نزعت برنس الحسين عنه؟!

فقال: خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا، فقال: اقطعوا يديه ورجليه، ففعلوا به ذلك، ثم تركوه يضطرب حتى مات(١).

وهكذا استطاع المختار الكذاب بادعائه نصرة أهل البيت، وهو فى نفس الأمر متستر بذلك، ليجمع عليه الشيعة الذين بالكوفة، ليقيم لهم دولة، ويصول بهم ويجول على مخالفيه صولة.

فهذا هو الكذاب الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «إنه سيكون فى ثقيف كذاب ومبير» فهذا هو الكذاب، وهو يُظهر التشيع، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفى، وقد ولى الكوفة من جهة عبد الملك بن مروان كما سيأتى، وكان الحجاج عكس هذا، كان ناصبياً جلداً ظالماً غاشماً، ولكن لم يكن فى طبقة هذا، متهم على دين الإسلام، ودعوة النبوة، وأنه يأتيه الوحى من العلى العلام(٢).

وكان قد وُضع له كرسى يعظم ويحف به الرجال، ويستر بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يضاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن، ولا شك أنه كان ضالاً مضلاً أراح الله المسلمين منه بعدما انتقم به من قومٍ آخرين من الظالمين، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

ولله الأمر من قبل، ومن بعد، وإليه يرجع الأمر كله.



---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٣٨)، البداية (٨/ ٢٩٣).

(٢) البداية (٨/ ٢٩٦).

(٣) سورة الأنعام: ١٢٩.

عام مصرع عتاة الأشرار

أحداث سنة سبع وستين:

كانت هذه هى سنة المقتلة الكبرى لعتاة الأشرار، كابن زياد، وأتباعه، والمختار الكذاب وأتباعه.

ففى هذه السنة جرى لعبيد الله بن زياد خُطوبٌ، وكان مبغوضاً من المسلمين لما فعل بالحسين - رضى الله عنه - وأهل بيته.

مَرَّ بنا تملق المختار لأهل الكوفة بتتبع قتلة الحسين، ومن شهد وقعة كربلاء من جانب بن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برءوس كبارٍ منهم كعمر بن سعد أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذى الجوشن، وسنان بن أبى أنس، وخولى بن يزيد الأصبحى، وغيرهم.

ثم أرسل المختار إبراهيم بن الأشعث فى عشرين ألفاً إلى ابن زياد، وكان ابن زياد فى جيشٍ أعظم من جيشه أضعاف مضاعفة، كانوا ثمانين ألفاً، فالتقوا فى أول سنة سبع وستين بالخازر، كبسهم ابن الأشتر سَحَراً، والتقى الجيشان، وقُتل خلقٌ، فانهزم الشاميون، وقُتل ابن زياد، وحصين بن نمير، وشُرحبيل بن ذى الكلاع، وبعث برؤوسهم إلى ابن الزبير فى مكة[1].

كان القاتل لابن زياد، هو شريك بن حدير التغلبى الذى أصيبت عينه فى حرب صفين مع أمير المؤمنين على - رضى الله عنه -، فلما انقضت حربُ علىّ لحق ببيت المقدس، فكان به.

فلما جاءه قتل الحسين، قال: أعاهد الله إن قدرت على كذا وكذا - يطلب دم الحسين - لأقتلن ابن مرجانة، أو لأموتن دونه.

فلما بلغه أن المختار خرج يطلب بدم الحسين أقبل إليه، فكان وجهه مع إبراهيم بن الأشتر، وجُعل على خيل ربيعة، فقال لأصحابه:

---

(١) انظر: البداية (٨/٣١٣)، السير (٣/٥٤٧ - ٥٤٨).

إنى عاهدتُ الله على كذا وكذا، فبايعه ثلثمائة على الموت، فلما التقوا حمل فجعل يَهتِكها صفًا صفًا مع أصحابه حتى وصلوا إليه، وثار الرّهَج فلا يسمع إلا وقع الحديد والسيوف، فانفرجت عن الناس وهم قتيلان ليس بينهما أحدٌ، التغلبى. وابن زياد(١).

وفى هذه السنة عزل ابن الزبير القُباع عن البصرة، وبعث عليها أخاه مصعب بن الزبير، يقول عمرو بن سرح مولى الزبير: كنتُ والله فى الرهط الذين قدموا مع مصعب بن الزبير من مكة إلى البصرة، فقدم متلثماً حتى أناخ على باب المسجد، ثم دخل فصعد المنبر، فقال الناس: أمير. أمير.

وجاء الحارث بن عبد الله ـ وهو أميرها قبله ـ فسفر المصعب فعرفوه، وقالوا: مصعب بن الزبير!!

فقال للحارث: اظهر اظهر، فصعد حتى جلس تحته من المنبر درجة، ثم قام المصعب، فحمد الله وأثنى عليه.

قال: فو الله ما أكثر الكلام، ثم استفتح القصص(٢)، قال: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿طسٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣) وأشاره بيده نحو الشام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(٤).

وأشار بيده نحو الحجاز.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٥).

وأشار بيده نحو الشام(٦).

وهكذا نستطيع أن نقول: إن ابن الزبير عزل القُباع، الحارث بن عبد الله،

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٦/ ٩٠) فى تاريخه.
(٢) يعنى سورة القصص.
(٣) سورة القصص: ١ ـ ٤.
(٤، ٥) سورة القصص: ٥.
(٦) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٦//٩٢ ـ ٩٣) فى تاريخه، وانظر: البداية (٨/٣٠٨ ـ ٣٠٩).

وولى أخاه مصعب بن الزبير ليكون رداءً، وكفؤاً للمختار الكذاب.

فقد لاح لابن الزبير ضلال المختار، واستبان له كذبه، فندب أخاه لحربه، فقدم محمد بن الأشعث وشبث بن ربعى إلى البصرة يستصرخان الناس على الكذاب.

ثم التقى مصعبٌ وجيش المختار، فقُتل ابن الأشعث، وعبيد الله بن على بن أبى طالب، وانفلَّ الكوفيون، فحصرهم مُصعب فى دار الإمارة، فكان المختار يبرز فى فرسانه، ويُقاتل وظل المختار محاصراً هو وأصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم، ثم جعل المختار يحيل فكرته فى الأمر، الذى قد حلَّ به، واستشار من عنده، فقوى عزمه قوة الشجاعة، ورأى أن يموت على فرسه، فخرج من قصره، فتقدم إليه الأخوان طريف وطراف من بنى حنيفة فقتلاه، وأتيا مصعباً برأسه، فأعطاهما ثلاثين ألفاً، وقد قُتل ثلةٌ من أتباع المختار، وأُسر منهم خمسمائة أسير، فضرب مصعبٌ أعناقهم عن آخرهم فى يوم واحدٍ. وقُتل من أصحاب مصعب فى هذه الواقعة ابن الأشعث كما تقدم[1].

ظفر مصعبٌ بالمختار، وقتل من أعوانه خلائق، فكتب ابن الزبير إلى ابن الأشتر فى الذهاب إلى مصعب ليبايع لابن الزبير، وله الشام.

وفى نفس الوقت كتب عبد الملك بن مروان إلى ابن الأشتر: إن بايعتنى فلك العراق، وهنا شاور ابن الأشتر أصحابه إلى أيهما يذهب فترددُوا، ثم اتفق رأيهم على الذهاب إلى بلدة الكوفة، قائلاً: لا أُوثِرُ على مصرى وقومى أحداً، وسار إلى مصعب فأكرمه واحترمه كثيراً، وبعث مصعبٌ المهلب بن أبى صفرة على الموصل، والجزيرة، وأذربيجان وأرمينية، وأقام هو فى الكوفة، وكانت تحت ولايته البصرة أيضاً.

ثم لم تنسلخ السنة حتى عزل ابن الزبير مصعباً عن البصرة، وولى عليها ابنه حمزة بن عبد الله، وكان شجاعاً جواداً، مخلَّطاً، يعطى أحياناً حتى لا يدع شيئاً،

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/١٦٥)، والسير (٣/ ٥٤٣, ٥٤٤)، البداية (٨/ ٣١٠).

ويمنع أحياناً ما لم يمنع مثله، وظهرت خفةٌ وطيشٌ فى تصرفاته، فبعث الأحنف إلى ابن الزبير يخبره فعزله، وأعاد إليها أخاه مصعباً، فظل على العراقين خمس سنين.

ثم دخلت سنة ثمان وستين.

وفيها: استعمل ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة، والقباع على الكوفة، وجابر بن الأسود الزهرى على المدينة، وعزل عنها ابن الأشعث لكونه ضرب ابن المسيب ستين سوطاً فى بيعة ابن الزبير، فلامه على ذلك ابن الزبير وعزله[1].

وفى هذه السنة: كان مرجع الخوارج من نواحى فارس إلى العراق، حتى قاربوا الكوفة، ودخلوا المدائن، فقتلوا الرجال والنساء، وعليهم الزبير بن الماحوز، وقد كان عمر بن عبد الله التيمى قاتلهم بسابور، وصاح أهل الكوفة بأميرهم الحارث الملقب بالقباع، وقالوا: انهض، فهذا عدوٌ ليست له تقية.

فنزل النُّخيلة، فقام إليه إبراهيم بن الأشتر، فقال: قد سار إلينا عدوٌ يقتل المرأة والمولود، ويخرب البلاد، فانهض بنا إليه، فرحل بهم، ونزل دير عبد الرحمن، فأقام أياماً حتى دخل شبث بن ربعى، فكلمه بنحو كلام ابن الأشتر، فارتحل ولم يكد، فلما رأى الناس بطء سيره، رجزوا فقالوا:

سار بنا القباعُ سيراً نُكراً　　　يسيُر يوماً ويقيم شهراً

وصل القباع إلى الصَّراة[2]، وقد انتهى إليها الخوارج، فلما رأوا أن أهل الكوفة قد ساروا إليهم، قطعوا الجسر، فقال ابن الأشتر للقباع: اندب معى الناس حتى أعبر إلى هؤلاء، فأجيئك برؤوسهم الساعة.

فقال شبث بن ربعى، وأسماء بن خارجة: دعهم فليذهبوا، لا تبدأ وهم بقتالٍ، وكأنهم حسدوا ابن الأشتر.

وهنا أصلح القباع الجسر، ففرت الخوارج فارين بين يديه، فجهز خلفهم عسكراً بقيادة عبد الرحمن بن مخنف فأتبعهم فى ستة آلاف، فغزوا حتى وصلوا أصبهان.

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٦٣)، البداية (٨/ ٣١٥).　　(٢) الصراة: هو نهرٌ ببغداد يصب فى دجلة.

فانصرف عنهم ابن مخنف ولم يقاتلهم.

ثم إنهم حاصروا أصبهان شهراً، وأجهدوا أهلها، فحض عتاب بن ورقاء القائم عليها أهلها على الخروج لمقاتلة الخوارج فأجابوه.

فخرج الناس من أصبهان بغتة عند السحر على الخوارج فقاتلوهم، وقتلوا أميرهم الزبير بن الماحوز، وغنموا ما فى معسكرهم، فانحازت الخوارج إلى قطرى ابن الفجاءة فجعلوه أميرهم، فرحل بهم وأتى ناحية كرمان، وجمع الأموال، وأعد الرجال، ثم نزل بالأهواز.

عند ذلك كتب مصعب بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة ـ وهو على الموصل ـ أن يسير إلى قتالهم، وكان أبصر الناس بقتالهم، فانصرف المهلب إلى الأهواز فقاتل فيها الخوارج بقرية سُولاف[1] غير مرة، ودام القتال ثمانية أشهر قتالاً لم يسمع بمثله[2].

وفى هذه السنة كان القحط الشديد ببلاد الشام بحيث لم يتمكنوا معه من الغزو لضعفهم وقلة طعامهم وعتادهم.

ثم جاءت سنة تسع وستين.

والأمة فى انقسامٍ بين أربع جبهات: ابن الزبير وأتباعه، وعبد الملك وأتباعه، وابن الحنفية وأصحابه، والخوارج.

وفى هذه السنة: كان مقتل عمرو بن سعيد الأشدق من أمراء البيت الأموى على يد عبد الملك بن مروان.

وكان سبب ذلك أن عبد الملك بن مروان كان قد دخل فى خصومة مع عمرو، فأصلح قومهما بينهما، فكان نصف الشام مع عبد الملك، والنصف الآخر مع عمرو.

فلما تم الصلح بينهما اتفق القوم على أن يكونا شريكين فى الملك، وأن يكون اسم الخلافة لعبد الملك، ومن بعده لعمرو الأشدق.

---

(١) سولاف: قرية فى غربى دُجيل من أرض خورستان.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، البداية (٨/ ٣١٦).

وفى أثناء ذلك خرج عبد الملك فى جيشٍ قاصداً قرقيسيا ليحاصر زفر الكلابى، وفى عزمه إذا فرغ منه أن يقصد مصعب بن الزبير، فلما سار إلى قرقيسيا جعل عمرو الأشدق على دمشق خليفة فى موضعه، فما كان منه إلا أن تحصن بها، وأخذ أموال بيت المال.

فلما رجع عبد الملك حاصر عمراً بدمشق، وأعطاه أماناً مُؤكداً، فاغتر به عمرو، ثم بعد أيامٍ، غدر به، وقتله[1].

وفى هذه السنة:

كان الطاعون الجارف بالبصرة الذى ذهبت فيه أنفس كثيرة، حتى قلَّ الناس جداً بالبصرة، وماتت أم أمير البصرة، فلم يجدوا من يحملها إلا أربعة.

وفيها: عقد أمير مصر عبد العزيز بن مروان لحسان الغسانى على غزو إفريقية، فسار إليها فى جيشٍ كثيفٍ، فافتتح قُرطاجنة[2]، وأهلها إذ ذاك نصارى[3].

ثم كانت سنة سبعين من الهجرة النبوية.

وفيها: سارت الروم إلى أهل الشام، واستضعفوهم لما يرون من اختلافٍ بينهم، وبدهاءٍ من عبد الملك وجد أن من الحيلة أن يخادع ملك الروم بالمال، فصالحه على أن يدفع إليه عبد الملك كل جمعة ألف دينار، فرجع ملك الروم، وسد عبد الملك هذا الخلل الذى انفتح عليه.

وفيها: كان الوباء الرهيب بمصر، فخرج منها الوالى عبد العزيز بن مروان فراراً من الطاعون فنزل حُلوان واتخذها منزلاً بعد أن اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وبنى بها دار الإمارة، والمسجد، وأنزلها الجند والحرس.

وفيها: وفد مصعب بن الزبير على أخيه بمكة، ومعه أموال عظيمة، وتحف نفيسة، فقام بتفريقها فى الناس[4].

---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٠، ١٤٤، ١٤٥)، البداية (٨/ ٢٣٠)، السير (٣/ ٤٤٩).

(٢) قرطاجنة: هى تونس الحالية.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٦٨).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠)، تاريخ الإسلام (٦/ ٦٩)، البداية (٨/ ٢٣٦).

مقتل مصعب بن الزبير

أحداث سنة إحدى وسبعين:

وفيها: كان مقتل مصعب بن الزبير أمير العراقين، الفارس الهمام، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من تلك السنة.

وكان يسمى من شدة سخائه:

آنية النحل، وفيه يقول عبيد الله بن قيس الرقيات:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ

ملكه مُلكُ عزةٍ ليس فيها جبروت منه ولا كبرياءُ

يتقى الله فى الأمور وقد أفلح من كان همَّهُ الاتقاءُ(1).

سار عبد الملك بن مروان فى جيش ضخمٍ من الشام قاصداً العراق، وذلك بعد تأمينه للشام من عمرو الأشدق، والروم، وكان مصعب بن الزبير وعبد الملك يركب كل واحد منهما ليلتقى الآخر فى كل عامٍ، فيحول بينهما الشتاء فيرجعان.

وفى هذه المرة كان عبد الملك قد أشار عليه بعض أصحابه أن يقيم بالشام، وأن يبعث إلى مصعب جيشاً، فأبى وقال: إن بعثت رجلاً شجاعاً كان لا رأى له، ومن له رأى لا شجاعة له، وإنى أجد من نفسى بصيراً بالحرب وشجاعة، وإن مصعباً فى بيت شجاعة، أبوه أشجع قرشى، وأخوه لا تجهل شجاعته، وهو شجاعٌ ومعه من يخالفه، ولا علم له بالحرب، وهو يحب الدعة والصفح، ومعى من ينصح لى ويوافقنى على ما أريد.

فسار عبد الملك بنفسه، فلما تقارب الجيشان بعث عبد الملك إلى أمراء مصعب يدعوهم إلى نفسه، ويعدهم الولايات، ويُمنِّيهم إمرة العراق، وإمرة العجم، فأجابوه إلا ابن الأشتر، فأتى مصعباً بكتاب، وفيه: إلى ابن الأشتر، إن بايعتنى فلك العراق.

(1) انظر: الشعر والشعراء (ص/ 450)، الأغانى (5/ 79)، الكامل (2/ 269)، السير (4/ 141).

فقال ابن الأشتر: قد كتب إلى أصحابك، فأطعنى واضرب أعناقهم، قال مصعب: إذاً تغضب عشائرهم. قال: فاسجنهم. قال: فإنى لفى شغلٍ عن ذلك، يرحم الله الأحنف، إن كان ليحذِّرُ غدر العراقيين.

والتقى الجمعان بدير الجاثليق[1] بقُرب أوانا[2]، وكان بينهما ملحمة كبرى، فحمل ابن الأشتر ـ وهو أمير المقدمة العراقية ـ على محمد بن مروان ـ وهو أمير مقدمة الشاميين ـ فأزالهم عن مكانهم، فأردفه عبد الملك بعبد الله بن يزيد بن معاوية، فحملوا على ابن الأشتر ومن معه فأزالهم عن موضعهم، وقُتل ابن الأشتر، وقتل معه جماعة من الأمراء.

وكان عتاب بن ورقاء على خيل مصعب فهرب ولجأ إلى عبد الملك، وجعل مصعب ينهض أصحاب الرايات، ويحث الشجعان والأبطال أن يتقدموا إلى أمام القوم، فلا يتحرك أحد!

فجعل يقول: يا إبراهيم بن الأشتر، ولا إبراهيم لى اليوم، وتفاقم الأمر، واشتد القتال، وتخاذلت الرجال فى جيش مصعب، فقال عيسى ابن مصعب لأبيه:

لو اعتصمت ببعض القلاع، وكاتبت من بعد عنك مثل المهلب بن أبى صفرة وغيره فقدموا عليك، فإذا اجتمع لك ما تريد لقيت القوم، فإنك قد ضعفت جداً، فلم يرد عليه جواباً.

ثم ذكر ما جرى للحسين بن على، وكيف قُتل كريماً ولم يلق بيده، ولم يجد من أهل العراق وفاءً، وكذلك أبوه، وأخوه، ونحن ما وجدنا لهم وفاء.

ثم انهزم مصعب فى قتاله هزيمة بينة، وبقى فى قليلٍ من خواصه، ومال الجميع إلى عبد الملك، وقد كان بين مصعب وعبد الملك صحبة وخلة قبل الخلافة، فقال عبد الملك لأخيه محمد:

اذهب إليه فأمنه، فجاءه فقال له: يا مصعب، قد أمنّك ابن عمك على

---

(١) دير الجاثليق: دير قديم رحب الفناء من ناحية مَسْكن قرب بغداد فى غربى دجلة.

(٢) أوانا: بليدة صغيرة كثيرة البساتين، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

نفسك، وولدك، ومالك، وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أرادبك غير هذا لكان.

فقال مصعب: قُضى الأمر، إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً، ودارت رحى الحرب، وقُتل مصعب، وابنه عيسى، وغيرهما.

ووثب عبيد الله بن زياد الظبيانى على مصعب فاحتز رأسه، وذهب برأسه إلى عبد الملك، فسجد عبد الملك! وأعطى لقاتله الظبيانى ألف دينار، فأبى أن يقبلها وقال: لم أقتله على طاعتك، ولكن بثأر كان لى عنده، وكان قد ولى له عملاً قبل ذلك فعزله عنه وأهانه.

ولما وضع رأس مصعب بن الزبير بين يدى عبد الملك، بكى وقال:

والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حُبّى له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم، ولقد كانت المحبة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟!

ثم أمر بمواراته، وابنه، وابن الأشتر فى قبورٍ بمَسْكِن بالقرب من الكوفة، ودخل الكوفة، وأقام بالنخيلة أربعين يوماً، وخطب الناس فيهن، فوعد المحسن، وتوعد المسيىء، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه[1].

وبلغ عبد الله بن الزبير فى مكة خبر مقتل أخيه، فخطب الناس فأثنى عليه وترحم، ثم ذكر غدر أهل العراق ونفاقهم[2].

ولم يبق لابن الزبير ولاية على العراق، واتسع ملك عبد الملك ليشمل الشام، والعراق، ومصر، واستخلف عبد الملك على الكوفة أخاه بشر بن مروان.

ولم يبق أمام عبد الملك إلا التخلص من ابن الزبير ليخلو له الملك، ولا ينازعه أحدٌ فى خلافته.

---

(١) انظر: الأغانى (١٩/١٢٦)، أنساب الأشراف (٥/ ٣٤٠)، الكامل (٤/٣٢٨)، والبداية (٨/ ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٥)، السير (٤/ ١٤٣).

(٢) انظر: البداية (٨/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٦)، الكامل (٤/ ٣٣٥).

ثم جاءت سنة اثنتين وسبعين من الهجرة.

فيها: بعث عبد الملك جيشاً بقيادة الحجاج الثقفى لمحاصرة ابن الزبير فى مكة، فذهب وحاصره، وحج بالناس فى هذا العام الحجاج.

وفيها: خرجت الخوارج بالبحرين، وتغلبت عليها، وفى خوزستان فتصدى لهم المهلب بن أبى صفرة، وكانت بينه وبينهم وقع عظيمة.



الباب الرابع

مقتل عبد الله بن الزبير

ـ رضى الله عنه ـ

جاءت أحداث سنة ثلاث وستين: وابن الزبير محصور فى مكة، وذلك من ليلة هلال ذى الحجة، من سنة اثنتين وسبعين.

فلم يتمكن من الحج فى هذه السنة، بل نحر بُدناً يوم النحر، وأيضاً لم يتمكن كثيرٌ ممن معه من الحج فى هذه السنة مع إحرامهم بالحج!!

وهنا لابُدّ لنا أن نتعرف على هذا المانع لحجاج بيت الله، المحاصر لهم، إنه الحجاج الثقفى، المحقق لرغبات عبد الملك فى القضاء على مخالفيه، ولو بضرب الكعبة بالمنجنيق!!

وعن هذا الوالى الظلوم يلخص شأنه **مؤرخ الإسلام الذهبى فيقول:**

كان ظلوماً، جباراً، خبيثاً، سفاكاً للدماء، فحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله، لا نحبه، بل نبغضه فى الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان[1].

حاصر الحجاج ابن الزبير فى الكعبة، ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس، ورمى به الكعبة لأن ابن الزبير تحصن بالمسجد الحرام!!

ودام الحصار ثمانية أشهرٍ، وسبع عشرة ليلة، حتى كانت النهاية الدامية، مقتل ابن الزبير لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

وكان ابن الزبير فى حصار من ليوث الغاب، إذا أرادوا الدخول عليه من الأبواب قام فيهم قومة الأسد الغضوب.

يقول عروة بن الزبير: كان عبد الله بن الزبير يحمل عليهم حتى يخرجهم من الأبواب، ويرتجز ويقول:

---

(١) السير (٤/ ٣٤٣) بتصرف.

لو كان قرْني واحداً كفيته..

ولسنا على الأعقاب تدمى كلُومُنا ولكن على أقدامنا تقطرُ الدما[1]

ويحدثنا هشام بن عروة عما شاهده فيقول:

رأيتُ ابن الزبير يُرمى بالمنجنيق فلا يلتفتُ، ولا يرعُد صوته، وربما مرت الشظية منه قريباً من نحره[2].

وهذا ليس بغريبٍ من فارس قريشٍ فى زمانه، الذى شهد اليرموك وهو مُراهق، وحضر فتح المغرب والقسطنطينية، فهو الأسد الجسور ـ رضى الله عنه ـ، وأرضاه.

ويكفيه فضلاً أنه أول مولودٍ فى الإسلام، وابن حوارى رسول الله ﷺ، وجده الصديق، وأمه أسماء رضى الله عنهم أجمعين.

ويروى عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ فيقول: ـ

قال ابن الزبير لأهل مكة:

احفظوا هذين الجبلين، فإنكم لن تزالوا بخيرٍ أعزة ما لم يظهروا عليهما.

قال: فلم يلبثوا أن ظهر الحجاج ومن معه على أبى قُبيس، ونصب عليه المنجنيق، فكان يرمى به ابن الزبير ومن معه فى المسجد.

فلما كان الغداة التى قتل فيها ابن الزبير، ودخل ابن الزبير على أُمّه أسماء بنت أبى بكر، وهى يومئذ بنت مائة سنة، لم تسقط لها سنٌ، ولم يفسد لها بصرٌ.

فقالت لابنها: يا عبد الله، ما فعلت فى حربك؟

قال: بلغوا مكان كذا وكذا، قال: وضحك ابن الزبير وقال: إن فى الموت راحة!

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الحاكم (٣/٥٥٢)، وابن عساكر (ع/٤٦٦ ـ ٤٦٧) فى تاريخه، وابن عبد البر (٣/٩٠٨) فى الاستيعاب، وانظر: أسد الغابة (٣/١٦٣)، تاريخ الطبرى (٥/٣٤٦)، البداية (٨/ ٣٣١).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن عساكر (ع/٤٦٧).

قالت: يا بنى، لعلك تتمناه لى؟ ما أحب أن أموت حتى آتى على أحد طرفيك، إما أن تملك فتقر بذلك عينى، وإما أن تقتل فاحتسبك.

قال: ثم ودعها، فقالت له: يا بنى، إياك أن تعطى خصلة من دينك مخافة القتل.

وخرج عنها، فدخل المسجد، وقد جعل بيضة[1] على الحجر الأسود ينقى أن يصيبه المنجنيق، وأتى ابن الزبير آتٍ، وهو جالسٌ عند الحجر فقال له: آلا نفتح لك الكعبة فتصعد فيها؟ فنظر إليه عبد الله، ثم قال: كل شىءٍ تحفظ أخاك إلا من نفسه ـ يعنى من أجله ـ وهل للكعبة حرمة ليست لهذا المكان؟!!

والله لوجدوكم متعلقين بأستار الكعبة لقتلوكم. فقيل له: ألا تكلمهم فى الصلح؟ فقال: أو حين صلحٍ هذا؟!

والله لووجدوكم فى جوفها لذبحوكم جميعاً، ثم أنشا يقول:

ولست بمُبتاعِ الحـياة بسُبّةٍ ... ولا مُرتقٍ من خشية الموت سلما

أنافسُ سهماً إنه غير بارحٍ ... ملاقى المنايا أى صـرف تيمما

ثم أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول:

ليُكنَّ أحدكم سيفه كما يُكنّ وجهه، ولا ينكسر سيفه فيدفع عن نفسه بيده كأنه امرأة.

والله ما لقيتُ زحفاً قط إلا فى الرعيل الأول، وما ألمت جرحاً قط إلا أن يكون ألم الدواء.

قال: فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم نفرٌ من باب بنى جُمح فيهم أسْوَدُ، فقال: من هؤلاء؟

قيل: أهل حمص، فحمل عليهم ومعه شيبان، فأول من لقيه الأسود فضربه بسيفه حتى أطنّ رِجْلَه[2]، ثم أخرجهم من المسجد وانصرف، فإذا بقومٍ قد دخلوا من باب بنى سهم فقال: من هؤلاء؟

---

(١) بيضة: خوذة.

(٢) أطن: قطع بسرعة.

فقيل: أهل الأردن، فحمل عليهم وهو يقول:

لا عهد لى بغارةٍ مثل السيل لا ينجلى غبارها حتى الليل

قال: فأخرجهم من المسجد، فإذا بقومٍ قد دخلوا من باب بنى مخزوم، فحمل عليهم وهو يقول:

لو كان قِرْنى واحداً كفيته

قال: وظهر المسجد من أعوانه من يرمى عدوه بالآجر وغيره، فأصابته آجرة فى مفرقه حتى فلقت رأسه، فوقف قائماً وهو يقول:

ولسنا على الأعتاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

قال: ثم وقع، فأكب عليه موليان له، وهما يقولا:

العبد يحمى ربه ويحتمى

فقال: ثم سُيِّر إليه فحُزَّ رأسه[1].

حقاً سقط الرأس صريعاً، لكن بقى صاحبه رشيداً، وعدوه ظلوماً.

وما أروع كلمات الأم، وهى تستمع إلى ابن الزبير يقول لها:

إن هذا الرجل قد نزل بنا، وهو رجلٌ من ثقيفٍ، يسمى الحجاج، فى أربعين ألفاً من أهل الشام، وقد نالنا نبلهم ونشابهم، وقد أرسل يخيرنى بين ثلاثٍ:

بين أن أهرب فى الأرض، فأذهب حيث شئت، وبين أن أضع يدى فى يده فيبعث بى إلى الشام موقراً حديداً، وبين أن أقاتل حتى أقتل!

قالت: أى بُنىّ.. عش كريماً، ومت كريماً.

فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من ثقيف مبيراً وكذابا**»[2].

قال: فذهب فاستند إلى الكعبة حتى قتل[3].

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه ابن عساكر (ع/٤٧٦ ـ ٤٧٨) فى تاريخه، والطبرى (٦/١٩١ ـ ١٩٢) بنحوه من طريقٍ آخر، وأورده من هذا الطريق الذهبى (٦/٣١٠ ـ ٣١١) فى تاريخه، وأخرجه أبو نعيم (١/٣٣١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عساكر (ع/٤٨٢) فى تاريخه.

وهكذا قتلوا مبارز الشجعان، وحافظ القرآن، صاحب السيف الصارم، والرأى الحازم، الصائل بالحق، والقائل بالصدق.

يقول محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ :

لو رأيت ابن الزبير يصلى، كأنه غصٌ تصفقه الريح، وحجر المنجنيق يقع ههنا، وههنا ما يبالى[1].

وهكذا كانت النهاية الأليمة، وانتهكت حرمة الكعبة العظيمة، والبيت الحرام، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن شد بطش عبد الملك، وأتباعه كالحجاج صلبوا ابن الزبير مُنكساً كفعل من يريد تخويف العباد، وإبلاغ كل مَنْ تسول له نفسه بالتفكير فى الخروج والمخالفة لولى الأمر بالنهاية الأليمة.

وكل ذلك يبين أن الصراع كان على الدنيا من جانب عبد الملك وأتباعه، فلا شك فى أن البيعة قامت لابن الزبير أولاً فى عهد مروان فنازعه الأخير.

ولا شك أن ابن الزبير كان أحق بالخلافة، وأن قيامه بها إنما كان لله عز وجل، ولكنها السنة الكونية.

ولكن قد يقال: ليت ابن الزبير لا التجأ إلى البيت الحرام، ولا أحوج أولئك الظلمة، إلى انتهاك حرمة بيته وأمنه، ولكنها الفتنة.

ويمر ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ على ابن الزبير، وهو مصلوب، فيقول:

السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمتُ صواماً، قواماً، وصولاً للرحم، والله لأمَّةٌ أنت أشرُّها لأمة خير[2].

ثم نفذ[3] عبد الله بن عمر، فبلغ الحجاج موقفُ عبد الله وقوله، فأرسل

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو نعيم (١/ ٣٣٥) فى الحلية، وأورده الذهبى (٣/ ٣٦٩) فى السير.
(٢) حديثٌ صحيحٌ. أخرجه مسلم (٢٥٤٥)، وابن عساكر (تراجم النساء/ ٢٤) فى تاريخه.
(٣) نفذ: انصرف.

إليه، فأنزل عن جذعه، فألقى فى قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبى بكر، فأبت أن تأتيه.

فأعاد عليها الرسول، لتأتينِّى أو لأبعثن إليك من يسحبُك بقُرونك[1].

قال: فأبت، وقالت: والله، لا آتيك حتى تبعث إلىَّ من يسحبنى بقرونى.

قال: فقال: أرونى سِبتىَّ[2]، فأخذ نعليه، ثم انطلق يَتَوذَّفُ[3] حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتنى صنعتُ بعدو الله؟!

قالت: رأيتُك أفسدتَ عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغنى أنك تقول له: يا ابن ذات النطاقين[4] أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ، وطعام أبى بكر من الدواب،

وأما الآخر فنطاق المرأةِ التى لا تستغنى عنه، أما إن رسول الله ﷺ حدثنا: **«أن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا»**[5].

فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبيرُ[6] فلا إخالك[7] إلا إياه.

قال: فقام عنها ولم يُراجعها.

وفى روايةٍ أخرى: فخرج من عندها متغيرًا، يعنى متغيّر الوجه.

ومن هذا الموقف الثرى بالمشاعر **نستخلص عدة فوائد:**

منها: استحباب السلام على الميت فى قبره، وتكرير السلام ثلاثًا كما كرر ابن عمر.

---

(١) أى يجرك بضفائر شعرك.

(٢) سبتى: السبت هى النعل التى لا شعر عليها.

(٣) يتوذف: أى يسرع متبخترًا.

(٤) ذات النطاقين: النطاق أن تلبس المرأ ثوبها، ثم تشد وسطها بشىءٍ، وترفع وسط ثوبها، وترسله على الأسفل وتفعل ذلك عند معاناة الأشغال، لئلا تعثر فى ذيلها.

(٥) حديثٌ صحيحٌ. اخرجه مسلم (٢٥٤٥)، والترمذى (٣٩٤٤)، والبخارى فى تاريخه الكبير (٣٤٨/٤)، واحمد (٢٦/٢، ٨٧، ٩١)، وأبو نعيم (٥٧/٢) فى الحلية، والبيهقى (٤٨١/٦، ٤٨٢) فى دلائل النبوة، وابن عساكر (تراجم النساء/ ٢٤، ٢٥) فى تاريخه.

(٦) المبير: المهلك.

(٧) إخالك: أظنك.

ومنها: الثناء على الموتى بجميل صفاتهم المعروفة.

ومنها: فضيلة ومنقبة لابن عمر لقوله بالحق فى الملأ، وعدم اكتراثه بالحجاج، لأنه يعلم أنه يبلغه مقامه عليه، وقوله، وثناؤه عليه، فلم يمنعه ذلك أن يقول الحق، ويشهد لابن الزبير بما يعلمه فيه من الخير، وبطلان ما أشاع عنه الحجاج من قوله: أنه عدو الله، وظالم ونحوه، فأراد ابن عمر براءة ابن الزبير من ذلك الذى نسبه إليه الحجاج، وأعلم الناس بمحاسنه، وأنه ضد ما قاله الحجاج، ومذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلوما، وأن الحجاج ورفقته كانوا خوارج عليه.

ومن هذا الموقف اتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبى عبيد، وبالمبير الحجاج بن يوسف[1]

ولما صلب ابن الزبير دخل ابن عمر المسجد، وذلك حين قتل ابن الزبير، وهو مصلوبٌ مطروح، فقيل له: إن أسماء فى ناحية المسجد، فمال إليها، فقال:

إن هذه الجثث ليست بشيءٍ، وإنما الأرواح عند الله، فاتقى الله وعليك بالصبر.

فقالت: وما يمنعنى وقد أُهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍ من بغايا بنى إسرائيل[2]؟

أما ابن أبى مليكة ـ رحمه الله ـ فيدخل على أسماء (رضى الله عنها ـ بعدما ما أصيب ابن الزبير، فسمعها تقول:

بلغنى أن الرجل صلب عبد الله، اللهم لا تُمتنى حتى أوتى به فأحنطه، وأكفنه، فأتيت به بعد ذلك، قبل موتها فجعلت تحنطه بيديها، وتكفنه بعد ما ذهب بصرها[3].

ويقول ابن أبى مليكة: كنت أول من بشّر أسماء بالإذن بجنز[4] عبد الله بن

---

(١) نقلاً عن شرح النووى (١٦/ ١٠٠) على مسلم.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن عساكر (تراجم النساء/ ٢٧) فى تاريخه.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن عساكر (تراجم النساء/ ٢٧) فى تاريخه.

(٤) جنز: بجنز الشيء جنزًا أى يستره.

الزبير، ثم أدرجناه فى أكفانه، وصلت عليه، فما أتت عليها إلا جمعة حتى ماتت[1].

وبمقتل ابن الزبير - رضى الله عنه - استوسق الأمر[2] لعبد الملك بن مروان، واستعمل على الحرمين الحجاج بن يوسف، فنقض الكعبة التى من بناء ابن الزبير، وكانت تشعثت من المنجنيق، وانفلق الحجر الأسود من المنجنيق فشعبوه، وبناها الحجاج على بناء قريش، ولم ينقضها إلا من جهة الميزاب، وسدّ الباب الذى أحدثه ابن الزبير[3].

ومن أحداث سنة ثلاث وسبعين أيضًا: غزا محمد بن مروان بن الحكم قيسارية، وهزم الروم.

وفيها: سار عمر بن عبيد الله التيمى بأهل البصرة فى نحو عشرة آلاف لحرب الخوارج، وقائدهم أبى فُديك، فالتقوا، فكان على ميمنة أهل البصرة محمد بن موسى بن طلحة، وعلى الميسرة أخو عمر بن موسى، فانكسرت الميسرة، وأُثخن أميرها بالجراح، وأخذه الخوارج فأحرقوه، ثم حمل أهل البصرة على الخوارج حملة واحدة، وقُتل قائدهم، وحُصر الباقون فى حصن المُشقر[4]، ثم نزلوا على الحكم، فقتل عمر بن عبيد الله منهم نحو ستة آلاف، وأسر ثمانمائة[5].

وفيها: عزل عبد الملك بن مروان خالدًا عن البصرة، وأضافها إلى أخيه بشر ابن مروان[6].

وفيها: استعمل عبد الملك على خراسان بُكير بن وشاح[7].

وفى هذه السنة: حج بالناس الحجاج، وقد صار واليًا على الحرمين، واليمن، واليمامة. وهكذا نرى أنه فى تلك السنة تحققت رغبات عبد الملك، وصفت له الخلافة بنهاية خلافة ابن الزبير التى دامت تسع سنين.

وانتهت أحداث سنة ثلاث وسبعين، وجاءت سنة أربع وسبعين.

---

(1) خبر صحيح. أخرجه البخارى (1/156) فى تاريخه الصغير، وابن عساكر (ص/27).

(2) استوسق: اجتمع.

(3) انظر: تاريخ الإسلام (6/315).

(4) المشقر: حصن بين نجران والبحرين.

(5) انظر: تاريخ الإسلام (6/315).

(6) انظر: تاريخ الطبرى (6/194)، تاريخ الإسلام (6/315).

(7) انظر: تاريخ الطبرى (6/194)، تاريخ الإسلام (6/315).

أحداث سنة أربعٍ وسبعين

فى هذه السنة: سار الحجاج من مكةٍ إلى المدينة، فأقام بها ثلاثة أشهر يتعنت أهلها، وبنى بها مسجدًا فى بنى سلمة.

ومن عبثه وطيشه: استخف ببقايا الصحب الكرام فى المدينة النبوية، يريد أن يذلهم بذلك(١).

وفى هذه السنة: عزا محمد بن مروان أندرلية، وهى من قرى الجزيرة.

وفيها: وُلِّيَ المهلَّبُ بن أبى صفرة حرب الخوارج من قِبَل عبد الملك، وعزل بكير بن وشاح عن خراسان، وتولية أمية بن عبد الله عليها.

وكان على المدينة ومكة الحجاج، وعلى الكوفة والبصرة بشر بن مروان، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة.

وحج بالناس فى تلك السنة: الحجاج الثقفى(٢).

ثم جاءت سنة خمس وسبعين

أهم أحداث هذه السنة: خروج محمد بن مروان لغزو الروم فى الأعماق - بين حلب وأنطاكية - ووصول أبان بن الوليد، ودينار بن دينار، وهُزمت الروم.

وفيها: حج بالناس عبد الملك بن مروان، وخطب على منبر الرسول ﷺ، وعزل الحجاج عن المدينة، وولى عليها يحيى بن أبى العاص، وهو عمه(٣).



---

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/١٩٥)، تاريخ الإسلام (٦/٣١٨).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٦/١٩٥، ٢٠١)، تاريخ خليفة (ص/١٦٩).

(٣) انظر: تاريخ الطبرى (٦/٢٠٢)، تاريخ خليفة (ص/١٧٠)، تاريخ الإسلام (٦/٣١٩).

الحجاج وسطوته فى العراق

وفيها: ولَّى عبدُ الملك الحجاج على العراق، والبصرة، والكوفة، وما وراء ذلك من الأقاليم، وذلك بعد موت أخيه بشر بن مروان،

وكانت نظرة عبد الملك إلى تولية الحجاج على العراق، أنهم، قلما يتوقفون عن الخروج عن بنى أمية، ولذا فهم لا يصلحهم إلا صاحب السطوة والبطش، والقهر، وهذا كله يتوافر فى الحجاج.

فأتى الحجاج الكوفة حين أتاه كتاب عبد الملك بولاية العراق فى اثنى عشر راكبًا على النجائب.

وبالفعل بدأ الحجاج عهده فى العراق بالوعيد والتهديد، والزجر والتخويف.

فمما قال لهم: أما والله .. إنى لأحمل الشر محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإنى لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قِطافها، وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

يا أهل العراق...

إن أمير المؤمنين عبد الملك، نثر كنانته، ثم عجم[1] عيدانها، فوجدنى أَمَرَّها[2] عُودًا، وأصلبها مكسرًا، فوجهنى إليكم، فإنكم طالما أوضعتم فى الفتن، وسننتم سنن الغىّ.

أما والله لألحُوَنكم لَحْو العود، ولأعصبنكم عصب[3] السلَمة[4]، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[5]. أقسم بالله لتقبلُنّ على الإنصاف، ولتَدَعُنَّ الإرجاف، وكان وكان، وأخبرنى فلان عن فلان. لا يركبن الرجلُ منكم إلا وحده، ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم، ما جبى فىءٌ، ولا قُوتل عدو، ولعُطِّلت الثغور، ولولا أنهم يُغزون كرهًا ما غزوا طوعًا[6].

(١) عجم: أى عَضَّها. (٢) أمرها: أصلبها. (٣) العصب: القطع.

(٤) السلمة: شجر من العضاة. (٥) الإبل إذا وردت الماء ودخل فيها غريبة من غيرها ضربت وطردت.

(٦) خبرٌ لا بأس به. أخرجه الطبرى (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤)، وانظر: عيون الأخبار (٢/ ٢٤٣) لابن قتيبة.

فلما كان اليومُ الثالث سمع تكبيرًا فى السُّوق، فخرج حتى جلس على المنبر،

فقال: يا أهل العراق، وأهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إنى سمعتُ تكبيرًا ليس بالتكبير الذى يراد اللهُ به فى الترغيب، ولكنه التكبيرُ الذى يُراد به الترهيب،

وقد عرفتُ أنها عجاجةٌ تحتها قصف[1]، يا بنى اللَّكيعة[2]، وعبيد العصا، وأبناء الأيامى، ألا يربع رجلٌ منكم على ظَلْعة[3]، ويُحسن حقْن دمه، ويبصر موضع قدمه، فأقسم بالله لأوشك أن أوقعَ بكم وقعَةً تكون نكالا لما قبلها، وأدبًا لما بعدَهَا.

قال: فقام إليه عُمير بن ضابئ التميمى فقال: أصلح الله الأمير، أنا فى هذا البعث، وأنا شيخٌ كبيرٌ عليلٌ، وهذا ابنى، وهو أشبّ منى.

قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضبائى التميمى، قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟ قال: نعم، قال: ألستَ الذى غزا أمير المؤمنين عثمان؟!

قال: بلى، قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كان حبس أبى، وكان شيخًا كبيرًا.

قال: أوليس يقول:

هممت ولم أفعلْ وكِدْتُ وليتنى تركتُ على عثمان تبكى حلائلُهْ

إنى لأحسب فى قتلك صلاح المصرَيْن، قم إليه يا حرسىّ فاضرب عنقه، فقام إليه رجلٌ فضرب عنقه، وأنهب[4] ماله[5].

وأمر مناديًا فنادى فى الناس: ألا إن عُمير بن ضابئ تأخر بعد سماع النداء ثلاثًا، فأمرنا بقتله، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر، فعبر عليه فى ساعةٍ واحدةٍ أربعة آلاف من مذحج، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى

---

(١) تحتها قصف. شدة الريح.

(٢) اللكعاء: هى الحمقاء من الإماء.

(٣) الظلع: الضعف والوهن من شدة السير.

(٤) أنهب: جعله نهبًا لغيره.

(٥) خبرٌ لا بأس به. أخرجه الطبرى (٦/٢٠٦)، وتاريخ الإسلام (٦/٤٩٩).

المهلب، وأخذوا منه كتابًا بوصولهم إليه، فقال المهلب:

قدم العراق والله رجل ذَكَر، اليوم قوتل الروم[١].

وقد قاتل الحجاج الخوارج فى هذه السنة قتالاً شديدًا، خصوصًا فى البصرة.

وفى هذه السنة: ضرب عبدُ الملك الدنانير والدراهم، فهو أول من ضربها فى الإسلام، وضرب عليها اسم الله تعالى.

وسببه أنه وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بثلاثمائة سنة أو بأربعمائة سنة، مكتوب عليها: باسم الأب، والابن، وروح القدس.

وكانت الدراهم على ثلاثة أصناف: الوافية وزن الدرهم مثقال، والبغلية وزن الدرهم نصف مثقال، والزيادية وزن العشرة ستة مثاقيل[٢].



---

(١) انظر: البداية (٨/ ١١).

(٢) انظر: الأوائل للعسكرى (ص/ ١٧٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٦)، الكامل (٤/ ٤١٦)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٤٨) لابن تغرى.

الحجاج وقتاله الخوارج

أحداث سنة ست وسبعين

فى هذه السنة وما بعدها بدأت جولات رهيبة من القتال بين الحجاج الثقفى والخوارج.

ففيها: خرج صالح بن مُسَرّح التميمى، وكان من الزهاد والعُبَّاد، فى الموصل من أرض الجزيرة، وله أتباعٌ يُقرئهم، ويُفقههم ويقصُّ عليهم، ولكنه يحط على الخليفتين عثمان، وعلى - رضى الله عنهما - كعادة سائر الخوارج، ويتبرأ منهما، ويقول:

تيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، ولا تجزعوا من القتل فى الله، فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازلٌ بكم.

فأتاه كتاب شبيب بن يزيد من الكوفة فقال: أما بعد...

فإنك شيخ المسلمين، ولن نعدل بك أحدًا، وقد دعوتنى فاستجبتُ لك، وإن أردت تأخير ذلك أعلمتنى، فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمنُ أن تخترمنى المنيةُ ولم أجاهد الظالمين.

جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه.

فرد عليه الجواب يحضه على المجىء، فجمع شبيب قومه، وقدموا على صالح فى الجزيرة ثم وثبوا على خيلٍ لمحمد بن مروان فأخذوها، وقويت شوكتهم وأخافوا المسلمين.

وهنا وجه محمد بن مروان لحرب الخوارج عدى بن عدى فقاتلهم، فهزم عديًا، فنُدب لقتاله خالد بن جزء السلمى، والحارث العامرى، فاقتتلوا أشد قتال.

وهنا انحاز صالح وأتباعه إلى العراق، فوجه الحجاج لحربه عسكرًا، فاقتتلوا عند نهر جوخا، ثم مات ابن مسرح مثخنًا بالجراح، واستخلف شبيب بن يزيد من بعده، فالتقى شبيب هو وسورة بن الحُرّ، فانهزم سَوْرة بعد قتالٍ شديد.

ثم سار شبيب فلقى سعيد بن عمرو الكندى، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انصرف شبيب فأتى الكوفة، وقتل بها أبا سُلَيْم مولى عنبسة، وعدى بن عمرو، وأزهر العامرى، فوجه الحجاج لقتاله زائدة بن قدامة، فالتقوا أسفل الفرات، فهزمهم شبيب وقتل زائدة، ودخلت غزالة زوجة شبيب مسجد الكوفة، وقرأت وردها فى المسجد، وصعدت المنبر، وكانت قد نذرت ذلك!!

ثم خرج شبيب عن الكوفة، وحار الحجاج فى أمره، فوجَّه لقتاله عثمان بن قطن الحارثى فالتقوا فى آخر العام، فقُتل عثمان وانهزم جَمْعُهُ بعد أن قُتل يومئذ من أصحابه ستمائة نفس.

واستفحل أمر شبيب، وتزلزل له أركان عبد الملك بن مروان، ووقع الرعب فى أهل الشام، وحار الحجاج، فكان يقول: أعيانى شبيب[1].

وفى هذه السنة حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة، بعد أن ولاه عبد الملك إمارتها[2].



(١)،(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٧١ ـ ١٧٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٨ ـ ٢٢٣)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٨)، الكامل (٤/ ٣٩٣)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

ثم جاءت سنة سبع وسبعين

وفيها: سار شبيب بن يزيد، فنزل المدائن، فندب الحجاج لقتاله أهل الكوفة كلهم، عليهم زُهرة السعدى، شيخ كبير قد باشر الحروب.

وبعث إلى حربه عبدُ الملك من الشام سفيان بن الأبرد، وحبيبًا الحكمى فى ستة آلاف. وبعث الحجاجُ عتاب بن ورقاء الرياحى.

كل هؤلاء الجند اجتمعوا من أجل قتال شبيب الخارجى، ولنا أن نتصور ما سببه خروجه على خلافة عبد الملك من مشكلات، واضطرابات.

عرض شبيب جنده بالمدائن، فكانوا ألف رجلٍ، فقال: يا قوم، إن الله كان ينصركم، وأنتم مائة أو مائتان، فأنتم اليوم مئون.

ثم ركب، فأخذوا يتخلفون عنه ويتاخرون، فلما التقى الجمعان تكامل مع شبيب ستمائة فحمل فى مائتين على ميسرة الناس فانهزموا، واشتد القتال، وعتاب ابن ورقاء جالسٌ هو وزهرة السعدى فى قلب الجيش، فقال عتابٌ: هذا يوم كثير فيه العدد، وقلَّ فيه الغناء، والهفى على خمسمائةٍ من رجال تميم.

وتفرق عن عتاب عامة الجيش، وحمل عليه شبيب، فقاتل عتاب ساعة وقُتل، ووطئت الخيلُ زُهرة فهلك، فتوجع له شبيب لما رآه صريعًا، فقال له رجلٌ من قومه:

والله يا أمير المؤمنين إنك لمنذ الليلة لمتوجع لرجلٍ من الكافرين!

قال: إنك لست أعرف بضلالتهم منى، إنى أعرف من قديم أمرهم ما لا تعرف، لو ثبتوا عليه كانوا إخواننا.

ثم قال شبيب لأصحابه: ارفعوا عنهم السيف، ودعا الناس إلى طاعته، وبيعته، فبايعوه، ثم هربوا ليلاً.

هذا كله قبل أن يقدم جيش أهل الشام، فتوجه شبيب نحو الكوفة، وقد

دخلها عسكر الشام، فشدوا ظهر الحجاج وانتعش بهم، واستغنى بهم عن جند الكوفة الضعيف، وقال:

يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أراد بكم العز، الحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا.

كل ذلك سخرية بهم، وتحقيراً من شأنهم، مما زادهم بغضا فيه.

بدأ الحجاج فوجه الحارث بن معاوية الثقفى فى ألف فارسٍ، فالتقوا بزرارة - بلدة بالكوفة - فالتمس شبيب غفلتهم، وحمل عليهم وحمل شبيب على الحارث فقتله، وانهزم جنده ثم عبر شبيب الفرات، فنزل أرض السبخة، وبنى مسجداً بها، فلم يخرج إليه الحجاج ثلاثًا، ثم خرج اليوم الرابع، ووجه أبا الورد مولى بنى نصر فقتله شبيب، فوجه طهمان مولى عثمان فقتله شبيب، فخرج إليه الحجاج بنفسه، فأزال شبيبًا عن موضعه، واقتتلوا قتالاً شديدًا، وقتلت زوجة شبيب، وكانت تحارب معه.

فلما جن الليلُ عبر شبيبُ الفرات، وقطع الحجاج الجسر، وبعث حبيب بن عبد الرحمن الحكمى فى ثلاثة آلاف، فلقى شبيبًا بالأنباء، فقاتل الفريقان حتى حجز الليل بينهما، فسار شيبٌ حتى أتى الأهواز، وبها محمد بن موسى بن طلحة فتعرض لقتال شبيب، وسأل المبارزة، فخرج إليه شبيب فقتله.

ومضى شبيبٌ إلى كرمان فأقام نحواً من شهرين، ثم رجع إلى الأهواز فبعث الحجاج حبيب الحكمى وسفيان بن برد الكلبى فلقيهم شبيب على جسر دُجيل، فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم.

ثم غدا شبيب، فلما صار على الجسر قُطع الجسر، فنفر فرس شبيب، فسقط، وغرق، فأصبح الناس فاستخرجوه وعليه الدرع.

ومن بعده قام البطين، لكنه طلب الأمان، فأمنه سفيان، ثم قتله الحجاج بعد.

وفى هذه السنة أيضًا: حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان، وغزا الوليد بن عبد الملك أرض الروم فبلغ ما بين ملطية والمصيصة.

وفيها: خرجُ مُطرِّفٌ بن المغيرة بن شعبة على الحجاج، وخلع عبد الملك بن مروان من الخلافة، وحارب الحجاج إلى أن قُتل.

وفيها: عبر أُمية بن عبد الله نهر بلخ للغزو فحُوصر حتى جُهد هو وأصحابه، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا إلى مرو.

وفيها: أمر عبد العزيز بن مروان بجامع مصر، فوسع فيه من جهاته الأربع، وأمر ببناء حصن الإسكندرية، وكان مهدومًا منذ فتحها عمرو بن العاص.

وفيها: افتتح عبد الملك بن مروان هرقلة، وهى مدينة معروفة داخل بلاد الروم[1].



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٧١ ـ ١٧٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٦٢ ـ ٣١٨)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٠ ـ ٣٣٥)، الكامل (٤/ ٤٤٨)، البداية (٩/ ٢٠ ـ ٢٤)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

أحداث سنة ثمان وسبعين

في هذه السنة عزلُ عبد الملك بن مروان والى خراسان أمية بن عبد الله، وضم خراسان، وسجستان إلى الحجاج، فأمّر الحجاج على سجستان ابن أبى بكرة الثقفى.

وجعل الحجاج على خراسان المهلب بن أبى صفرة بعد قتله لكبار الخوارج كعبيدة بن هلال، وعبد ربه الكبير، رؤوس الخوارج.

وفيها: فرغ الحجاج من بناء مدينة واسط، وسُمّيت بذلك لأنها وسط ما بين الكوفة والبصرة، وغزا محرز بن أبى محرز أرض الروم وفتح أزقلة، وهو حصنٌ على سبع مراحل من القسطنطينية.

وفيها: ولى إمرة المغرب كله موسى بن نصير اللخمى، فسار إلى طنجة، وقدم على مقدّمته طارق بن زياد الصدفى الذى افتتح الأندلس.

وفيها: بعث الحجاج سعيد بن أسلم إلى مكران، فقتله محمد ومعاوية ابنا الحارث من بنى سامة بن لؤى.

وحج بالناس فى هذه السنة الوليد بن عبد الملك، ابن الخليفة، وكان أمير المدينة في هذه السنة أبان بن عثمان، والحجاج على الكوفة والبصرة، وخراسان، وسجستان، وكرمان، وخليفته بخراسان المهلب، وبسجستان ابن أبى بكرة، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس[1].



(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٣١٩، ٣٢١)، وتاريخ خليفة (ص/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، الكامل (٤/ ٤١٨)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

أحداث سنة تسعٍ وسبعين

في هذه السنة: استعمل الحجاج على البحرين محمد بن صعصعة الكلابي، وضم إليه عُمان، فخرج عليه الريّان النكرى، فهرب محمد، وركب البحر حتى قدم فارًا على الحجاج.

وفيها: ولّى الحجاجُ هارون بن ذراع النمري ثغر الهند، وأمره بطلب العلافيين، ابنى الحارث، وكان قد قتلا عامل الحجاج هناك، فظفر هارون بأحدهما فقتله، وفر الآخر هاربًا.

وفيها: غزا الوليد بن عبد الملك من ناحية ملطية فغنم وسبى، وغزا ابن الحكم أرض الروم، حتى وصل إلى مرج الشحم.

وفي هذه السنة: أصاب أهل الشام طاعونٌ جارف، حتى كادوا يفنون من شدته، وأصاب الروم أهل أنطاكية، وظفروا بهم.

وفيها: قتل الخليفة عبد الملك أحد مدعى النبوة، وهو الحارث بن عبد الرحمن الدمشقي، وكان انضم معه في دعواه الباطلة جمٌّ غفيرٌ من الغوغاء بسبب ما يريهم من الأعاجيب.

وفيها: غزا ابن أبي بكرة - رُتبيل - ملك الترك، فانتصر أولاً، ثم كر الترك، فقتل شريح بن هانئ، وقتل خلقٌ غفير معه، ثم وجه الحجاج ابن الأشعث في محاربته، فهزمه، وأقام في موضعه.

ثم مات ابن أبي بكرة، وكان عاملاً على سجستان، فكتب الحجاج عهد ابن الأشعث عليها، وجهز إليها جيشًا أنفق عليهم ألفي ألف سوى أعطياتهم، كان يُدعى جيش الطواويس، وأمره بالإقدام على رُتبيل.

وحج بالناس في هذه السنة: أبان بن عثمان والي المدينة، وكان على العراق والمشرق كله الحجاج بن يوسف، وعلى خراسان المهلب من قِبَل الحجاج، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة ابن أبي موسى، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس.

وفى هذه السنة: كان سيل الجُحاف بمكة، وهلك فيه خلق كثير من الحجاج، فكان يحمل الإبل، وعليها الأحمال والرجال والنساء ما لأحدٍ منهم حيلة، وغرقت بيوت مكة، وبلغ السيل الركن، فسُمّى ذلك عام الجحاف.

وفيها: خرج عبد الواحد بن أبى الكنود من الإسكندرية، وركب البحر، وغزا الفرنج حتى وصل إلى قبرص(١).

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

فيها: غزا موسى بن نُصير كعادته بلاد المغرب، فقتل وسبى فى أهل طُبنة، وغزا عبيد الله بن عبد الملك مدينة قاليقلا بأرمينية وفتحها.

وفيها: حج بالناس سليمان بن عبد الملك، وبدأت فتنة ابن الأشعث، فخلع عبد الملك من الخلافة، وخرج على الحجاج، ووقع له بسبب ذلك مع الحجاج حروب كثيرة(٢).

ثم جاءت سنة اثنتين وثمانين

وفى هذه السنة دارت الحروب بين الحجاج وابن الأشعث، وبدأت المعارك بينهما تتسع.

وولى الحجاجُ يزيد بن المهلب على خراسان بعد موت والده المهلب، وعزل عبد الملك والى المدينة.



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٧٥ - ١٧٦)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٢٥)، الكامل (٤/ ٤٥٣)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٤١ - ٣٤٣)، البداية (٩/ ٣٥ - ٣٨)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٥٧ - ٢٥٩).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٧٦، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣١)، البداية (٩/ ٣٨)، تاريخ الإسلام (٧/ ٥ - ٧).

العلماء وفتنة ابن الأشعث

من أهم الملامح المميزة لفتنة ابن الأشعث: دخول العلماء والقراء فيها، فقد أقبل ابن الأشعث في جمعٍ كبيرٍ من العلماء والصلحاء، والقراء لما انتهك الحجاج من إماتة وقت الصلاة، ولجوره وجبروته[1].

فمنهم: مسلم بن يسار المزنى، ومالك بن دينار، وسيار بن سلامة الرياحى وسعيد بن أبى الحسن، وأبو الجوزاء الربعى، والنضر بن أنس، وعقبة بن وشاح، وعقبة بن عبد الغفار، وعبد الله بن خالد الجهضمى، وسعيد بن جبير، وعمران بن عصام الضبعى، وطلحة بن مصرف، وابن أبى ليلى، والشعبى، وغيرهم[2].

وقال أيوب السختياني: قيل لابن الأشعث: إن أحببت أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة، فأخرج الحسن معك، فأخرجه[3].

ويقول حصين: رأيتُ ابن أبى ليلى يُحضِّض الناس ليالى الجماجم.

ولما أُتى الحجاج بالشعبى عاتبه، فقال الشعبى: أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستحلسنا الخوف، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء.

فقال له: لله أبوك[4]!

وهذا يبين فتنة الخروج على الأمراء، وعظم ما يحدث فيها من سفك الدماء.

ولقد كان موقف الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ من هذه الفتنة واضحًا جليًا، فقد قال: إن الحجاج عقوبةٌ سلطه الله عليكم، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف، ولكن استقبلوها بالدعاء والتضرع.

---

(١) انظر: السير (٤/ ١٨٣).

(٢) انظر. تاريخ خليفة (ص/ ١٨٠)، البداية (٩/ ٥٧).

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/ ١٨١) فى تاريخه، انظر: البداية (٩/ ٥٦).

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/ ١٨١).

ولما كانت فتنة ابن الأشعث دخل جماعةٌ على الحسن فقالوا: ما تقول في هذا الطاغية، الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل، وفعل، وذكروا من أفعاله.

فقال الحسن: لا تقاتلوه، فإنه إن يكن عقوبة من الله، فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

فخرجوا من عنده، وهم يقولون: نطيع هذا العلج؟! فخرجوا مع ابن الأشعث، فقتلوا جميعًا، وكان الحسن ينهى عن قتال الحجاج، ويأمر بالكف.

وسعيد بن أبي الحسن شقيقه يحض على قتاله، فقال سعيدٌ للحسن: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدًا، وأرادوا قتلنا، والله ما خلعنا أمير المؤمنين، ولا نريد خلعه، ولكننا نقمنا عليه استعماله الحجاج فليعزله عنا.

فلما فرغ من كلامه، قال الحسن: يا أيها الناس، والله ما سلط الله الحجاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع،

وإن ظني بأهل الشام، أن لو جاءوا تألفهم الحجاج بدنياه، ولم يحملهم على أمرٍ إلا ركبوه[1].



(١) انظر تهذيب ابن عساكر (٤/ ٨٠)، البداية (٩/ ١٥١) مختصرًا.

أحداث سنة ثلاث وثمانين

فى هذه السنة: ازدادت الحروب ضراوة، وقُتل جماعاتٌ من القراء، والعلماء كانوا مع ابن الأشعث فى موقعة دير الجماجم، والأهواز، والزاوية، ومَسْكن.

ومنهم من تتبعه الحجاج فضرب عنقه، ومنهم مَنْ أسر فضربت عنقه.

وفيها: كان غزو عطاء بن رافع صقلية، وضم عبد الملك إلى أخيه محمد بن مروان إمرة أذربيجان وأرمينية مع إمرة الجزيرة.

وفى هذه السنة: حج بالناس أمير المدينة هشام بن إسماعيل المخزومى.

وفيها: بعث الحجاجُ عمارة بن تميم إلى رتبيل فى أمر ابن الأشعث، فقُيد هو وجماعة فى الحديد، وساروا بهم إلى الحجاج، فلما كانوا بالرَّخج[1]، طرح ابن الأشعث نفسه من فوق بُنيان فهلك هو وقرينه، فقُطع رأسه، وحُمّل إلى الحجاج، فرأسه مدفون بمصر، وجثته بالرخج.

وذلك أن الحجاج بعث رأسه إلى عبد الملك، فبعث به عبد الملك إلى عبد العزيز بن مروان بمصر.

وفيها: غزا عبيد الله بن عبد الملك أرض الروم، فلقى الروم بسورية ولؤلؤة وهى من أحصن قلاع طرسوس[2].



---

(١) الرخج: مدين من نواحى كابل.

(٢) انظر: تاريخ خليفة(ص/١٨٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٧، ٣٨٤)، تاريخ الإسلام (٧/ ١٨، ١٩)، الكامل (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، البداية (٩/ ٥٢ _ ٥٧).

أحداث سنة أربع وثمانين

فى هذه السنة: افتتحت المصيصة على يد عبيد الله بن عبد الملك، ودرن من بلاد المغرب على يد موسى بن نصير، وغزا محمد بن مروان أرمينية فهزمهم، وحرق كنائسهم، وسُمِّيت هذه السنة: سنة الحريق.

وفيها: حج بالناس هشام بن إسماعيل والى المدينة، وكانت عمال الأمصار فى هذه السنة، هم عمالها فى السنة الماضية.

وفيها: فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس، وكتب إلى الحجاج يبشره بالفتح، فقال له: إنا لقينا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برءوس الجبال، وعراعر الأودية.

وفيها: قتل الحجاجُ الواعظ أيوب بن القرية، وكان من الفصحاء البلغاء، الأجواد، وكان قد خرج مع ابن الأشعث(1).

أحداث سنة خمس وثمانين

فيها: غزا محمد بن مروان أرمينية، فأقام بها سنة، وولى عليها عبد العزيز بن حاتم الباهلى، فبنى بها مدينة دبيل، ومدينة برذعة.

وفيها: عُزل يزيد بن المهلب عن خراسان، وولى المفضل بن المهلب يسيرًا، ثم عُزل ووُلّى قتيبة بن مسلم.

ومن أهم أحداث هذه السنة: كانت وفاة عبد العزيز بن مروان، أخو عبد الملك، والوالى على مصر فى شهر جمادى من تلك السنة،

---

(1) انظر: تاريخ خليفة (ص/١٨٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٨٥ ـ ٣٨٧)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٦)، تاريخ الإسلام (٧/ ٢٠ـ ٢١)، البداية (٩/ ٥٧).

وفاة عبد العزيز وبيعة ابني عبد الملك

كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء، كريمًا، جوادًا، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وكان يحب العلم والعلماء، واستقل بمُلْك مصر عشرين سنة، وزيادة.

ويروى ابن أبى مليكة أنه شاهد عبد العزيز عند الموت، وسمعه يقول:

يا ليتنى لم أكن شيئًا، يا ليتنى كهذا الماء الجارى.

وقيل: قال: هاتوا كفنى، أُفٍّ لكِ، ما أقصر طويلك، وأقل كثيرك[1].

وفى مدينة حلوان التى أنشأها كانت وفاته، وعند ذلك بايع عبد الملك لابنيه: الوليد، وسليمان، على أن يكون الملك للوليد أولاً، ثم من بعده لأخيه سليمان.

وكتب عبد الملك ببيعته لهما إلى البلدان، فبايع الناس، وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب، فيروى عمران الخزاعى، فيقول:

دُعِىَ سعيد بن المسيب للوليد وسليمان بعد أبيها فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار.

فقيل: ادخل واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدى بى أحدٌ من الناس.

قال: فجلده مائة، وألبسه المسوح[2].

وقال عبد الرحمن بن عبد القارِّىّ لسعيد بن المسيب حين قامت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة: إنى مشيرٌ عليك بخصالٍ، قال: ما هُنّ؟ قال: تعتزلُ مقامك، فإنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل، قال: ما كنتُ لأغيِّر مقامًا قُمتُه منذ أربعين سنة.

---

(١) انظر: السير (٤/ ٢٥٠).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو نعيم (٢/ ١٧٠) فى الحلية، وأورده الذهبى (٤/ ٢٣١) فى السير.

قال: تخرج معتمرًا، قال: ما كنتُ لأنفق مالى، وأُجهد بدنى فى شيء ليس لى فيه نية. قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع، قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما علىَّ؟ قال: وكان أعمى، قال رجاء: فدعاه هشام بن إسماعيل إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: مالك ولسعيد، ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأما إذ فعلت فاضربه به ثلاثين سوطًا، وألبسه تُبَّان شعرٍ، وأوقفه للناس لئلا يقتدى به الناس.

فدعاه هشامٌ فأبى وقال: لا أبايع لاثنين، فألبسه تبان شعر، وضربه ثلاثين سوطًا، وأوقفه للناس، فحدثنى الأيليّون الذين كانوا فى الشرط بالمدينة قالوا:

عِلمْنَا أنه لا يلبس التبان طائعًا، قلنا له: يا أبا محمد، إنه القتل، فاستر عورتك.

قال: فلبسه، فلما ضُرب تبين له أنا خدعناه، قال: يا معجلة أهل أيلة، لولا أنى ظننت أنه القتلُ ما لبسته[1].

وهكذا بالحيلة، والقهر، استطاع عبد الملك أن يوطد الملك من بعده لابنيه، ثم كان مرض عبد الملك بعد ذلك، ووفاته.



(١) خبرٌ حسنٌ أخرجه أبو نعيم (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١) فى الحيلة، وانظر: السير (٤/ ٢٣١)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤١٦ ـ ٤١٧).

وفاة عبد الملك بن مروان

جاءت سنة ست وثمانين: وقد نزل المرض بعبد الملك بن مروان، وفى يوم الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين بدمشق كانت وفاته.

فكانت ولايته منذ يوم بُويع إلى يوم تُوفِّى إحدى وعشرين سنة، وشهراً ونصفاً، وكان تسع سنين منها يقاتل فيها عبد الله بن الزبير، ويسلَّم عليه بالخلافة بالشام، ثم بالعراق بعد مقتل مصعب، وبقى بعد مقتل عبد الله بن الزبير، واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبعَ ليال.

وقد مات عبد الملك بن مروان، وله ستون سنة، وصلى عليه ابنه الوليد، ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره فلما فتحت سمع قصاراً بالوادى، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار(١).

فقال: ياليتنى كنت قصاراً، أعيش من عمل يدى، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله، قال: الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا، ولا نفر إليهم.

فلما حضره الموت جعل يندم، ويضرب بيده على رأسه، ويقول: وددتُ أنى اكتسبت قوتى يوماً بيوم، واشتغلت بعبادة ربى عز وجل وطاعته.

يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفى غرور(٢).

وكان له من الولد: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر ـ دَرَج(٣) ـ وعائشة، أمّهم: ولاّدة بنت العباس بن جزء.

ويزيد، ومروان، ومعاوية ـ درج ـ وأم كلثوم، وأمهم: عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وهشام ،وأمه: عائشة بنت هشام بن إسماعيل.

---

(١) القصار: المُحَوِّرُ للثياب، لأنه يدقها بالقصرة التى هى القطعة من الخشب، وحرفته القصارة.
(٢) انظر: البداية (٩/ ٧٤ ـ ٧٥).
(٣) درج: أى مات صغيراً.

وأبو بكر، واسمه بكار، وأمه: عائشة بنت موسى ين طلحة.

والحكم - درج - وأمه: أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان.

وفاطمة بنت عبد الملك، وأمها: أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد.

وعبد الله، ومسلمة، والمنذر، وعنبسة، ومحمد، وسعيد الخير، والحجاج، لأمهات أولاد.

وقال المدائنى: كان له زوجات أخر: شقراء بنت سلمة الطائى، وابنة لعلى بن أبى طالب، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر[1].

ولنا أن نتوقف مع جملة أهم الأعمال التى قام بها عبد الملك بن مروان فى خلافته، ومن الله العون والتيسير.



(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٠)، البداية (٩/ ٧٥).

أهم أعمال عبد الملك وأوائله

اتسعت دولة الإسلام فى عهد عبد الملك، وفتحت الكثير من البلدان، فأصبحت دولة الخلافة تشمل: مكة والمدينة، اليمن، والبصرة، والكوفة، وخراسان، وسجستان، وعمان، ومصر، والبحرين، وأفريقية، والجزيرة، وأرمينية، وأذربيجان، واليمامة، والصائفة، وفلسطين، وحمص، والأردن، والبلقاء.

وهذا يعنى أن انشغال عبد الملك بمخالفيه كابن الزبير وأخيه مصعب لم يمنعه من بسط رحى الجهاد، وفتح البلدان، وهذا يعد له فى صحيفته.

ومن أهم أعماله: ضرب الدنانير والدراهم، فانتفع الناس من ذلك، إذا جعلها رسمية فبعث بها إلى جميع ديار الإسلام، وتهدد من لا يتعامل بها.

وأمر بإبطال التعامل بالنقود الرومية، أو الفارسية، وقد كتب عبد الملك على الدنيار:

﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[1] وفى الوجه الآخر: «لا إله إلا الله».

وطوّقه بطوق فضة، وكتب فيه: «ضُرب بمدينة كذا» وكتب فى خارج الطوق: «**محمد رسول الله أرسلَه بالهدى ودين الحق**»[2].

وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله يقول:

أول من ضرب الدنانير عبد الملك، وكتب عليها القرآن[3].

ومن أهم أعماله: بناء قبة الصخرة فى الجامع الأقصى.

قال العسكرى: وأول خليفة بخل عبدُ الملك، وكان يسمى «رشح الحجارة» لبخله، ويكنى «أبا الذِّبَّان» لبخره، وهو أول من غدر فى الإسلام، وأول من نهى عن الكلام فى حضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف.

وعبد الملك أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من رفع يديه على المنبر[4].

تلك جملة موجزة لأهم أعماله، وأوائله، ونتوقف الآن مع القضاة والولاة فى ولاية عبد الملك بن مروان.

---

(١) سورة الإخلاص: ١. (٢) انظر: النقود القديمة (ص/ ٣٥) للمقريزى، تاريخ الإسلام (٦/ ١٤١).
(٣) الأوائل (ص/ ١٧٤) للعسكرى، وتاريخ الإسلام (٦/ ١٤١)، تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٤٥).
(٤) انظر: تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٤٦) للسيوطى.

قضاة الأقاليم فى ولاية عبد الملك

القضاء فى البصرة: ولى عبد الملك على القضاء فى البصرة خالد بن عبد الله ابن أسيد، وذلك سنة اثنتين وسبعين عند مقتل مصعب بن الزبير، فاستقضى خالدٌ على البصرة عبيد الله بن أبى بكرة.

فلم يزل ابن أبى بكرة قاضياً حتى قدم الحجاج بن يوسف فأقره، ثم ولى الحجاج من بعد ابن أبى بكر هشام بن هبيرة الليثى، ومن بعده ولى عبد الرحمن ابن أذينة العبدى.

القضاة فى الكوفة: بعد أن اجتمع الناس على عبد الملك بعد مقتل مصعب أعاد شريحاً، ثم قدم الحجاج إلى الكوفة، فأقره على القضاء، ثم استعفاه فأعفاه.

وولّى أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى، ثم استعفاه بعد الجماجم فأعفاه فاستقضى أبا بكر بن أبى موسى الأشعرى، فلم يزل قاضياً حتى مات.

ثم استقضى عامر بن شراحيل الشعبى.

المدينة: غلب عليها طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان حين قتل مصعب ابن الزبير، ودعا إلى عبد الملك، ثم ولاّها عبدُ الملك الحجاج بن يوسف سنة ثلاث وسبعين.

فاستقضى الحجاجُ عبد الله بن قيس بن مخرمة، فلم يزل قاضياً حتى شخص الحجاج إلى العراق، واستخلفه على المدينة.

ثم ولى عبد الملك عمه يحيى بن الحكم على المدينة سنة ست وسبعين، واستخلف أبان بن عثمان بن عفان فأقره عبد الملك.

فاستقضى أبان بن عثمان على المدينة نوفل بن مساحق العامرى فلم يزل قاضياً حتى عزل أبان سنة ثلاث وثمانين.

وولى عبد الملك المدينة هشام بن إسماعيل بن إبراهيم المخزومى، فاستقضى هشام بن إسماعيل المخزومى، فاستقضى هشام عمرو بن خلدة الزرقى حتى مات عبد الملك.

الشام: قاضى ديار الشام هو أبو إدريس الخولانى.

السند: ولى الحجاجُ على السند سعيد بن أسلم الكلابى، وذلك فى سنة ثمان وسبعين، فقتله محمد ومعاوية ابنا الحارث، وعند ذلك ولاها الحجاجُ مجاع بن سعر أحد بنى مُرَّة، وذلك فى سنة تسع وسبعين، فلما مات مجاع، فولاها الحجاج لمحمد بن هارون النميرى، سنة ثمانين، فلم يزل عليها تى مات عبد الملك ابن مروان.

بلدة البحرين: بعث عبد الملك بن مروان لولاية البحرين عمر بن عبيد الله، فقتل أبا فُديك، ثم من بعده تولاها أبى أسيد الثقفى، وذلك بعهدٍ من عبد الملك، ثم ولاها الحجاج بعد ذلك لسنان بن سلمة الهذلى فمات، فاستخلف ابنه موسى ابن سنان.

ثم ولاها الحجاج من بعد ذلك لسعيد بن حسان الأسيدى، ثم نُحى وولى عليها زياد بن الربيع الحارثى، ثم عُزل وذلك فى سنة تسع وسبعين.

ويبدو أن قدر هذه الولاية، أو تلك البلدة أن يتولاها الكثيرون، فولى عليها بعد ذلك محمد بن صعصعة الكلابى، والذى بدوره ولى عبد الملك بن عبد الله العوذى، فخرج عليه الريان النكرى، وهنا فر هارباً كل من ابن صعصعة، والعوذى فاضطر الحجاج إلى أن يولى يزيد بن أبى كبشة والذى استطاع قتل الريان النكرى وصلبه.

ثم رجع يزيد بن أبى كبشة بعد ذلك، فقام الحجاج بتولية قطن بن زياد الحارثى، فلم يزل عليها حتى مات الوليد بن عبد الملك.

عُمان: بعث إليها الحجاج موسى بن سنان، ثم غلب عليها سعيد، وسليمان ابنا عباد، فقام الحجاج بإرسال الطفيل بن حصين البهرانى فأخرجها، فكتب إليه الحجاج يأمره أن يستخلف ويرجع، فاستخلف حاجب بن شيبة فمات بها، فغلب عليها ابن عباد، فقام الحجاج بتوجيه مُجَّاع بن سعر، ثم صرفة عنها، وولى محمد بن صعصعة الكلابى، فقتله ابن عباد، فأرسل الحجاج على الفور سورة بن الحر، فقتل ابن عباد، وولاها الحجاج أخيراً لسعيد بن حسان الأسيدى.

ويلاحظ أن ابن صعصعة، وسعيد الأسيدى توليا على البحرين تارة، وعلى

عمان أخرى، وذلك للقرب بينهما من ناحيةٍ، ومن ناحية لقربهما من الحجاج.

فالحجاج لا يرسل إلا من يطمئن إلى ولائه، ويضمن التأييد لنفسه من قبله أولاً وآخراً.

مصر: ولاها عبد الملك لأخيه عبد العزيز بن مروان، فلما مات فى سنة أربع وثمانين، قام عبد الملك بتوليتها لابنه عبد الله، فلم يزال والياً عليها حتى مات والده، وذلك فى سنة ست وثمانين، ويلاحظ قلة مَنْ تولوا على مصر فى عهد عبد الملك لا ستقرار أخيه عليها.

أفريقية: فى البدء ولاها عبد الملك لحسان بن النعمان، وذلك فى سنة أربع وسبعين، فخرج منها عائداً سنة ثمان وسبعين، فاستخلف عليها سفيان بن مالك الفهمى، الذى قدم على عبد الملك فرده، ولكن عبد العزيز لم ينفذه وهو على مصر، وأنفذ موسى بن نصير الذى ظل عليها حتى مات عبد الملك.

الجزيرة: ولاها عبد الملك أخاه محمد بن مروان، فلم يزل عليها حتى مات عبد الملك، ومن بعده الوليد.

أرمينية وأذربيجان: ضمهما عبد الملك إلى محمد بن مروان فى سنة ثلاث وثمانين، فظل عليهما حتى مات عبد الملك، وعُزل فى سنة خمس وثمانين، واستخلف عليها عبد الله بن حاتم الباهلى الذى مات بعد قليلٍ، فولى محمد بن مروان عليها أخاه عبد العزيز بن حاتم.

اليمامة: تولى عليها يزيد بن هبيرة، ثم من بعده إبراهيم بن عربى الليثى، وذلك حتى مات عبد الملك بن مروان.

الصائفة: تولى عليها مالك بن عبيد الله الحنفى، ثم ولى عليها عبد الملك ابنه الوليد، ثم من بعده محمد بن مروان بن الحكم، ثم عمرو بن محرز الأشجعى.

فلسطين: ولى عبد الملك عليها ابنه عبد الله، وضم إليه أيضاً **حمص**.

الأردن: تولاها أبو عثمان بن مروان بن الحكم.

البلقاء: تولاهامحمد بن عمر الثقفى.

عمال عبد الملك على الوظائف

موسم الحج: فى سنة ثلاث وأربع وسبعين حج بالناس الحجاج الثقفى.

أما فى سنة خمس وسبعين قام عبد الملك بنفسه بالحج بالناس.

وأما سنة ست وسبع وسبعين فكان أبان بن عثمان، وفى سنة ثمان وسبعين كان الوليد بن عبد الملك.

وفى سنة تسعٍ وسبعين كان أبان بن عثمان مرة أخرى، وفى سنة ثمانين أيضاً.

وفى سنة إحدى وثمانين فكان سليمان بن عبد الملك.

وفى سنة اثنتين وثمانين كان أبان بن عثمان، وأما فى سنة ثلاث، وأربع، وخمس، وست فكان هشام بن إسماعيل المخزومى.

وظيفة الشرط: تولاها يزيد بن أبى كبشة السكسكى، ثم عزله وولّى رياح بن عبدة الغسانى، ثم عزله وولى عبد الله بن زيد الحكمى، ثم عزله وولى كعب بن حامد العبسى حتى مات عبد الملك.

كاتب الرسائل: هو أبو الزعيزعة مولى عبد الملك.

الخراج والجند: تولاهما سرجون بن منصور الرومى، فلما مات سرجون فولى سليمان بن سعد مولى خشين، وهو أول من ترجم ديوان الشام بالعربية.

الخاتم وبيوت الأموال: تولى ذلك قبيصة بن ذؤيب الخزاعى، ومن بعده عمر ابن الحارث.

الحاجب: تولى تلك الوظيفة أبو يوسف مولى عبد الملك.

الحرس: تولاها عدى بن عياش، ومن بعده أبو الزعيزعة، ثم الريان بن خالد، فلما مات الريان، تولى ابنه خالد بن الريان حتى مات عبد الملك.

ولاة عبد الملك فى الأقاليم

المدينة: لما قتل مصعب بن الزبير غلب طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ، ودعا إلى خلافة عبد الملك، فلما قتل عبد الله بن الزبير ولى عبد الملك الحجاج الثقفى مكة، والمدينة والطائف، وذلك فى سنة ثلاث وسبعين.

فكان الحجاج يستخلف على المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة، وذلك إذا قدم إلى مكة، ثم ولى عبد الملك الحجاج على العراق.

ثم ولى عبد الملك المدينة ليحيى بن الحكم، وذلك فى سنة خمس وسبعين، ثم ذهب يحيى إلى الشام، واستخلف أبان بن عثمان فأقره عبد الملك، ثم عزله فى سنة ثلاث وثمانين، وولى هشام بن إسماعيل فلم يزل والياً على المدينة حتى مات عبد الملك.

مكة: فى سنة خمس وسبعين خرج منها الحجاج ليتولى العراقين، واستخلف قيس بن مخرمة، فعزله عبد الملك، وولى نافع بن علقمة، فلم يزل عليها حتى توفى عبد الملك.

البصرة: ولاها عبد الملك بعد مقتل مصعب لخالد بن عبد الله الأسيدى، فقدمها فى سنة اثنتين وسبعين، ثم عزله، وضمها إلى بشر بن مروان، فقدمها فى ذى الحجة آخر سنة أربع وسبعين، فأقام شهراً، ثم مات.

ثم استخلف خالد الأسيدى، فعزله عبد الملك، وولى الحجاج فقدم العراق فى رجب من سنة خمس وسبعين.

فقام الحجاج بتولية الحكم بن أيوب الثقفى البصرة فى سنة خمس وسبعين، فلم يزل والياً عليها حتى أخرجه ابن الأشعث، وذلك فى أول سنة اثنتين وثمانين، فلحق الحكم بن أيوب بالحجاج، وولاها ابن الأشعث لعبد الله بن إسحاق بن الأشعث، ثم عزله وولى رجلاً من آل ابن مغفل.

فلما هُزم ابن الأشعث، ولاها الحجاج للحكم بن أيوب.

الكوفة: قام عبد الملك بتوليتها لقطن بن عبد الله الحارثى أشهراً بعد مقتل مصعب، ثم عزله وولى بشر بن مروان عليها، وضم إليه البصرة، فاستخلف بشر عليها عمرو بن حريث المخزومى.

فلما قدم الحجاج سنة خمس وسبعين ولاها لعروة بن المغيرة، ثم ولى ابن رويم الشيبانى، وعزله، ومن بعده البراء الثقفى وعزله أيضاً، فولى عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمى، فأخرجه مطر الرياحى، ودعا إلى ابن الأشعث.

ثم قدمها ابن الأشعث، وخرج إلى دير الجماجم، واستخلف عليها عبد الله بن إسحاق، فلما قدمها الحجاج بعد هزيمة ابن الأشعث فى الجماجم ولى على البصرة عمير بن هانىء من أهل دمشق ثم عزله، وولى المغيرة بن أبى عقيل الصلاة، وزيادة بن جرير علي الشرط حتى مات عبد الملك.

اليمن: ظل محمد بن يوسف والياً عليها حتى مات عبد الملك.

خراسان: لما مات مصعب، كتب عبد الملك لابن خازم والى خراسان بولايته عليها فأهان حامل المكتوب، ورده.

وهنا فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح الصريمى إن قتلته أو أخرجته من خراسان، فأنت الأمير، فقتل بكيرٌ ابن خازم، وأقام والياً حتى قد أمية بن عبد الله الأسيدى فعزله، وتولى عليها أمية، ثم عزله عبد الملك، وولى المهلب بن أبى صفرة، وذلك فى سنة تسع وسبعين، ثم مات المهلب فى سنة اثنتين وثمانين، واستخلف ابنه يزيد، فأقره عبد الملك، ثم ضم خراسان إلى الحجاج، فولاها الحجاج لقتيبة بن مسلم، فقدمها فى سنة ست وثمانين قبيل موت عبد الملك بن مروان.

سجستان: قام عبد الملك بتوليتها لعبد الله بن على، ثم عزله وضمها مع خراسان إلى أمية بن عبدالله الأسيدى، وذلك فى سنة ثلاث وسبعين، ثم ولاها أمية لابنه عبد الله نحواً من ثلاث سنين، فعزله عبد الملك وولى محمد بن موسى الطلحى، فقتله شبيب الحرورى بالأهواز قبل أن يصل إليها، وذلك فى سنة سبع

وسبعين.

ثم عُزل أمية، وضمت إلى الحجاج، فولاها لابن أبى بكرة سنة ثمان وسبعين، فلما مات فى سنة تسع وسبعين، استخلف ابنه أبا زرعة، ثم ولاها الحجاج لابن الأشعث سنة ثمانين، فخلع الحجاج وسار إلى العراق، واستخلف، وذلك فى آخر سنة إحدى وثمانين.

ثم ولّى الحجاجُ عمارة بن تميم اللخمى، ثم عزله وولى عبد الرحمن بن سليم، وذلك فى سنة أربع وثمانين.

ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: أن ولّ مسمع بن مالك سجستان، فولاه فلم يزل والياً عليها حتى مات، فولى ابن أخيه محمد بن شيبان، فقام الحجاج بعزله، وتولية الأشعث بن بشر الكلبى، ثم عزله وضمها إلى قتيبة بن مسلم.

وهنا قام قتيبة بإرسال أخيه عمرو بن مسلم، ثم قدمها قتيبة، ثم خرج منها، واستخلف عبد ربه الليثى، وذلك فى سنة ست وثمانين، وبعض سنة سبع وثمانين.

فلم يزل عبد ربه والياً على سجستان حتى عزله قتيبة سنة ثلاث وتسعين.

مصر: ظل عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك والياً على مصر من سنة ست وستين حتى كانت وفاته فى سنة خمس وثمانين.

عند ذلك قام عبد الملك بتوليته ابنه عبد الله بن عبد الملك بعد وفاة عبد العزيز، فلم يزل عليها حتى مات والده، وأقره أخوه الوليد بعد خلافته.

وتلك جملة الولاة الذين استخدمهم عبد الملك بن مروان فى خلافته، وينتهى عهد عبد الملك، ويبدأ عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان.



الباب الخامس

(٦) خلافة الوليد بن عبد الملك

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى، الدمشقى، يكنى أبا العباس.

كان الوليد هو أسن أبناء عبد الملك، وأكثرهم تدليلاً، ولذا كان لُحنة[(١)]، وحرص على النحو أشهراً، فما نفع.

عُرف بالترف، وكان طويلاً أسمر، بوجهه أثر الجدرى، ويعده أهل الشام من أفضل خلفائهم، وأكثرهم فتوحاً، ومن أعظم خلفاء بنى أمية نفقةً فى سبيل الله.

وكان مُغرمًا بالبناء والتشييد، والزخرفة كما فعل فى المسجد النبوى، وإنشائه لمسجد بنى أمية فى دمشق، وسيأتى الحديث عن ذلك بتفصيلٍ عند ذكر أهم أعماله. بُويع له بعهدٍ من أبيه قبل وفاته، وقد غزا أرض الروم فى خلافة أبيه أكثر من مرة، ولما دفن أباه، وانصرف عن قبره، دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فخطب فقال:

إنا لله وإنا إليه راجعون! والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا.

فكان أول من قام إليه ليبايعه عبد الله بن همام السلولى، فإنه قام، وهو يقول:

الله أعطاك التى لا فوقها ... وقد أراد الملحدون عَوْقها

عنك ويأبى الله إلا سَوْقَها ... إليك حتى قلدوك طوقها

فبايعه، ثم تتابع الناس من بعده على البيعة[(٢)].

---

(١) لحنة: هو من يلحن عند الكلام، فلا يراعى قواعد العربية من رفع ونصبٍ، وجر، قال أبو الزناد: كان الوليد لحاناً كأنى أسمعه على منبر النبى ﷺ يقول: يا أهلُ المدينة، انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٤٩٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٣)، البداية (٩/ ٧٧).

وفى هذه السنة: كان طاعون الفتيات، سُمّى بذلك لأنه بدأ فى النساء، وكان بالشام، وبواسط، والبصرة.

وفيها: قدم قتيبة بن مسلم إلى خراسان والياً عليها من قِبَل الحجاج، فدخل خراسان، وتلقاه دهاقنة بلخ، وساروا معه، وأتاه أهل صاغان بهدايا ومفتاح من ذهب، وسلموا بلادهم بالأمان.

وفى هذه السنة: غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم، وافتتح حصن بولق، وحصن الأخرم.

وحج بالناس فى هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومى، وكان الأمير على المشرق كله، والعراق كله الحجاج الثقفى، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم.

وانتهت سنة ست وثمانين، وجاءت سنة سبع وثمانين، ونتوقف الآن مع حصاد سنوات خلافة الوليد بن الملك.



حصاد خلافة الوليد بن عبد الملك

فى أول سنة من سنوات خلافة الوليد بن عبد الملك، وهى سنة سبعُ وثمانين، وفى أولها عزل الوليد بن عبد الملك والى المدينة هشام بن إسماعيل، وذلك فى ليلة الأحد لسبع ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول.

وفى نفس الوقت بعث الوليدُ والياً جديداً على المدينة، هو عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكان ابن خمس وعشرين سنة.

وفى هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم، ومعه يزيد بن جبير، فلقى الروم فى عددٍ كثيرٍ بسُوسنة من ناحية المصيصة، وافتتح قُمقم، وبحيرة الفرسان.

وفيها: غزا قتيبة بن مسلم بيكند[1] من بخارى، وأغزى موسى بن نصير ابنه عبد الله سردانية[2] من بلاد المغرب.

وفيها: شرع الوليد بن عبد الملك فى بناء جامع دمشق، وكتب إلى أمير المدينة ـ عمر بن عبد العزيز بتوسعة مسجد الرسول ﷺ.

وقد حج بالناس فى هذه السنة عمر بن عبد العزيز والى المدينة، وقاضيه بها أبو بكر بن عمرو بن حزم، وعلى العراق والمشرق بكماله الحجاج، ونائبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكمى، وقاضيه بها عبد الله بن أذينة، وعلى الكوفة زياد بن جرير، وقاضيه بها أبو بكر بن أبى موسى الأشعرى، ونائبه على خراسان قتيبة بن مسلم[3].

---

(١) بيكند: بلدة بين بخارى ونهر جيحون.

(٢) سردانية: جزيرة فى بحر المغرب كبيرة.

(٣) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٩٠، ١٩١)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٧ـ ٤٢٩)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٦ـ ٢٨)، البداية (٩/ ٨٨ـ ٩٠).

أحداث سنة ثمان وثمانين

فيها: غزا مسلمة بن عبد الملك ومعه العباس بن الوليد الروم، ففتح الله على المسلمين حصناً من أهم حصون الروم، يُدعى طُوانة، وذلك فى جمادى الآخرة.

وفيها: قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بإدخال حُجر أزواج النبى ﷺ فى مسجد رسول الله ﷺ، وأن يشترى ما فى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراعٍ فى مائتى ذراعٍ، ويقول له: قدّم القبلة إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك، فإنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم فمُر أهل المصر فليقوّموا له قيمة عدلٍ، ثم اهدم عليهم، وادفع إليهم الأثمان، فإن لك فى ذلك سلف صدقٍ، عمر وعثمان، وبالفعل جمع عمر القوم، وأقرأهم كتاب الوليد، فأجاب القوم إلى الثمن، فأعطاهم إياه، وأخذ فى هدم بيوت أزواج النبى ﷺ، وبناء المسجد، فلم يمكث إلا يسيراً حتى قدم العمال من دمشق، أرسلهم الوليد.

فأدخلت الحجرة النبوية فى المسجد، وبها القبر، وكان كل الخلفاء الذين يقومون بعمل توسعة فى المسجد يتجنبون ذلك، لنهيه ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد.

ولما حفروا الحائط الشرقى من حجرة عائشة بدت لهم قدمٌ، فخشوا أن تكون قدم النبى ﷺ حتى تحققوا أنهم قدم عمر رضى الله عنه.

وأنكر سعيد بن المسيب إدخال حجرة عائشة فى المسجد، كأنه خشى أن يتخذ القبر مسجداً.

وفيها: غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك، وانتصر المسلمون، وغزاً أيضاً مسلمة الروم فافتتح حصن قسطنطينية، وغزالة، وسبى، وغنم.

وفى هذه السنة كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز فى تسهيل الثنايا، وحفر الآبار فى البلدان، وحج بالناس عمر أيضاً.

وكانت العمال على الأمصار فى هذه السنة هم عمال السنة السابقة.

أحداث سنة تسع وثمانين

فى هذه السنة: افتتح عبد الله بن موسى بن نُصير جزيرتى ميورقة، ومنورقة، وهما جزيرتان فى البحر، بين جزيرة صقلية وجزيرة الأندلس، وتُسمى غزوة الأشراف، فإنه كان معه خلق من الأشراف.

وفيها: غزا قتيبة وردان خُذاه ملك البخارى، فلم يُطقهم، فرجع.

وفيها: أغزى موسى بن نصير ابنه مروان السُّوس الأقصى، فبلغ السبى أربعين ألفاً.

وفيها: غزا مسلمة بن عبد الملك عمورية، فلقى جمعاً من الروم، فهزمهم الله تعالى.

وفيها: غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان، وفتح حصوناً ومدائن كثيرة هنالك.

وفى هذه السنة حج بالناس عمر بن عبد العزيز، وولى خالد بن عبد الله القسرى مكة[1]، ثم جاءت سنة تسعين.



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٩٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٩)، الكامل (٤/ ٥٣٦)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٤ـ ٣٥)، البداية (٩/ ٨٤ـ ٨٥)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٧٧ـ ٢٧٨).

أحداث سنة تسعين من الهجرة

من أحداث تلك السنة: وصول قتيبة بن مسلم إلى وردان خُداه للمرة الثانية، فهزمهم الله تعالى، وغزا مسلمة بن عبد الملك سورية، ففتح الحصون الخمسة التى بها.

وفيها: غزا العباس بن الوليد بن عبد الملك مدينة الأرزن، ثم رجع.

وفى نفس السنة: عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر، وبعث عليها قُرة بن شريك، وذلك فى شهر ربيع الأول.

واستطاع محمد بن القاسم فى هذه السنة قتل ملك السند «داهر بن صصَّة» وكان ابن القاسم على جيشٍ أرسله الحجاج.

وفى هذه السنة: هرب يزيد بن المهلب وإخوته الذين كانوا معه فى السجن مع آخرين غيرهم، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج، والوليد ابن عبد الملك[1].

ثم جاءت أحداث سنة إحدى وتسعين

فى هذه السنة: عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان، وولاها أخاها مسلمة بن عبد الملك، فغزا مسلمة فى هذا العام إلى أن بلغ مدينة الباب من بحر أذربيجان، فافتتح مدائن وحصوناً.

وفيها: افتتح قتيبة أمير خراسان بلدة شومان، وكَسّ،ونسف من وراء نهر جيحون،وامتنع عليه أهالى بلدة فرياب من نواحى بلخ، فأحرقها.

وأقام الحج فى هذه السنة الوليد بن عبد الملك، فلما انتهى من موسم الحج، انصرف إلى المدينة، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه، فرحب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية، فأخلى له المسجد النبوى، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحدٌ أن يُخرجه، وإنما

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٩٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٥٤)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٥١) الكامل (٤/ ٥٥٣، ٥٥٤)، البداية (٩/ ٨٥- ٨٩)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٨٣- ٢٨٤).

عليه ثياب لا تساوى خمسة دراهم، فقالوا له: تنح عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادمٌ.

فقال: والله لا أخرج منه، فدخل الوليد المسجد، فجعل يدور فيه يصلى ههنا وههنا، ويدعو الله عز وجل.

قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال: من هذا؟ أهو سعيد بن المسيب؟!

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بأنك قادمٌ لقام إليك وسلم عليك، فقال: قد علمت بُغضه لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وشرعتُ أثنى عليه، وشرع الوليد يثنى عليه بالعلم والدين، فقلت:

يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر، وإنما قلت ذلك لأعتذر له، فقال: نحن أحق بالسعى إليه، فجاء فوقف عليه فسلم عليه، فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين، فقال الوليد: بخير والحمد لله وحده، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا فقيه الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين.

ثم خطب الوليد على منبر الرسول ﷺ، ثم انصرف، وأعطى عطايا كثيرة للناس، وكسا المسجد النبوى من كسوة الكعبة التى معه، وهى من الديباج الغليظ[1].



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ١٩٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٥٤)، تاريخ الإسلام (٦/ ١٥١) البداية (٩/ ٨٩، ٩٣)، الكامل (٤/ ٥٥٤)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٨٥، ٢٨٧).

وجاءت سنة اثنتين وتسعين:

وفيها: سار قتيبة بن مسلم إلى رُتيبل فصالحه، وسار طارق بن زياد من قِبَل موسى بن نصير فافتتح إقليم الأندلس.

وفى هذه السنة: فتح الله على المسلمين جُلّ بلاد الترك، ونواحيها.

وحج بالناس فى هذا العام عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكان عُمّال الأمصار فى هذه السنة عمالها فى السنة الماضية[1].

وجاءت سنة ثلاث وتسعين:

فى هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم، ففتح الله على يديه بلدة سمسطية، وافتتح مسلمة بن عبد الملك حصوناً كثيرة من بلاد الروم، منها: حصن الحديد، وماسة، وغيرها.

وفيها: غزا قتيبة بن مسلم عند منصرفه من خُوارزم سمرقند، فافتتحها.

وفى هذه السنة: عزل موسى بن نُصير والى الأندلس طارق بن زياد، وبعثه إلى مدينة طليطلة، وهكذا كان سوق الجهاد قائماً.

وفيها: تم عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة.

سبب عزل الوليد لعمر بن عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز الناصح الأمين كتب إلى الوليد بن عبد الملك يُخبره بعسف الحجاج بأهل العراق، وظلمه إياهم، واعتدائه عليهم، وجوره على مَنْ تحت يديه من الولاة على الأقاليم، بغير حقٍ ولا جناية.

فسمع بذلك الحجاج، وأضمر الشر لعمر، فكتب إلى الوليد قائلاً:

إنّ مَنْ قبلى من مُرّاق أهل العراق، وأهل الشقاق، قد جلوا العراق، ولجئو إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن.

وإن عمر ضعيفٌ عن إمرة المدينة ومكة، وهذا وهنٌ وضعفٌ فى الولاية،

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٦٨)، الكامل (٤/ ٥٦٩)، تاريخ الإسلام(٦/ ٢٥٤، ٢٥٦).

فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما.

فكتب الوليد إلى الحجاج: أن أشِرْ عليَّ برجلين، فكتب إليه يشير عليه بعثمان ابن حيّان، وخالد بن عبد الله، فولى خالداً مكة، وعثمان المدينة، وعزل عمر بن عبد العزيز.

فخرج عمر من المدينة فى شوال فنزل السويداء، وقدم عثمان بن حيان المدينة لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة.

وحج بالناس فى هذه السنة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك(1).

وهكذا كان الحجاج بدهائه ومكره كلما أنكر عليه أحدٌ، أو ذكر شأنه للخليفة يسارع إلى التخلص منه، لينال مآربه، وتطول أيام ولايته.

ثم جاءت أحداث سنة أربع وتسعين

فى هذه السنة: غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح أنطاكية، وافتتح القاسم بن محمد الثقفى أرض الهند، وغنم من الغنائم ما لا يوصف، ولا يحد.

وفيها: كانت الزلازل بالشام، هلك فيها العباد، وخربت البلاد، وهلك من الدواب ما لا يحصى، وكان عظم ذلك فى أنطاكية.

وفيها: غزا قتيبة الشاش، وفرغانة حتى بلغ خُجندة، وكاشان، وذلك بعد فراغه من الصغد، وفتح سمرقند، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها، حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها، وقد لقيه المشركون فى جموعٍ هائلة، فقاتلهم قتيبة عند خُجندة فظفر بهم، وأخذ البلاد منهم، وقتل منهم خلقاً، وأسر آخرين، وغنم أموالاً طائلة.

وفيها: افتتح مسلمة سندرة من أرض الروم.

وفيها: فتح الله على الإسلام والمسلمين فتوحات عظيمة فى خلافة الوليد بن عبد الملك، على أيدى أولاده، وأقربائه، وأمرائه، حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه.

---

(1) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٤٨٢)، البداية (٩/ ٩٨)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٩٠).

وقد سُمّيت هذه السنة بسنة الفقهاء،إذ أنه قد مات فيها عامة فقهاء أهل المدينة،كعليّ بن الحسين،وعروة بن الزبير،وابن المسيب،وأبى بكر بن عبدالرحمن

وحج بالناس فى هذه السنة عبد العزيز بن الوليد بن مسلمة، وكان الوالى فيها على مكة خالد بن عبد الله القسرى، وعلى المدينة عثمان بن حيان، وعلى الكوفة زياد بن جرير، وعلى البصرة الجراح بن عبد الله، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم، وعلى مصر قرة بن شريك. وكان العراق والمشرق كله تحت إمرة الحجاج[1].

وجاءت أحداث سنة خمس وتسعين

فيها: افتتح مسلمة مدينة الباب من أرمينية وخرّبها، وغزا قتيبة الشاش مرة ثانية، وغزا العباس بن الوليد بلاد الروم، ففتح الله على يديه ثلاثة حصون، وهى: طولس، والمرزبانين، وهرقلة.

وفيها: افتتح العباس بن الوليد قنسرين، وحج بالناس فى هذه السنة بشربن الوليد.

ومن أهم أحداث هذه السنة: مقتل ابن جبير على يد الحجاج شهيداً، ثم وفاة الحجاج عن قريبٍ، ولنا وقفة مع هذين الحدثين.

مقتل سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ

«سعيد بن جبير» تابعى «جليل» إمامٌ ثقةٌ، زاهدٌ فقيهٌ، وُلد فى خلافة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ ويكفى من فضله أنه مات، وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه.

كان ابن جبير فى جملة مَنْ خرج على الحجاج مع ابن الأشعث، ثم انحاز بعد مقتل ابن الأشعث إلى أصبهان فراراً من الحجاج، ثم كان يتردد فى كل سنة إلى مكة مرتين، للعمرة، وللحج، وخرج إلى أذربيجان مدة، واستمر فى هذا الحال مختفياً من الحجاج قريباً من ثنتى عشرة سنة.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص١٩٥)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٨٣)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٦٠)، الكامل (٤/ ٥٨٢)، البداية (٩/ ١٠٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢٩١).

ثم توجه إلى مكة مستجيراً بالله، وملتجئاً إلى حرم الله، فبعث به خالد القسرى والى مكة إلى الحجاج، وكان الحجاج قد كتب إلى الوليد أن جماعةً قد التجؤوا إلى مكة.

فكتب الوليد إلى خالد القسرى: احملهم إلى الحجاج، وكانوا خمسة: سعيد ابن جبير، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن دينار وطلق بن حبيب.

فأما عمرو وعطاء فأطلقا، وأما طلق فمات فى الطريق، وأما مجاهد فحبس حتى مات الحجاج، وأما سعيد بن جبير فقُتل ـ رحمه الله ـ:

يروى الربيع بن أبى صالح أنه دخل على سعيد بن جبير حين جىء به إلى الحجاج، فبكى رجلٌ من القوم، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك.

قال: فلا تبك، كان فى علم الله أن يكون هذا[1]، ثم قرأ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[2].

وقد ظن البعض فى بدء الأمر كونه لا يتعدى اللوم والعتاب، ولا يصل بأى حالٍ من الأحوال إلى القتل.

فيقول الفضل بن سويد: بعثنى الحجاج فى حاجةٍ فقيل لى: قد جىء بسعيد ابن جبير، فجئت لأنظر ما يصنع به، فقمت على رأس الحجاج، فقال له الحجاج:

يا سعيد، ألم أستعملك؟! ألم أشركك فى أمانتى؟! قال: بلى. قال: حتى ظننا أنه سيخلّى سبيله.

قال: فما حملك على أن خرجت علىَّ؟ قال: عُزِم علىَّ. قال: فطار الحجاج شقتين غضباً. قال: هيه! أفرأيت لعزيمة عدو الرحمن عليك حقاً، ولم تر لله، ولا لأمير المؤمنين عليك حقا؟!.

اضربا عنقه، فضربت عنقه.

قال: فندر[3] رأسه فى قلنسية بيضاء لاطية كانت على رأسه[4].

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٦/ ٢٦٤) فى طبقاته (٢) سورة الحديد: ٢٢.

(٣) ندر: سقط.

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٦/ ٢٦٥) فى طبقاته، وابو نعيم (٤/ ٢٩٠) فى الحلية، وأورده الذهبى (٤/ ٣٢٨)، وأخرجه الطبرى (٦/ ٤٨٩) فى تاريخه.

ويحدثنا سالم بن أبى حفصة أنه لما أُتى بسعيد بن جبير قال الحجاج:

أنت شقى بن كسير؟ قال: أنا سعيد بن جبير.

قال: لأقتلنك. قال: أنا إذاً كما سمتنى أمى، ثم قال:

دعونى أصلى ركعتين.

قال: وجهوه إلى قبلة النصارى. قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1].

ثم قال: إنى أستعيذ منك بما عاذت به مريم، قال: وما عاذت به مريم؟

قال: قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[2].

قال ابن عيينة: لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحداً[3].

ويقول ابن شوذب: لما أمر الحجاج بسعيد أن يقتل استقبل القبلة، فنادى الحجاج: اصرفوه، فصرف عن القبلة[4].

ولقد ظل الحجاج يعانى من فعلته الشنعاء طوال الأيام التى عاشها بعد مقتل ابن جبير، حتى كان يُغشى عليه، ثم يفيق قائلاً: مالى ولابن جبير؟!

قال هلال بن خباب: جيء بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال: أكتبت إلى مصعب بن الزبير؟.

قال: بل كتب إلىَّ مصعب. قال: والله: لأقتلنك.

قال: إنى إذاً لسعيد كما سمتنى أمى! قال: فقتله، فلم يلبث بعده إلا نحواً من أربعين يوماً، فكان إذا نام يراه فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول:

يا عدو الله، لِمَ قتلتنى؟ فيقول: مالى ولسعيد بن جبير! مالى ولسعيد بن جبير[5]! وهكذا قضى ابن جبير نحبه، وباء الحجاج بإثمه، وكان قتله فى شعبان سنة خمسٍ وتسعين.

---

(١) سورة البقرة: ١١٥. (٢) سورة مريم: ١٨.

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو نعيم(٤/ ٢٩٠) فى الحلية، وأورده الذهبى(٤/ ٣٢٨) فى السير.

(٤) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو نعيم (٤/ ٢٩٠).

(٥) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٦/ ٤٩١) فى تاريخه، تهذيب ابن عساكر (٤/ ٨٥).

نهاية الحجاج بن يوسف الثقفى

جاءت سنة خمس وتسعين، لتعلن نهاية أحد الأمراء الجبابرة، الذين ظلموا العباد، وأفسدوا فى البلاد، بدعوى توطيد الحكم.

بل وتطاول على الصحب الكرام، فمنهم من قدح فيه، ومنهم من ختم بعنقه!!

يقول عاصم ـ رحمه الله ـ: سمعت الحجاج، وذكر هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[1].

فقال: هذه لعبد الله، لأمين الله وخليفته، ليس فيها مثوبة، والله لو أمرت رجلاً يخرج من باب هذا المسجد فأخذ من غيره لحلّ لى دمه وماله.

والله لو أخذتُ ربيعة بُمضَر لكان لى حلالاً، يا عجباً من عبد هُذيل[2]! يزعم أنه يقرأ قرآناً من عند الله، ما هو إلا رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركت عبد هذيل لضربتُ عنقه[3].

يقول الذهبى: قاتل الله الحجاج، ما أجراه على الله، كيف يقول هذا فى العبد الصالح عبد الله بن مسعود؟! وهذا أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وسم فى يده «عتيق الحجاج»، وختم فى عنقه، يريد بذلك أن يذله وقد مضت له العزة بصحبة النبى ﷺ وخدمته.

يروى سماك الضبى فيقول:

أمر الحجاج أن تُوجأ عنق أنس، وقال: أتدرون من هذا؟ هذا خادم رسول الله ﷺ، فعلتُهُ به لأنه سيِّىء البلاء فى الفتنة الأولى، غاشّ الصدر فى الفتنة

---

(١) سورة التغابن: ١٦.

(٢) يقصد: عبد الله بن مسعود.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عساكر (٤/ ٧٢) كما فى تهذيب تاريخه، وعنه أورده الذهبى (٦/ ٣٢٠) فى تاريخ الإسلام.

الآخرة[1].

ويقول هشام بن حسان ـ رحمه الله ـ:

أحصوا ما قتل الحجاج صبراً، فبلغ مائة ألفٍ وعشرين ألفاً[2].

ورحم الله عمر بن عبد العزيز إذ يقول:

لو تخابثتِ الأممُ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة، ولى العراق، وهو أوفر ما يكون من العمارة، فأخسّ به حتى صيره أربعين ألف ألف، ولقد أدى إلىَّ فى عامى هذا ثمانون ألف ألف وزيادة[3].

وبسبب ظلمه وجبروته كان **إبراهيم النخعى** ـ رحمه الله ـ إذا ذكر الحجاج قال[4]:

﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[5].

وكان التابعى طاووس بن كيسان ـ رحمه الله ـ يقول:

عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً[6]!!

وكان **الشعبى** إمام التابعين يقول من شدة تذمره، وبغضه له:

أشهد أنه مؤمن بالطاغوت، كافر بالله[7].

وكان **إبراهيم النخعى** يقول: كفى بمن يشك فى أمر الحجاج لحاه الله[8].

إذن فنحن أمام شخصية قبيحة الأفعال، جريئة فى الإقدام على سفك الدماء،

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن عساكر (٤/ ٧٦)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٢).

(٢) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٨٣)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٣)، البداية (٩/ ١٥٢).

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٨٣)، تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٤)، البداية (٩/ ١٤٨، ١٥٢)، وأخرجه البيهقى (٦/ ٤٨٩) فى دلائل النبوة.

(٤) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن أبى شيبة (٩٦) فى الإيمان، وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٨٤).

(٥) سورة هود: ١٨.

(٦) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن أبى شيبة (٩٥)، البداية (٩/ ١٥٣).

(٧) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن أبى شيبة (٩٧)؛ تهذيب ابن عساكر (٤/ ٨٤)، البداية (٩/ ١٥٣).

(٨) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابن أبى شيبة (٩٨)، والبداية (٩/ ١٥٣) بنحوه.

وحصد الأرواح.

يقول **عاصم بن أبى النجود** ـ رحمه الله ـ:

ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج[1].

ويكفى من مثالبه: قتله لابن حوارى رسول الله ﷺ ابن الزبير، وضربه للكعبة بالمنجنيق، وقتله لابن جبير إمام التابعين، وأراد قتل الحسن البصرى مراراً، فاختفى عنه، مع أنه لم يخرج عليه، بل كان يذم الأمراء الظلمة مجملاً.

وله من طامات الأقوال، والأفعال ما الله به عليم.

ويلخص ذلك **العلامة ابن كثير**، فيقول: أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء هذيان، وكذب، وافتراء، وبعضها كفر وزندقة، فإن الحجاج كان عثمانياً أموياً، يميل إليهم ميلاً، ويرى أن خلافهم كفر، ويستحل بذلك الدماء، ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم.

وقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق، بما سلف لهم من الذنوب، والخروج على الأئمة، وخذلانهم لهم، وعصيانهم، ومخالفتهم.

وقد تقدم الحديث«إن فى ثقيف كذاباً ومبيراً» وكان المختار هو الكذاب المذكور فى هذا الحديث، وقد كان يظهر الرفض أولاً، ويبطن الكفر المحض.

وأما المبير، فهو الحجاج بن يوسف هذا، وقد كان ناصبياً يبغض علياً وشيعته فى هوى آل مروان وبنى أمية.

وكان جباراً عنيداً، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روى عنه ألفاظ بشعة، شنيعة ظاهرها الكفر.

وأعظم ما نقم عليه، وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل[2].

---

(١) خبرٌ حسن. أخرجه البيهقى (٦/ ٤٨٩) فى الدلائل وأورده ابن كثير(٩/١٤٨) فى البداية، وأعاده (٩/ ١٥٣).
(٢) انظر: البداية (٩/ ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨).

وبعد أيام قلائل من مقتل ابن جبير كان قدر الله فى الحجاج قد نفد، ولكن شتان بين مَنْ لقى ربه مؤمناً، ومَنْ لقيه فاسقاً أو كافراً.

يروى ابن طاوس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مراراً، فلما تحقق وفاته قال[1]:

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وسجد الحسن سجدة شكر لله، وكان مختفياً، فظهر وقال:

اللهم أمتَّه، وأذهب عنا سنته.

وبكى إبراهيم النخعى فرحاً بموته[3].

وهكذا تكون نهاية من تنكب عن قصد الحق، ونهج الصالحين، وأطاع المخلوق فى معصية الخالق، وأهراق الدماء، وهتك الأستار، وساس الناس سياسة متكبر جبار، فلا الدين أبقى، ولا الدنيا أدرك، أعز مُلك غيره، وأذل نفسه، وأعمر دارهم، وأخرب داره، فاليوم لا ينجونه، ولا يغيثونه من حساب ربه.

وكانت وفاة الحجاج فى شهر رمضان من سنة خمس وتسعين، وعاش خمسا وخمسين سنة، وكانت إمرته على العراق عشرين سنة.



(١) خبرٌ صحيحٌ. أورده ابن كثير (٩/ ١٥٥) فى البداية بسنده عن البيهقى (٦/ ٤٨٩) الذى أخرجه فى دلائل النبوة.

(٢) سورة الأنعام: ٤٥.

(٣) انظر: تهذيب ابن عساكر (٤/ ٨٥)، البداية (٩/ ١٥٥).

وفاة الوليد بن عبد الملك

جاءت سنة ست وتسعين، لينتهى فيها مُلك الوليد، ففى يوم السبت فى النصف من جُمادى الآخرة من سنة ست وتسعين كانت وفاة الوليد بن عبد الملك.

وكان الوليد قد عزم قبل مرضته التى مات فيها على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد، وأخذ البيعة لابنه من بعده، فإن الوليد وسليمان ولى عهد عبد الملك، فلما أفضى الأمر إلى الوليد، أراد أن يبايع لابنه عبد العزيز، ويخلع أخاه سليمان، فأمتنع عليه عمر بن عبد العزيز، وقال:

لسليمان بيعة فى أعناقنا. فلما أراد الوليد المسير إلى سليمان ليخلعه كان مرض الموت قد نزل به، فمات وله إحدى وخمسون سنة[1].

وكان فى الخلافة عشر سنين سوى أربعة أشهر، وصلى عليه الجنازة عمر بن عبد العزيز، لأن أخاه سليمان كان بالقدس.

وكانت وفاته بدير مُرّان، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير، وكان له من الولد تسعة عشر ولداً ذكراً، وهم عبد العزيز، ومحمد، والعباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومبشر، ومسرور، وأبو عبيدة، وصدقة، ومنصور، ومروان، وعنبسة، وعمرو، وروح، وبشر، ويزيد، ويحيى.

فأم عبد العزيز ومحمد، أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأم عبيدة فزارية، وسائرهم لأمهات شتى.

وللوليد من الأعمال، والفضائل ما يجدر ذكره، والتنبيه عليه، وهذا هو حديثنا فى الصفحات التالية، ومن الله تعالى العون والتيسير.

---

(١) هذا ترجيح خليفة بن خياط، ومن بعده الذهبى، وقيل غير ذلك، انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٥٠٠)، البداية(٩/ ١٨٥)، تاريخ الطبرى (٦/ ٤٩٥).

أهم أعمال الوليد بن عبد الملك

كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناءٍ، واتخاذ للمصانع والضياع، ومن أهم الأبنية التى شيدت فى مدة خلافته:

(١) بناء المسجد الأموى:

بدأ الوليد فى الشرع فى بناء المسجد الأموى فى ذى القعدة من سنة ست وثمانين، فلم يزل فى بنائه، وتحسينه مدة خلافته التى قاربت على عشر سنين.

وكان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها: كنيسة يوحنا، فلما فتحت الصحابة دمشق، جعلوها مناصفة، فأخذوا منها الجانب الشرقى، فحولوه مسجداً، وبقى الجانب الغربى كنيسة كما هو من سنة أربع عشرة للهجرة إلى سنة ست وسبعين.

فلما كان عهد الوليد عزم على أخذ بقية الكنيسة منهم، وعوضهم عنها، وهدم بقية الكنيسة، وأضافها إلى المسجد، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة لا يعرف لها مثيل فى الفن المعمارى.

ومات الوليد وهم بعد فى زخرفة بناء الجامع، وجمع الوليد لهذا البناء الحجَّارين، والمرخِّمين من الأقطار، حتى بلغوا فيما قيل أثنى عشر ألف مُرخِّم، وغرم عليها قناطير عديدة من الذهب، فقيل: إن النفقة عليه بلغت ستة آلاف ألف دينار، وذلك مائة قنطار وأربعة وأربعون قنطاراً، بالقنطار الدمشقى.

ومات الوليد، وبقيت بقية من البناء، فأتمها أخوه سليمان بن عبد الملك، ولم يزل المسجد على حسن صنعته، وروعته حتى وقع فيه حريق فى سنة ٤٦١هـ، فأذهب بعض بهجته.

(٢) المسجد الحرام:ـ

عمل الوليد فى زمن خلافته على توسعة المسجد الحرام، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل الرخام فى داخل المسجد، وهو أول من نقل الرخام إلى المسجد

الحرام، فقد أرسل من الشام الرخام الأبيض، والأخضر، والأحمر، فعرشت به الكعبة، وحليت بها جدرها من الداخل، وهو أول مَنْ حلى ميزاب الكعبة بالذهب.

وجعل على باب الكعبة وأساطينها وأركانها من الداخل صفائح الذهب.

(٣) المسجد النبوى:ـ

فى سنة ثمان وثمانين أمر الوليد عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بتوسعة المسجد النبوى، بأن يزاد فى جهاته الأربع، وأن يُعوض أصحاب المنازل المحيطة بالمسجد بالمال الكافى لهم، ثم يقوم بإدخال حُجر أزواج النبى ﷺ، مع المنازل المحيطة إلى مساحة المسجد النبوى.

فهدم عمر بن عبد العزيز المسجد، وزاد فيه ما كتب إليه به الوليد، وزينه بالفسيفساء - الحجارة الملونة - وحلاه بماء الذهب، ونقش رءوس الأساطين، والأعتاب بالذهب، وأقام بناء حول الحجرة النبوية جعله مخمساً، ولم يجعله مربعاً خشية أن يستقبله الناس كما كانوا يستقبلون الكعبة.

ولم يك للمسجد النبوى مآذن، فبنى له أربعاً فى كل ركنٍ واحدة، وصار بناء المسجد مائتى ذراعٍ فى مثلها، وقدم القبلة، وجعل عمد المسجد من الخراسانة ذات قطع الحديد والرصاص.

(٤) توسعة جامع عمرو:

ومن أهم الملامح المعمارية فى خلافة الوليد: توسعة مسجد عمرو بن العاص، أول مسجدٍ بُنى فى مصر بعد دخول الإسلام إليها.

ففى سنة اثنتين وتسعين أمر الوليد الوالى على مصر، وكان قُرة بن شريك الظلوم بأن يقوم بهدم جامع عمرو، والزيادة فيه من جهتيه القبلية والشرقية، فاشترى قرة بعض المنازل المحيطة بالمسجد، وزادها فى البناء، وأمر بعمل المحراب المجوف، وهو المعروف اليوم بمحراب عمرو، وزين المسجد، وأعمدته بماء الذهب.

وأقام قرة فى بنائه سنتين.

وهكذا كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، وكان صاحب بناء ومصانع وضياع، فكان الناس يلتقون فى زمانه، فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء.

(٥) ظهور علم الجهاد:

ومما يعد فى جلائل الأعمال، ومحاسن الوليد أنه أقام الجهاد فى أيامه؛ وندب الأمراء، وأعد الجيوش، ففتحت فى خلافته فتوحات عظيمة، وعز الإسلام والمسلمون أمام الكفر والكافرين.

فغزت جيوش الوليد ديار الروم، والترك، والهند، وبلاد الأندلس، وكان يرسل بنيه أمراء على بعض تلك الجيوش، فيعودون ظافرين.

وعاد الجهاد فى أيامه شبيهاً بأيام الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ زاهياً، وصارت كل شعوب الأرض تخشى من سطوة أهل الإسلام.

(٦) وفى عهد الوليد: كان يختن الأيتام، ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للزَّمْنَى[1] من يخدمهم، وللأضراء[2] من يقودهم، ورزق الفقهاء، وأعطى الضعفاء وحرم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم ما يكفيهم، وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم الأرزاق.

وكان ابن أبى عبلة يقول: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؟!.

افتتح الهند والأندلس، وبنى مسجد دمشق، وكان يعطينى قصاع الفضة أقسمها على قُراء بيت المقدس[3].

وليس معنى ذكر جُلّ تلك الأعمال، وهذه المحاسن أن خلافة الوليد خلت من المثالب والسلبيات، وهذا ما يقودنا بدوره إلى الوقوف أمام بعضها.

---

(١) الزمنى: أصحاب المرض الدائم الضعاف.

(٢) الأضراء: جمع ضرير، وهو مَنْ كُفّ بصره، والمقلب بالأعمى.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٤٩٨)، والبداية (٩/ ١٨١). تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٥٦).

مثالب في خلافة الوليد بن عبد الملك

لعل من أشهر المثالب، وأجلّ ما يذكر في باب المساوى هو أنه أقر الحجاج على العراق، ولم يغير أحداً من عماله، مع كثرة ظلم بعضهم، وجور البعض الآخر، وسفك بعضهم للدماء.

توليته للأشرار، ونزعه للأخيار، فعزله أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر في سنة تسعين، وولى قرة بن شريك، وكان سيىء التدبير، خبيثاً، ظلوماً، فاسقاً.

حتى أن الوليد نفسه وُصف في كتب السير والتراجم بأنه جبارٌ، ظالمٌ[1]، ولاشك أنه يتحمل تبعة في كل ما فعله الحجاج من قتل الأخيار العلماء.

ويحدثنا ابن شوذب أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قال:

الوليد بن عبد الملك بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز وقرة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جوراً[2].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد:

إن أظلم مني وأخون مَنْ ولى عبد ثقيف خُمس الخمس، يحكم في دمائهم وأموالهم، وأظلم مني وأجور مَنْ ولى عثمان بن حيان الحجاز، ينطق بأشعارٍ على منبر رسول الله ﷺ، وأظلم مني وأخون مَنْ ولى قرة بن شريك مصر أعرابي جلف جاف، أظهر فيها المعارف[3].

ومن مثالبه: تأخير الصلاة عن وقتها، وكان ذلك من دأب بني أمية حتى عرفوا بذلك، وكان سليمان هو أول من أحياها في وقتها.

يروى سعيد بن عامر الضبعي عن كثير الطفاوى أنه قال:

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٦/٤٩٩)، السير (٤/٣٤٨).

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو نعيم (٥/٣٠٩) في الحلية، وابن الجوزي (ص/٤٧) في مناقب عمرو وأورده السيوطي (ص/ ٣٥٥) في تاريخ الخلفاء.

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه أبو نعيم (٥/٣٠٩) في الحلية.

شهدتُ الوليد بن عبد الملك صلى الجمعة، والشمس على الشرف، ثم صلى العصر[1].

ويقول سعيد بن عبد العزيز: كانوا يؤخرون الصلاة فى أيام الوليد بن عبد الملك[2].

ويعلق مؤرخ الإسلام الذهبى على ذلك بقوله: وبنو أمية معروفون بتأخير الصلاة عن وقتها.

ومن مثالبه: كثرة نفقاته خصوصاً فى الضياع، والأسفار، وكثرة العطايا للشعراء والمداحين.

وبوفاة الوليد تنتهى صفحات خلافته، لتبدأ صفحات خلافة أخيه سليمان.



(١) خبرٌ صحيحٌ. انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٤٩٨).
(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو زرعة (٦٨١) فى تاريخه.

الولاة والعمال في خلافة الوليد

مكة المكرمة: مات عبد الملك بن مروان، وعليها نافع بن علقمة، فأقره الوليد سنتين، ثم عزله، وولى خالد بن عبد الله القسرى، وذلك فى سنة تسع وثمانين، فلم يزل والياً عليها حتى مات الوليد.

المدينة النبوية: مات عبد الملك وعليها هشام بن إسماعيل المخزومى، فأقره الوليد سنتين، ثم عزله وولى عمر بن عبد العزيز سنة سبع وثمانين فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين.

ثم عُزل واستخلف الوليد على المدينة أبا بكر بن حزم، ثم عزله وولاها عثمان بن حيان المرى، فلم يزل والياً حتى مات الوليد.

البصرة: تولاها الحكم بن أيوب فى خلافة الوليد، ثم عزله وولى طلحة بن سعيد الجهنى، ثم عزله وولى عمرو بن سعيد العوذى الدمشقى.

ثم عزله وولى مهاصر بن سحيم من أهل حمص، ثم عزله وولى قطن بن مدرك الكلابى، ثم عزله وولى الجراح الحكمى، فلم يزل والياً حتى مات الحجاج والوليد.

الكوفة: ـ تولاها عروة بن المغيرة الثقفى سنة خمس وتسعين، وزياد ابن جرير الشرط حتى مات الحجاج، فولاها يزيد بن أبى كبشة لحرملة ابن عمير اللخمى حتى مات الوليد.

خراسان: ـ تولاها قتيبة بن مسلم حتى مات الحجاج والوليد.

سجستان: ـ تولاها قتيبة، ثم ولاها لعبد ربه بن عبد الله الليثى، ثم عزله وولى النعمان بن عوف اليشكرى فى ولاية الوليد، حتى مات الحجاج والوليد.

البحرين: ولاها الحجاج قطن بن زياد الحارثى سنة تسع وسبعين، فلم يزل والياً حتى مات عبد الملك، والوليد، والحجاج.

عمان: ـ تولاها عبد الرحمن بن سليم الكلبى، ثم عبد الجبار المجاشعى من بعده حتى مات الحجاج.

السند: تولاها محمد بن القاسم بن أبى عقيل.

اليمامة: مات عبد الملك وعليها إبراهيم بن عربى، فأقره الوليد.

الجزيرة: أقرّ عليها حتى مات محمد بن مروان بن الحكم، مع أرمينية وأذربيجان.

مصر: مات عبد الملك وعليها ابنه عبد الله بن عبد الملك، فأقرة الوليد، ثم عزله، وولاها لقرة بن شريك العبسى.

أفريقية: مات عبد الملك، وعليها موسى بن نصير، فأقام سنتين، ثم رجع إلى الوليد سنة خمس وتسعين، واستخلف ابنه عبد الله بن موسى حتى مات الوليد.

اليمن: أقر الوليد عليها محمد بن يوسف، فظل حتى مات الوليد.

دمشق: تولاها عبد العزيز بن الوليد حتى مات الوليد.

الأردن: تولاها عمر بن الوليد حتى مات الوليد.

فلسطين: تولاها سليمان بن عبد الملك حتى مات الوليد.

حمص: تولاها العباس بن الوليد حتى مات الوليد.

وظيفة الشرط: تولاها رياح بن عبدة، ثم عزله وولى كعب بن حامد العبسى، حتى مات الوليد.

وظيفة الخراج والجند: تولاها سليمان بن سعد.

أما بيوت الأموال والخرائن: فتولاها عبد الله بن عمرو الحارثى، وتولى الحرس: خالد بن الريان، وكان حاجبه سعيد مولى الوليد.

ونطوى صفحة الوليد بن عبد الملك فى الحكم، لنستقبل صفحة سليمان بن عبد الملك فى الحكم.

الباب السادس

(٧) خلافة سليمان بن عبد الملك

بُويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، وكان ذلك فى يوم السبت للنصف من شهر جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين، ومولده سنة ستين.

وكان سليمان آنذاك بالرملة من أعمال الشام، وعُرف بالفصاحة والبلاغة على عكس حال أخيه الوليد، وكان مُؤثراً للعدل، مُحبًا للغزو، فجهز الجيوش مع أخيه مسلمة لحصار القسطنطينية، فحاصرها مدة حتى صالحوا على بناء جامع بالقسطنطينية.

وقد تسلم الخلافة فى أوج الشباب، وهو إلى الترفه ماهو، فقال لعمر بن عبد العزيز:

يا أبا حفص، إنا قد وُلِّينا ما قد ترى، ولم يكن لنا بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فُمْر به، فكان من ذلك أنه عزل عمال الحجاج، وأخرج من كان فى سجن العراق.

وأحيا الصلاة لأول مواقيتها، وكان بنوا أمية أماتوها بالتأخير، وورد كتابه إلى الأقاليم:

إن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها وردُّوها إلى وقتها[1].

وكان رقيق القلب، حج مرة، فرأى الناس بالموسم، فقال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذى لا يُحصى عددهم إلا الله، ولا يسعُ رزقهم غيره؟

قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيتك، وهم غداً خصماؤك.

فبكى سليمان بكاءً شديداً، ثم قال: بالله أستعين[2].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٦/ ٣٧٨)، السير (٥/ ١١٢)، تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٥٩).

(٢) خبرٌ صحيحٌ: أخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٨٨) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ٥٣) فى «مناقب عمر»، وأورده الذهبى (٦/ ٣٧٩) فى تاريخ الإسلام، و(٥/ ١١٢) فى السير من طريقٍ آخر.

وخرج سليمان بن عبد الملك مع عمر بن عبد العزيز، إذ ارتفعت سحابة، فجاءت برعدٍ وبرقٍ، وصواعق، ففزع القوم، وفزع سليمان، فنظر إلى عمر، فإذا هو يضحك.

فقال: ياعمر، أتضحك، وأنت تسمع ما تسمع؟!

فقال: يا أمير المؤمنين، هذه رحمة الله قد أفزعتك، فكيف لوجاءك عذابه ونقمته[1] ؟!

وكان ينهى عن الغناء، وعُرف بأنه أكولٌ، وذكر فى هذا الشأن الكثير من الأخبار جُلها لم تصح إسناداً.

وعُرف سليمان بتذكير الناس، ومداومته على خطبة الجمعة، فيقول يزيد بن حازم - رحمه الله -: كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة، لايدع أن يقول:

أيها الناس...

إنما أهل الدنيا على رحيلٍ، لم تمض بهم نية، ولم تطمئن لهم دار، حتى وعد الله وهم على ذلك.

لا يدوم نعيمها، ولاتؤمن فجائعها، ولايُتقى من شرأ أهلها، ثم يقرأ[2].

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ .مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[3].

وما أروع الكلمات التى افتتحت بها سليمان خلافته!

(١) خبرٌ صحيح: اخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٨٨) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ٥٢ - ٥٣).
(٢) خبرٌ صحيحٌ: اخرجه ابن أبى الدنيا (٢٧١) فى ذم الدنيا، وأورده الذهبى (٦/ ٣٧٩) فى تاريخ الإسلام، وابن كثير فى البداية والنهاية (٩/ ٢٠٠).
(٣) سورة الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧.

كان أول ما تكلم بعد توليه للخلافة أن قال :ـ

الحمد لله الذى ما شاء صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومن شاء أعطى،ومن شاء منع، إن الدنيا غرور، ومنزل باطل، وزينة تتقلب.

تُضحك باكياً، وتبكى ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتُؤمن خائفاً، وتُفقر مثريها[1]، وتثرى فقيرها، ميالة لاعبة بأهلها.

ياعباد الله.. اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخٌ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده.

اعلموا ـ عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس إدبار الليل إذا عسعس[2].

ولكن صفحات خلافة سليمان بن عبد الملك لم تطل، وحصاد سنواته لم تكثر، فقد مات بعد خلافته بثلاث سنين.

وفى الصفحات التالية نتوقف أمام حصاد سنوات خلافة سليمان بن عبد الملك، والله تعالى الهادى إلى الخير والصواب.

(١) الثرى: صاحب الغنى والمال العريض.

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا (٦٧) فى ذم الدنيا، وعنه نقله ابن كثير (٩/ ٢٠٠) فى البداية.

حصاد سنوات خلافة سليمان بن عبد الملك

تُوفى الوليد بن عبد الملك فى سنة ست وتسعين، وفيها بويع لأخيه سليمان بالخلافة.

وفى هذه السنة: عزل سليمان بن عبد الملك والى مكة خالد بن عبد الله القسرى، وولاّها طلحة بن داود الحضرمى.

وفيها: غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم، وفتح حصناً، يقال له: حصن عوف، وافتتح قتيبة مدينة كاشغر فى وسط بلاد الترك.

وفيها: قُتل قتيبة بن مسلم، وكان من كبار أمراء بنى أمية، أصحاب الحروب والفتوحات، وقد هدى الله على يديه خلقاً لايحصيهم إلا الله، وفتح من المدن والبلاد شيئاً كثيراً، ولكن حدثت فتنة بينه وبين الخليفة، فزل زلة كان فيها حتفه، فخلع الطاعة، وفارق الجماعة، فبادرت المنية إليه، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ماقد يكفر الله به سيئاته، ويضاعف حسناته(١).

وحج بالناس فى هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى، وكان هو الأمير على المدينة، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد، وعلى صلاة العراق يزيد بن المهلب، وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمن، وعلى البصرة سفيان بن عبد الله الكندى، وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبى موسى، وعلى حرب خراسان وكيع بن أبى الأسود.

وانتهت سنة ست وتسعين، وجاءت سنة سبع وتسعين.

---

(١) انظر قصة مقتل قتيبة فى: تاريخ الطبرى (٦/٥٠٦ - ٥٢٠)، البداية (٩/١٨٧ - ١٨٩)، الكامل (٥/١٢ - ١٧)، تاريخ خليفة (ص/ ٢٠٠).

أحداث سنة سبع وتسعين

فى هذه السنة: جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية، وغزا مسلمة بن عبد الملك حصن برجمة الرومى، وغزا يزيد بن المهلب جرجان، ولم تك يومئذ مدينة، إنما هى جبال محيطة بها.

وفيها: غزا عمر بن هبيرة الفزارى أرض الروم، وولَّى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب على خراسان.

وفى هذه السنة: حج بالناس سليمان بن عبد الملك، وكانت عمال الأمصار فى هذه السنة عمالها فى السنة التى قبلها إلا خراسان.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

وفى هذه السنة: تم حصار مسلمة بن عبد الملك للقسطنطينية، فحاصرها إلى أن ضيق عليهم الحصار، فعرض أهل القسطنطينية الجزية على مسلمة، فأبى إلا أن يفتحها عنوة.

ثم هلك ملك الروم، فأتى إليون الرومى وأخبر مسلمة بذلك، وقد أجابوك إلى فتحها، غير أنهم لا يفتحونها حتى تنتحى عنهم.

فقال مسلمة: إنى أخشى غدرك، فحلف له أن يدفع إليه مفاتيحها ومافيها، فلما تنحى عنهم أخذوا فى ترميم ماتهدم من أسوار المدينة، واستعدوا للحصار، وغدر إليون بالمسلمين.

وانتهى زاد المسلمين من الطعام، وهم فى حصار القسطنطينية، فلقى الجند ما لم يلق جيشٌ، حتى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكلوا أصول الشجر والأوراق، ودخل عليهم الشتاء، ولم يستطع سليمان أن يرسل إليهم المعونة حتى أتاهم خبر وفاة سليمان بن عبد الملك، وهم على أبواب القسطنطينية.

وفى هذه السنة: بايع سليمان بن عبد الملك لابنه أيوب بن سليمان، وجعله ولى عهده، وذلك بعد موت أخيه مروان بن عبد الملك، فعدل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولاية ولده أيوب، وتربص بأخيه الدوائر، فمات أيوب فى حياة أبيه، فبايع سليمان إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده، ونعم مافعل.

وفى هذه السنة: فُتحت مدينة الصقالبة، وحج بالناس فى هذه السنة عبد العزيز بن عبد الله وهو يومئذ أميرٌ على مكة.

وكان عمال الأمصار فى هذه السنة هم العمال الذين كانوا عليها سنة سبع، غير أن عامل يزيد بن المهلب على البصرة، هو سفيان بن عبد الله الكندى[1].



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٠١)، تاريخ الطبرى (٦/ ٥٣٠)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٢)، البداية (٩/ ١٩٥)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٦٨).

أحداث سنة تسع وتسعين

فى هذه السنة: أغارت الخزر على أرمينية وأذربيجان، وأمير تلك البلاد عبد العزيز بن حاتم الباهلى، فكانت موقعة هزم فيها الخزر، وقُتل أغلبهم.

وكانت وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك بدابق غازياً يوم الجمعة، عاشر صفر، وبايع الناس عمر بن عبد العزيز بالخلافة.

وفاة سليمان بن عبد الملك

توفى سليمان بن عبد الملك لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين، فكانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر.

يقول المفضل بن المهلب: دخلتُ على سليمان بن عبد الملك بدابق يوم جمعة، فقال: هل لك فى الجمعة؟ قلت: ذاك إليك يا أمير المؤمنين.

فدعا بثياب فلبسها فلم تعجبه، ثم دعا بثياب صُفرٍ فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر فيها، ثم نزعها، ثم دعا بثياب خُضرٍ سُوسية بعث بها يزيد بن المهلب فلبسها، واعتم، وقال: يا ابن المهلب، أعجبتك؟ قلت: نعم،، فحصر عن ذراعيه، ثم قال: أنا الملك الشاب، أنا الملك الشاب، ثم انطلق وانطلقت معه، فصعد المنبر، فبينما هو يخطب، إذ عرضت له سلعةٌ[1]، فنزل عن المنبر، وهو محمومٌ.

فما جاءت الجمعة الأخرى حتى دفن[2].

وكان قد أقسم ألا يبرح مرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، وكان آخر ما تكلم به أن قال:

أسألك منقلباً كريماً، ثم قضى.

---

(١) السلعة: هى غدةٌ تحدث فجأةو وتظهر بين الجلد واللحم، إذا غُمرت باليد تحركت.

(٢) خبر حسنٌ: أخرجه الخرائطى (٥٨٧) فى المساوىء بتحقيقى، وأورده ابن كثير (٩/ ٢٠٢) فى البداية، والسيوطى (ص/ ٣٥٩) فى تاريخ الخلفاء.

وأخرجه الطبرى (٦/ ٥٤٦، ٥٤٧) فى تاريخه من طريقٍ آخر.

وكانت وفاته بدابق من أرض قنسرين، وقد آلى على نفسه ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت، فمات هنالك، فحصل له بهذا العمل نية أجر المرابط فى سبيل الله.

وغُسل سليمان، وكفن، وصلى عليه عمر ابن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنه أتى بمراكب الخلافة.

وكان لسليمان من البنين: يزيد، وقاسم، وسعيد، ويحيى، وعبيد الله، وعبد الواحد، والحارث، وغيرهم.

فيرحم الله سليمان بن عبد الملك افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر ابن عبد العزيز.

وانتهت خلافة سليمان بن عبد الملك لتبدأ خلافة عمر بن عبد العزيز، أعدل خلفاء بنى أمية.



الولاة والعمال فى خلافة سليمان

مكة المكرمة: أقرّ سليمان عليها خالد بن عبد الله القسرى من بعد موت الوليد، ثم عزله وولى داود بن طلحة، ثم عزله وولى عبد العزيز بن عبد الله حتى مات سليمان.

المدينة النبوية: مات الوليد وعليها عثمان بن حيان المرى، فعزله سليمان وولى أبا بكر بن حزم، وذلك فى شهر رمضان من سنة ست وتسعين، فلم يزل والياً حتى مات سليمان.

البصرة: تولاها يزيد بن المهلب، وأناب عنه سفيان بن عمير الكندى، وعزل عنها وولاها يزيد الكلابى، ثم عزله سليمان وولى عليها مروان بن المهلب حتى مات سليمان.

الكوفة: مات الوليد بن عبد الملك وعليها حرملة بن عمير، فأقره يزيد بن المهلب أشهراً، ثم عزله سليمان وولّى بشر بن حسان المهرى، ثم عزله وولى سفيان بن حريش الخولانى، فلم يزل عليها حتى مات سليمان.

اليمن: تولاها عروة بن محمد السعدى، فلم يزل عليها والياً حتى مات سليمان.

البحرين: تولاها يزيد بن المهلب، وأناب عنه الأشعث بن عبد الله بن الجارود، فأخرجه منها مسعود العبدى، وذلك فى سنة ست وتسعين.

خراسان: مات الوليد وعليها قتيبة بن مسلم، فخلع سليمان، وخرج عليه فحدثت فتنة، وقتل قتيبة بن مسلم، وتولاها وكيع بن أبى الأسود، فعزله ابن المهلب، وولى ابنه مخلد بن يزيد، فلم يزل والياً عليها حتى مات سليمان.

سجستان: ولاها يزيد بن المهلب أخاه مدركاً ثم عزله، وولى ابنه معاوية بن يزيد حتى مات سليمان.

السند: أقام بها يزيد بن أبى كبشة أقل من شهرٍ، ثم مات واستخلف أخاه عبيد الله بن أبى كبشة، فعزله صالح بن عبد الرحمن، وولّى عمران بن النعمان الكلاعى، ثم جمع خراجها وحربها لحبيب بن المهلب.

أفريقية: أقر سليمان بن عبد الملك عليها عبد الله بن موسى بن نصير، ثم عزله فى سنة سبع وتسعين وولى محمد بن يزيد مولى آل العاص.

عمان: تولاها صالح بن عبد الرحمن، وأناب عنه عبد الرحمن بن قيس الليثى، ثم ولاها يزيد بن المهلب أخاه زياد بن المهلب.

اليمامة: ولاها سليمان لسفيان بن عمرو العقيلى، ثم عزله وولى نوح بن هبيرة.

أرمينية: تولاها عبد العزيز بن حاتم بن النعمان.

وظيفة الشرط: تولاها كعب بن حامد العبسى.

وظيفة كاتب الرسائل: تولاها ليث بن أبى رقية.

وظيفة الخراج والجند: تولاها سليمان بن سعد مولى خشين، وتولى الخاتم نعيم بن أبى سلامة مولى لأهل اليمن.

وظيفة بيوت المال: تولاها عبد الله بن عمرو الحارثى كما كان فى خلافة الوليد، وتولى الحرس خالد بن الريان، وكان حاجبه هو أبو عبيد مولاه.

ونطوى صفحة سليمان بن عبد الملك فى الحكم، لنستقبل صفحة عمر بن عبد العزيز.



الباب السابع

(٨) خلافة عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، الخليفة الراشد الزاهد.

وُلد سنة ثلاث وستين، وولى إمرة المدينة فى خلافة الوليد من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين.

وفى سنة تسع وتسعين كان توليه للخلافة بعهدٍ من سليمان بن عبد الملك، وعن ذلك يحدثنا رجاء بن حيوة فيقول:

لما ثَقُلَ سليمان بن عبد الملك دخلت عليه، فقال لى: من ترى لهذا الأمر؟ فقلت: اتق الله، فإنك قادمٌ على الله، وسائلك عن هذا الأمر، وما صنعت فيه؟

قال: فمن ترى؟ قلت: عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوَّف بنى عبد الملك!

قال: ولِّ عمر، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، قال: أصبت، جئنى بصحيفة، فأتيته بصحيفة، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إنى قد وليتك الخلافة من بعدى، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم.

وختم الكتاب

وأرسل إلى كعب بن حامد صاحب شرطته، فقال: مُرْ أهل بيتى فليجتمعوا، فأرسل كعب إليهم: أن يجتمعوا فاجتمعوا، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم:

اذهب بكتابى هذا إليهم، فأخبرهم أن هذا كتابى، وامُرهم فليبايعوا من وليت فيه، ففعل رجاء، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا:

ندخل فنسلم على أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فدخلوا، فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب وهو يشير لهم إليه، وهم ينظرون إليه فى يد رجاء بن حيوة - عهدى، فاسمعوا، وأطيعوا، وبايعوا لمن سمّيت فى هذا الكتاب، فبايعوه رجلاً رجلاً، ثم خرج بالكتاب مختوماً فى يد رجاء بن حيوة.

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكون هذا أسند إلىَّ شيئاً من هذا الأمر، فأنشدك الله إلا أعلمتنى إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتى حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة.

قال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً. قال: فذهب عمر غضبان.

قال رجاء: لقينى هشام بن عبد الملك فقال: يارجاء، إن لى بك حرمة ومودة قديمة، فاعلمنى هذا الأمر، فإن كان إلىَّ علمتُ، وإن كان إلى غيرى تكلمتُ، فليس مثلى قصر بى، فأعلمنى فلك الله علىَّ ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً.

قال رجاء: فأبيت، فقلت: والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أُسرَّ إلىَّ، فانصرف هشام وهو قد يئس، ويضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول: فإلى من إذاً نُحيِّتْ عنى؟! أتخرج من بنى عبد الملك؟!

قال رجاء: ودخلتُ على سليمان فإذا هو يموت، فجعلتُ إذا أخذتُ السكرة من سكرات الموت حرّفتُه إلى القبلة، فجعل يقول حين يُفيق: لم يأن لذلك بعدُ يارجاء، ففعلتُ ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يارجاء إن كنت تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال: فحرفته ومات، فلما غمضته سجيته بقطيفة خضراء، وأغلقتُ الباب، وأرسلت إلىَّ زوجتُه تقول : كيف أصبح؟ فقلت: نائم، وقد تغطى، فنظر

الرسول إليه مغطى بالقطيفة، فرجع فأخبرها فقبلت ذلك، وظنت أنه نائمٌ.

قال رجاء: وأجلستُ على الباب من أثق به، وأوصيته ألا يبرح حتى آتيه، ولايدخل على الخليفة أحد، وخرجت فأرسلت إلى كعب بن حامد العبسى، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا فى مسجد دابق، فقلت: بايعوا، فقالوا: قد بايعنا مرة، ونبايع أخرى!

قلت: هذا عهد أمير المؤمنين، فبايعوا على ما أمر به، ومَنْ سمّى فى هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً.

قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيتُ أنى قد أحكمت الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون! وقرأت الكتاب عليهم، فلما انتهت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز، نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً.

وتغيرت وجوه بنى عبد الملك، فلما قرأت «بعده يزيد» فكأنهم تراجعوا، فقالوا: أين عمر؟ فطلبوه فإذا هو فى المسجد فأتوا فسلموا عليه بالخلافة، فعُقر به فلم يستطع النهوض، حتى أخذتُ بضبعيه فأجلسته على المنبر، فجلس طويلاً لا يتكلم، فلما رآهم رجاء جالسين، قال: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعونه، فنهضوا إليه فبايعوه رجلاً رجلاً، ومد يده إليهم، فصعد إليه هشام، فلما مد يده إليه قال: يقول هشام: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: إنا لله حين صار يلى هذا الأمر أنا وأنت، ثم قام فحمد الله، ثم قال:

> أيها الناس.. إنى لستُ بقاضٍ، ولكنى منفِّذٌ، ولستُ بمبتدعٍ ولكنى مُتبعٌ، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن أبوا فلستُ لكم بوالٍ.

ثم نزل يمشى، فأتى بمراكب الخلافة: البراذين والخليل والبغال، ولكل دابة سائس، فقال: ماهذا؟!
قالوا: مراكب الخلافة.

قال: لا، ائتونى بدابتى، دابتى أوفق لى، وركب دابته، وصرفت تلك الدواب(١).

وهكذا أصبح عمر بن عبد العزيز فى عداد خلفاء بنى أمية، ولنا وقفة مع ملامح شخصيته.



(١) خبرٌ صحيحٌ بطرقه: أخرجه ابن سعد (٥/ ٣٣٥) فى طبقاته، وعن طريقه الطبرى (٦/ ٥٥٠) فى تاريخه، من طريق الواقدى، وأخرجه ابن سعد (٥/ ٣٣٩)، والمدائنى كما فى السير (٥/ ١٢٣) من طريق آخر حسن، وأورده الذهبى (٧/ ١٩٢) فى تاريخه، وابن الجوزى (ص/ ٦٣) فى «مناقب عمر».
وأخرجه ابن أبى خيثمة كما فى «مناقب عمر» (ص/ ٦٣ ـ ٦٤) لابن الجوزى، والذهبى (٧/ ١٩٢) فى تاريخ الإسلام، وأخرجه ابن سعد (٥/ ٣٤٠) مختصراً من طريقٍ رابع.

ملامح شخصية عمر بن عبد العزيز فى الخلافة

سار عمر بن عبد العزيز فى سنوات خلافته بسيرة الخلفاء الراشدين من الزهد والكفاف فى حياته الدنيوية من مأكلٍ ومشربٍ، وملبسٍ ومركب، وأنصف رعيته، وكان عادلاً.

فسارت الحياة الإسلامية فى عهده آمنة مطمئنة، يسودها العدل والإنصاف.

وتبدأ ملامح شخصية عمر فى الخلافة برد المظالم إلى أهلها، وأخذ الحقوق ممن اغتصبها.

فيروى لنا مغيرة بن مقسم: ـ رحمه الله ـ أن عمر بن عبد العزيز جمع بنى مروان حين استخلف فقال: إن رسول الله ﷺ كانت له[1] فَدَك يُنفق منها، ويعود منها على صغير بنيهم، ويزوج منها أيِّمهُم، وإن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ سألت أن يجعلها لها، فأبى.

فكانت كذلك حياة أبى بكر، ثم عمر، ثم أقطعها مروان، ثم صارت لعمر بن عبد العزيز فرأيت أمرًا منعه رسول الله ﷺ فاطمة، ليس لى بحقٍ، وإنى اشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله ﷺ، ليس لى بحقٍ[2].

وبدأ بنفسه، وأهل بيته، فأخذ ما بأيديهم، وسمى أموالهم مظالم، وقام بردها إلى أهلها، حتى كان ـ رحمه الله ـ يقول:

لو كان كل بدعة يُميتُها الله على يدى، وكل سُنَّة ينعشها الله على يدى ببضعةٍ من لحمى حتى يأتى آخِر ذلك على نفسى كان فى الله يسيرًا[3].

---

(١) فدك: قرية فى الحجاز بينها وبين المدينة يومان.

(٢) خبرٌ صحيحٌ كما فى تاريخ الإسلام (٧/١٩٦)، وأخرجه ابن الجوزى (ص/ ١٣١) من طريق آخر فى المناقب.

(٣) خبرٌ صحيحٌ: أخرجه ابن سعد (٥/٣٤٣) فى طبقاته.

وقد كان إحساس عمر بن عبد العزيز بجسامة المسئولية التى تحملها عظيماً، مما ولّد لديه الشعور المرهف، والمعايشة التامة لأحوال رعيته.

دخلت زوجه فاطمة بنت عبد الملك على عمر، وهو جالسٌ فى مصلاه تسيل دموعه على لحيته، فقالت: يا أمير المؤمنين أَلِشَىءٍ حدث؟

قال: يافاطمة، إنى تقلدت من أمر أمة مُحمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذى العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض، وأطراف البلاد، فعلمتُ أن ربى سائلى عنهم يوم القيامة، فخشيتُ ألا تثبت لى حجة، فبكيت[1].

هذا الشعور بحال الرعية، وعظم المسئولية جعله يحاسب نفسه حساباً شديداً، فنفقته كل يوم لا تتعدى الدرهمين!!

وثيابه الناظر إليها ما يظن أن هذا هو حاكم المسلمين، صاحب الهيبة، والمُلك العريض.

يروى سعيد بن سويد أن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه، ومن خلفه، فقال له رجلٌ:

يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست؟!

فنكس ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة[2].

وهذه الشدة لم تكن هى طبيعة عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة، بل كان فى ترف وأبهة، **فيقول رجاء بن حيوة رحمه الله:**

كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس، وألبس الناس وأخيلهم مشية، فلما

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الجوزجانى كما فى تاريخ الإسلام (٧/ ١٩٧)، وهو فى البداية (٩/ ٢٢٥).

(٢) خبرٌ حسنٌ: اخرجه ابن سعد (٥/ ٤٠٢) فى طبقاته، واورده الذهبى (٧/ ١٩٩) فى تاريخ الإسلام.

استخلف قوّموا ثيابه باثنى عشر درهماً من ثياب مصر، كُمّتُه، وعمامته، وقميصه، وقباؤه، وخفّاه، ورداؤه[1].

فقد كانت نفسه بعد توليه الخلافة تواقة إلى جنات النعيم، والفوز العظيم برضا رب العالمين، ورحم الله أبا حفص عمر بن العزيز إذ يقول: ـ

كانت لى نفس تواقة، فكنت لا أنال شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أعظم منه، فلما بلغت نفسى الغاية، تاقت إلى الآخرة[2].

وقد حقق عمر بن عبد العزيز العدل فى خلافته أيما تحقيق، عُرِف بالخليفة العادل، وضُربت الأمثال بعدله، ورويت الأخبار الكثيرة فى ذلك.

ولعلّ قول مالك بن دينار الزاهد العابد يبين ذلك بياناً شافياً، يقول ـ رحمه الله ـ

لما استعمل عمر بن عبد العزيز على الناس، قال رعاء الشاء: من هذا العبد الصالح الذى قام على الناس؟ قيل لهم: وماعلمكم بذلك؟

قالوا: إنه إذا قام على الناس خليفة عدل كفت الذئاب عن شائنا[3]!

ويقول موسى بن أعين ـ رحمه الله : ـ

كنا نرعى الشاء بكرمان فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء والذئب ترعى فى مكانٍ واحدٍ، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاةٍ، فقلت:

مانرى الرجل الصالح إلا قد هلك، فحسبوا فوجدوه قد هلك فى تلك الليلة[4].

وهكذا إذا صلح الرأس، فليس على الجسد بأس، ولكن هناك من ينفر العدل، ويأبه ويأنس بالظلم والجور، وما أقرب هذا من بنى مروان الذين نفروا من عدل عمر بن عبد العزيز.

فإنه لما ولى عمر بن عبد العزيز، جعل لا يدع شيئاً مما كان فى يده، ويد أهل

---

(١) خبرٌ صحيحٌ: اخرجه احمد (ص/ ٣٦٥) فى الزهد، وابن سعد (٥/ ٤٠٢) فى طبقاته.

(٢) خبرٌ صحيحٌ: أخرجه ابن الجوزى (ص/ ٨١) فى «مناقب عمر» من طريقين وأورده الذهبى (٧/ ١٩٩) فى تاريخه.

(٣) خبرٌ حسنٌ: اخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٥٥) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ٨٧) فى «مناقب عمر».

(٤) خبرٌ صحيحٌ: اخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٥٥) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ٨٧) فى «المناقب».

بيته من المظالم إلا ردّها مظلمة مظلمة. فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك فكتب إليه:

إنك أزريت [1] على مَنْ كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم، وشنآناً لمن بعدهم من أولادهم.

قطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً.

يا ابن عبد العزيز، اتق الله وراقبه إن شططت، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور، فو الذى خص محمداً ﷺ بما خصه به، لقد ازددت عن الله بُعداً فى ولايتك إذ زعمت أنها عليك بلاء، فاقصر بعض ميلك.

واعلم بأنك بعين جبارٍ، وفى قبضته، ولن تترك على هذا.

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه، كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أما بعد..

فإنه قد بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه، أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زُعم، فأمك بنانة أمة السكون، كانت تطوف فى سوق حمص، وتدخل فى حوانيتها، ثم الله أعلم بها اشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء المسلمين، فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس المحمول، وبئس المولود.

ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً، تزعم أنى من الظالمين! لم حرمتك وأهل بيتك فىء الله، الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعملك صبياً سفيهاً على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة؟! وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟!

وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس

---

(١) أزريت: عبت وحقرت.

العرب يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام.

وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافياً على مصر، أذن له فى المعازف، واللهو والشرب.

وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله مَنْ جعل لعالية البربرية سهماً فى خمس العرب، فرويدًا يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفىء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم فى بينات الطريق، وما وراء هذا من الفضل، ما أرجو أن أكون رأيته بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى، والمساكين، والأرامل، فإن لكل فيك حقاً، والسلام علينا، ولا ينال سلام الله الظالمين[1].

فما كان أشده على بنى أمية، مع أنه لم يصل إلى الخلافة إلا عن طريق أحدهم، ولكنه العدل والإنصاف فى شخصية عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وكان ـ رحمه الله ـ يحرص كل الحرص على أن ينال كل واحدٍ فى رعيته ماله من حقوقٍ كاملة، حتى إذا رد المظالم، وصرف إلى كل ذى حقٍ حقه، وكان مناديه فى كل يومٍ ينادى:

أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟

حتى أغنى كل هؤلاء، وليس هذا بعجيبٍ من إمامٍ كانت الغلة تصل إليه حين آلت الخلافة إليه، وتُقدر بخمسين ألف دينار، فيردها إلى حوائج المسلمين.

فقد كان نهج عمر بن عبد العزيز، والذى جلى حقيقة ملامح شخصيته هو العدل والانصاف.

ومع حصاد سنوات خلافة عمر بن عبد العزيز نتوقف فى الصفحات التالية.



(١) خبرٌ صحيحٌ بطرقه: أخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٧٠، ٣٠٩) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ١٣٣ ـ ١٣٥).



بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ فى الصفحات التالية:

[١] حصاد سنوات خلافة عمر بن عبد العزيز.

[٢] الخليفة الناصح والمستنصح لنفسه.

[٣] وصية الخليفة العادل عند موته ووفاته.

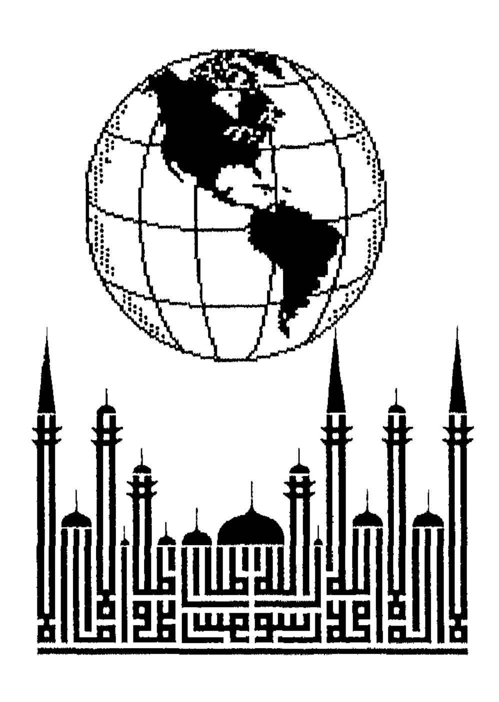
[٤] الولاة والقضاة فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

[٥] خلافة يزيد بن عبد الملك.

[٦] حصاد سنوات خلافة يزيد بن عبد الملك.

[٧] مثالب يزيد بن عبد الملك ووفاته.

[٨] الولاة والقضاة فى خلافة يزيد بن عبد الملك.



حصاد سنوات خلافة

عمر بن عبد العزيز

فى سنة تسع وتسعين، وفى شهر صفرٍ على وجه التحديد من تلك السنة بدأت خلافة عمر بن عبد العزيز، وبدأ حصاد خلافته يظهر، وينتفع به المسلمون.

وفى هذه السنة بعث عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم، يأمره بالرجوع منها بمن معه من المسلمين.

وفيها: أغارت الترك على أذربيجان، فقتلوا من المسلمين جماعةً، ونالوا منهم، فما كان من عمر بن عبد العزيز إلا أن بعث إليهم بحاتم بن النعمان الباهلى فقتل أولئك الترك، وقدم حاتم على عمر بخمسين أسيراً.

وفيها: عزل عمرُ عن العراق يزيد بن المهلب، وبعث إلى البصرة بعدى بن أرطأة، وبعث إلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى، وضم إليه أبا الزناد كاتباً، وعزل عمرُ عن إمرة مصر عبد الملك بن رفاعة بأيوب بن شرحبيل.

وحج بالناس فى هذه السنة أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، وكان والى المدينة، وكان والى مكة هو عبد العزيز بن عبد الله بن خالد، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن، وعلى البصرة عدى بن أرطاة، وعلى خراسان الجراح بن عبد الله، وعلى قضاء الكوفة الشعبى، وعلى قضاء البصرة إياس بن معاوية.

وفى هذه السنة استعمل عمرُ على إفريقية إسماعيل بن عبيد الله المخزومى، فوصل إليها سنة مائة فأسلم خلقٌ من البربر فى ولايته[1].



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٠٢ - ٢٠٥)، تاريخ الطبرى (٦/ ٥٥٠ - ٥٥٤)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٧٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٦)، البداية (٩/ ١٩٨ - ٢٠٦).

أحداث سنة مائة

في هذه السنة: خرجت طائفةٌ من الخوارج على عمر بن عبد العزيز بالعراق، فبعث أمير المؤمنين عمر إلى عبد الحميد نائب الكوفة يأمره بأن يدعوهم إلى الحق، ويتلطف بهم، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا في الأرض، فلما فعلوا ذلك أرسل إليهم جيشاً، فهزمه الخوارج، فأرسل عمر ابن عمه، مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم، فأظفره الله بهم.

وفيها: ولّى عمر بن عبد العزيز الجزيرة لعمر بن هبيرة فسار إليها، وحُمل يزيد بن المهلب إلى عمر من العراق، وكان عمر يبغضه وأهل بيته، ويقول: هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم.

وفيها: عزل عمرُ الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان، بعد سنة وخمس أشهرٍ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، ويقول: أنتم إنما تسلمون فراراً منها، فامتنعوا عن الإسلام، وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية، فكتب إليه عمر:

إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً، ولم يبعثه جابياً، وعزله، وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري على الحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله الخراج.

وفيها: كتب عمر إلى عماله يدعوهم إلى الخير والعدل، وينهاهم عن الشر والظلم، فكتب إلى ابن نعيم القشيري والي خراسان:

أما بعد: فكن عبداً لله ناصحاً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، ولا تولين شيئاً من أمور الناس إلا المعروف بالنصيحة لهم وأداء الأمانة فيما استرعى.

وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

وكتب عمر إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش

فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

وفى هذه السنة: أمر عمر بن عبد العزيز أهل طُرندة[1] بالرجوع منها إلى ملطية، وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين، وملطية يومئذ خراب، وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج، ويعودون إلى بلادهم، فلم يزالوا كذلك إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز فأمرهم بالعودة إلى ملطية، وإخلاء طرندة خوفاً على المسلمين من العدو، وأخرب طرندة.

وفيها: كان بدء ظهور دعوة بنى العباس، وذلك بإرسال محمد بن على بن عبد الله بن عباس الرسل نيابة عنه، يدعون إليه، وإلى أهل بيته، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على أثنى عشر نقيباً.

وقد حج بالناس فى هذه السنة: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والى المدينة، وكان عمال الأمصار فى هذه السنة هم من[2] كانوا فى السنة التى قبلها.



(١) موضع من بلاد الروم بتركيا الحالية.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٦/ ٥٥٥ ـ ٥٦٣)، تاريخ خليفة (ص/ ٢٠٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٩)، البداية (٩/ ٢٠٩ ـ ٢١١).

أحداث سنة إحدى ومائة

فى هذه السنة: هرب يزيد بن المهلب من سجنه حين بلغه شدة مرض عمر ابن عبد العزيز، وخوفه على نفسه من يزيد بن عبد الملك إذا تولى الخلافة.

ولما بلغ عمر فرار ابن المهلب من السجن، قال: اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره، واردد كيده فى نحره.

ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز، وكانت آخر خطبة خطبها فى الناس، أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس . . .

إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سُدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بين الناس، ويفصل بينهم، فخاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء، وحُرِم جنة عرضها السموات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر الله وخافه، وباع نافذاً بباقٍ، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان؟!

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وستصير بعدكم للباقين؟! وكذلك حتى تُردَّ إلى خير الوارثين.

ألا ترون أنكم تشيعون فى كل يوم غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه فى صدعٍ من الأرض، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحبابَ، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهناً بعمله، فقيراً إلى ما قدم، غنياً عما ترك.

فقيراً إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل موافاته، وحلول الموت بكم، ووالله إنى لأقول هذا، وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فاستغفر الله، وما منكم من أحد تبلغنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد من حاجته ما استطعنا، وما منكّم من أحدٍ تبلغنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى وبخاصتى،

حتى يكون عيشنا وعيشه سواء.

وايم الله، لو أردتُ غير هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولاً، وكنتُ بأسبابه عالماً، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة، دل فيهما على طاعته، ونهى فيهما عن معصيته. ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وشهق، وبكى الناس.

فكانت آخر خطبة خطبها[1].

ويلاحظ فى هذه الخطبة العمرية التأثير البليغ للموت فى حياة عمر بن عبد العزيز، ولقد كان يكثر من ذكره، وبيان الحسرة والندامة التى تلحق بمن لم يحذر من مجيئه بغتة.

يقول المفضل بن يونس ـ رحمه الله ـ: قال عمر بن عبد العزيز: ـ

لقد نغص هذا الموت على أهل الدنيا ما هم فيه من غضارة الدنيا وزهرتها، فبيناهم كذلك وعلى ذلك أتاهم الموت فاخترمهم مما هم فيه، فالويل والحسرة هنالك لمن لم يحذر الموت، ويذكره فى الرخاء فيقدم لنفسه خيراً يجده بعدما يفارق الدنيا وأهلها[2].

ويقول طلحة بن يحيى: كنت عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجلٌ فقال: أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك. فقال عمر: فُرِغ من ذلك، ولكن قل: أحياك الله حياةً طيبة، وتوفاك مع الأبرار[3].

ودخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطون عطايا منعتناها، ولى عيال وضيعة، أفتأذن لى أن أخرج إلى ضيعتى، وما يصلح عيالى؟

---

(١) خبرٌ صحيحٌ بطرقه. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٩٤) فى الحلية، و (٥/ ٢٩٥) من طريقٍ آخر، وابن الجوزى (ص/٢٥٨ ـ ٢٦٠) فى «مناقب عمر»، والطبرى (٦/ ٥٧٠ ـ ٥٧١) فى تاريخه، وأورده ابن كثير (٩/ ٢٢٢) فى البداية من طريق آخر.

(٢) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٦٤) فى الحلية.

(٣) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابن ابى الدنيا (٣٨٣) فى الإشراف بتحقيقى.

فقال عمر: أبا خالد، أبا خالد، فرجع. فقال عمر: أكثر من ذكر الموت، فإن كنت فى ضيقٍ من العيش وسعه عليك، وإن كنت فى سعةٍ ضيقه عليك[1].

ويحدثنا **ميمون بن مهران** ـ رحمه الله ـ أنه خرج مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل علىَّ فقال: يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم!

أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصابت الهوام فى أبدانهم مقيلا؟!

ثم بكى حتى غشى عليه، ثم أفاق فقال: انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن عذاب الله[2].

ومن شدة تأثير ذكر الموت على حياة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان يغلبه الخوف والحزن الشديد، فيقول النضر بن عربى ـ رحمه الله:

دخلتُ على عمر بن عبد العزيز فرأيته جالساً هكذا قد نصب ركبتيه، ووضع يديه عليهما، وذقنه على ركبتيه، كأن عليه بث[3] هذه الأمة[4].

وكان رحمه الله يقول: لولا أن تكون بدعة لحلفتُ ألا أفرح من الدنيا بشىء أبداً حتى أعلم ما فى وجوه رسل ربى إلىَّ عند الموت، وما أحب أن يهون علىَّ الموت، لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن[5].

وبدأت أمارات الموت تنزل بالخليفة العادل، وفى نفس هذه السنة كانت وفاته، ونهاية رحلة العهد الذهبى فى عهد بنى أمية.



(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٦٥) فى الحلية.
(٢) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٦٩).
(٣) بث: حزن.
(٤) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٨١) فى الحلية.
(٥) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/٣١٦)، (٥/٣١٧) من طريقٍ آخر.

الخليفة الناصح والمستنصح لنفسه

لعلّ من الأمور الجديرة بالعناية، ويحسن الإشارة إليها أن من سمات الإمام العادل: قبوله للنصح، وعدم إغفاله لنصح غيره.

فكم من حاكمٍ جلب الويلات والشرور على قومه لإغفاله للنصيحة، وكم من عالمٍ نافق وداهن الراعى لعدم نُصح الراعى له.

ولكن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إمام الهدى، كان يطلب النصيحة، ولا يغفل عن نصح غيره، فتارة ينصح لعماله على الأقاليم، وولاة المسلمين، وتارة أخرى يرسل إلى العلماء يستهديهم، ويطلب منهم المشورة.

فعن سالم بن عبد الله بن عمر ـ رحمه الله ـ أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه: أما بعد.

فإن الله ابتلانى بما ابتلانى به من أمر هذه الأمة عن غير مشاورة منى فيها، ولا طلبة منى لها، إلا قضاء الرحمن وقدره، فأسأل الذى ابتلانى من أمر هذه الأمة بما ابتلانى أن يعيننى على ما ولانى، وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وأن يرزقهم منى الرأفة، والعدل.

فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلىَّ بكتب عمر بن الخطاب وسيرته، وقضاياه فى أهل القبلة، وأهل العهد، فإنى متبعٌ أثر عمر وسيرته إن أعاننى الله على ذلك، والسلام.

فكتب إليه سالم بن عبد الله: بسم الله الرحمن الرحيم.

من سالم بن عبد الله إلى عبد الله عمر أمير المؤمنين، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد.

فإن الله خلق الدنيا لما أراد، وجعل لها مدة قصيرة، كأن بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال: **﴿كل شىءٍ هالك إلا**

وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[1] لا يقدر منها أهلها على شيء حتى تفارقهم ويفارقونها أنزل بذلك كتابه، وأنزل بذلك رسله، وقدم فيه بالوعيد، وضرب فيه الأمثال، ووصل به القول، وشرع فيه دينه، وأحل الحلال، وحرم الحرام، وقص فأحسن القصص، وجعل دينه فى الأولين والآخرين فجعله ديناً واحداً فلم يفرق بين كتبه، ولم تختلف رسله، ولم يشق أحد بشيء من أمره سعد به أحد، ولم يسعد أحدٌ من أمره بشيء شقى به أحد، وإنك اليوم يا عمر لم تعد أن تكون إنساناً من بنى آدم يكفيك من الطعام، والشراب، والكسوة ما يكفى رجلاً منهم.

فاجعل فضل ذلك فيما بينك وبين الرب الذى توجه إليه شكر النعم، فإنك قد وليت أمراً عظيماً ليس يليه عليك أحدٌ دون الله، قد أفضى فيما بينك وبين الخلائق، فإن استطعت أن تغنم نفسك وأهلك، وأن لا تخسر نفسك وأهلك فافعل، ولا قوة إلا بالله.

فإنه قد كان قبلك رجال عملوا بما عملوا، وأماتوا ما أماتوا من الحق، وأحيوا ما أحيوا من الباطل، حتى ولد فيه رجال ونشئوا فيه وظنوا أنها السنة، ولم يسدوا على العباد باب رخاء إلا فتح عليهم باب بلاء، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء، فإنك لا تفتح عليهم منها باباً إلا سُدّ به عنك باب بلاء.

ولا يمنعك من نزع عاملٍ أن تقول لا أجد من يكفينى عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله، وتعمل لله، أتاح الله لك رجالاً، وإنما العون من الله على قدر النية، فإذا تمت نية العبد، تم عون الله له، ومن قصرت نيته قصر من الله العون له بقدر ذلك.

فإن استطعت أن تأتى يوم القيامة ولا يتبعك أحدٌ بظلمٍ، ويجىء من كان قبلك، وهم غابطون لك بقلة اتباعك، وأنت غير غابطٍ لهم بكثرة أتباعهم فافعل، ولا قوة إلا بالله.

فإنهم قد عاينوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون، وانشقت بطونهم التى كانوا فيها لا يشبعون، وانفقأت أعينهم التى كانت لا تنقضى لذاتها، واندقت رقابهم

---

(١) سورة القصص: ٨٨.

فى التراب غير موسدين بعدما تعلم من الفُرس والمرافق، فصاروا جيفاً تحت بطون الأرض تحت آكامها، لو كانوا إلى جنب مسكين تأذى بريحهم، بعد إنفاق ما لا يحصى عليهم من الطيب، كان إسرافاً وبداراً عن الحق، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما أعظم يا عمر وأفظع الذى سيق إليك من أمر هذه الأمة، فأهل العراق فليكونوا من صدرك بمنزلة من لا فقر بك إليه، ولا غنى بك عنه، فإنهم قد وليتهم عمال ظلمة قسموا المال وسفكوا الدماء، فإنه من تبعث من عمالك كلهم أن يأخذوا بجبية، وأن يعملوا بعصبية، وأن يتجبروا فى عملهم، وأن يحتكروا على المسلمين بيعاً، وأن يسفكوا دماً حراماً.

الله الله يا عمر فى ذلك، فإنك توشك إن اجترأت على ذلك أن يؤتى بك صغيراً ذليلاً، وإن أنت اتقيت ما أمرتك به وجدت راحته على ظهرك وسمعك وبصرك، ثم إنك كتبت إلىَّ تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب، وسيرته، وقضائه فى المسلمين، وأهل العهد، وإن عمر عمل فى غير زمانك، وإنى أرجو إن عملت بمثل ما عمل عمر أن تكون عند الله أفضل منزلة من عمر، وقل كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).

والسلام عليكم(٢)

وكما نُصح عمر بن عبد العزيز ينصح هو عامله على الكوفة بأن يكون مع الرعية كالمداوى جرحاً يصبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء، ويجعل طريقه للوصول إلى مراده العدل والإحسان.

يقول داود بن سليمان: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد صاحب الكوفة:

---

(١) سورة هود: ٨٨.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ١٤٩ ـ ١٥٥) فى «مناقب عمر» من طريقين، وأخرجه عبد الله بن أحمد (ص/ ٣٦٦) فى زوائد الزهد.

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد عبد الرحمن. سلامٌ عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد:

فإن أهل الكوفة قومٌ قد أصابهم بلاء وشدة، وجور فى أحكام الله، وسنن خبيثة سنها عليهم عمال سوء، وأن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك أن توطنها بطاعة الله، فإنه لا قليل من الإثم، وآمرك أن تطرز أرضهم، ولا تحمل خراباً على عامرٍ، ولا عامراً على خراب، وإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله[1].

ويحدثنا ابن شهاب الزهرى أن عمر كتب إلى بعض عماله:

أما بعد.. فاتق الله فيمن وليت أمره، ولا تأمن مكره فى تأخيره عقوبته، فإنه إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

ويكتب الحسن البصرى - رحمه الله - إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد.

فكأنك بآخر من كُتب عليه الموت، قيل: قدمات.

فأجابه عمر: أما بعد. فكأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل[3].

وكان إذا ولى أحد الولاة يحذره من خطورة المسئولية، وعظم الأمانة، وأن الله من ورائه محيط، وعلى أعماله شهيد.

فيكتب إلى عدى بن أرطاة - وكان استخلفه على البصرة - أما بعد:

فإنك غررتنى بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وإرسالك العمامة من ورائك، وأنك أظهرت لى الخير فأحسنت بك الظن، وقد أظهر الله على ما كنتم تكتمون، والسلام[4].

وكتب صالح بن عبد الرحمن وصاحب له - وكانا قد ولاهما عمر شيئاً من أمر العراق - فكتبا إلى عمر يعرضان له أن الناس لا يصلحهم إلا السيف، فكتب

---

(١) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٨٦) فى الحلية.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٣٠٤) فى الحلية.

(٣) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٣٠٥).

(٤) خبرٌ صحيح. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٣٠٥).

إليهما.

خبيثين من الخبث، رديئين من الردى، تعرضان لى بدماء المسلمين، ما أحدٌ من الناس إلا ودماؤكما أهون على من دمه[1].

وكان يكتب إلى عماله وولاته ناصحاً لهم أن يجتنبوا الاشتغال عند حضور الصلاة، فإن مَنْ أضاعها فهو لما سواها من شعائر الإسلام أشد تضييعاً.

ويذكر عماله بتقوى الله، والاقتداء بالسلف الصالح والحرص على التمسك بسنة النبى ﷺ، فيكتب إلى أحد ولاته قائلاً:

«أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد فى أمره، واتباع سنة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعده، مما قد جرت سنته، وكفوا مؤنته.

وأعلم أنه لم يبتدع إنسان قط بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، وعبرة فيها، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، وأعلم أن من سن السنن قد علم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والتعمق والحمق، فإن السابقين الماضين عن علمٍ وقفوا، وببصرنا قد كفوا.

ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، فإنهم هم السابقون، ولئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم حدث بعدهم حدث، ما أحدث إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه ما يكفى، ووضعوا منه ما يشفى، فما دونهم مقصر، ولا فوقهم محسر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، وأنتم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[2].

ويحرص عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ على البعد عن وقوع الولاة فى دماء الرعية، ويحرص على درء الحدود بالشبهات، وأن البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر كما نص الشرع الحنيف.

فيكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد صاحب الكوفة، قد جاءنى كتابك

(١) خبرٌ حسنٌ. اخرجه أبو نعيم (٣٠٧/٥) فى الحلية، وعبد الله بن أحمد (ص/ ٣٦١) فى زوائد الزهد.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه أبو نعيم (٣٣٨/٥ ـ ٣٣٩) من طريقين، وعبد الله بن أحمد (ص/ ٣٦٠) فى زوائد الزهد.

تذكر أن قبلك قوماً من العمال قد اختانوا مالاً فهو عندهم، وتستأذننى فى أن أبسط يدك عليهم، فالعجب منك فى استئمارك إياى فى عذاب بشر كأنى جُنة لك، وكأن رضائى عنك ينجيك من سخط الله، فإذا جاءك كتابى هذا فانظر من أقر منهم بشيء فخذه بالذى أقربه على نفسه، ومن أنكر فاستحلفه وخل سبيله، فلعمرى لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلىَّ من أن ألقى الله بدمائهم، والسلام[1].

ولأنه من أولى الناس بالنصح ولد الرجل، فلم يترك أمير المؤمنين أولاده حتى نصح لهم فى شخصية ابنه الأكبر عبد الملك.

وعن وصيته لولده يحدثنا كاتب عمر، ليث بن أبى رقية فيقول:ـ

كتب عمر إلى ابنه فى العام الذى استخلف فيه ـ وابنه إذ ذاك بالمدينة يقال له عبد الملك ـ أما بعد..

فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسى أنت، وإن أحق مَنْ رعى ذلك وحفظه عنى أنت، وإن الله تعالى له الحمد قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً، بلغاً فى لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما عبر من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها.

فاذكر فضل الله على أبيك وعليك، ثم أعن أباك على ما قوى عليه، وعلى ما ظننت أن عنده منه عجزاً عن العمل فيما أنعم به عليه وعليك فى ذلك.

فراع نفسك وشبابك وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله حمداً وتسبيحاً، وتهليلاً فافعل، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وذكره. وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره، ولا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه.

إن أباك كان بين ظهرانى إخوته عند أبيه يفضل عليه الكبير، ويدنى دونه الصغير، وإن كان الله وله الحمد قد رزقنى من والدى حسباً جميلاً، كنتُ به راضياً، أرى أفضل الذى يبره ولده على حقاً، حتى ولدتَ وولد طائفة من أخواتك، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه، فمن كان راغباً فى الجنة،

---

(١) خبرٌ حسنٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٧٥) فى الحلية.

وهارباً من النار فالآن فى هذه الحالة والتوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاد الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للثقلين ليدينهم بأعمالهم فى موطنٍ لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس بأعمالهم، ويصدرون فيه أشتاتاً إلى منازلهم.

فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله، فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد فى غناك، وضع لله نفسك، وأدّ إلى الله فرائض حقه من مالك، وقل عند ذلك كما قال العبد الصالح: ﴿**هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربى غنى كريم**﴾.

وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك، أو يُخيل إليك أن ما رزقته لكرامة بك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك، فإذا أنت أخطأت باب الشكر، وتركت منازل أهل الفقر، وكنت ممن طغى للغنى، وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا، فإنى لأعظك بهذا، وإنى لكثير الإسراف على نفسى، غير محكمٍ لكثيرٍ من أمرى.

ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم نفسه، ويكمل فى الذى خلق له من عبادة ربه، إذاً لتواكل الناس الخير، وإذاً لرفع الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وقل الواعظون، والساعون لله بالنصيحة فى الأرض، فلله الحمد رب السموات، ورب الأرض، رب العالمين، وله الكبرياء فى السموات، وفى الأرض، وهو العزيز الحكيم(١).

فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه كل الخير عن الإسلام والمسلمين.



---

(١) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه ابو نعيم (٥/ ٢٧٦) فى الحلية، وابن الجوزى (ص/ ٢٩٨) فى «مناقب عمر».

وصية الخليفة العادل عند موته

أعظم الوصايا هى ما كانت فى آخر لحظات الدنيا فى حياة المرء حيث الشعور بحقارة الدنيا، وعظمة الآخرة، وفناء الدنيا، وبقاء الآخرة.

وقد حرص الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ على الوصية لمن يلى الخلافة من بعده، والوصية لأولاده.

أما وصيته لولى العهد من بعده فيحدثنا عنها قتادة ـ رحمه الله ـ فيقول:ـ

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولى العهد من بعده: بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك، سلام عليكٌ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد.

فإنى كنت وأنا دنفٌ[1] من وجعى، وقد علمتُ أنى مسئولٌ عما وليت يحاسبنى عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملى شيئاً، يقول فيما يقول:

﴿ فلنقص عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾[2].

فإن يرضَ عنى الرحيم فقد أفلحتُ ونجوتُ من الهوان الطويل، وإن سخط علىّ فياويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته، وأن يمن علىّ برضوانه والجنة.

فعليك بتقوى الله، والرعية. . الرعية، فلن لن تبق بعدى إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير، والسلام[3].



(١) دنف: برأه المرض حتى أشفى على الموت. (٢) سورة الأعراف: ٧.
(٣) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٧٤) فى الحلية.

وفاة عمر بن عبد العزيز!!

أجمع علماء الأمة قاطبة أن عمر بن عبد العزيز أحد أئمة العدل، وعده بعضهم من الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين.

هذا الإمام الجليل، والحاكم العادل، مع فضله وعلو قدره قال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين، كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بطيئاً، بطيناً، متلوثًا فى الخطايا، أتمنى على الله عز وجل الأمانى(١).

ودخل عليه عنبسة فقال: يا أمير المؤمنين، إنه من كان قبلك يعطينا عطايا منعتناها، وإن لى عيالاً وضيعة قد أحببت أن أتعاهد ضيعتى وما يصلح عيالى.

فقال عمر: أحبكم إلينا من فعل ذلك، فلما ولّى قال لعنبسة: أبا خالد، أبا خالد، أكثر ذكر الموت، فإنك لا تذكره وأنت فى ضيقٍ من العيش إلا وسعه عليك، ولا تذكره وأنت فى سعةٍ من العيش إلا ضيقه عليك(٢).

وكان رحمه الله يقول: ليس تقوى الله بصيام الدهر، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خيرٌ إلى خير(٣).

وهكذا كان من أهل العدل والصلاح، وإن من كان قبله كانت الخلافة لهم زين، وأما هو فقد زان الخلافة، فقد صرح كثيرٌ من أهل العلم بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز كان من أهل الثقة والعدالة.

ومع عدالته وسياسته الراشدة كان أكثر الناس صلاةً وصياماً، وأكثرهم خوفاً

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن أبى الدنيا (ص/١٣٢) فى محاسبة النفس، والبيهقى (٥٧٣) فى الزهد، وابن الجوزى (ص/٢٠٥) فى «مناقب عمر»، والفسوى (١/٥٨٥) فى المعرفة والتاريخ. وأورده ابن كثير (٩/٢٢٧) فى البداية.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عبد الحكم (ص/١٤٧ ـ ١٤٨) فى «سيرة عمر»، وابن سعد (٥/٣٧٢) فى طبقاته، والغسوى (١/٦١٣، ٦١٤)، والبيهقى (٥٥٣) فى الزهد، وابن الجوزى (ص/١٣٦).

(٣) خبرٌ حسنٌ. أخرجه البيهقى (٩٦٤) فى الزهد، وابن الجوزى (ص/٢٣٩).

من عذاب الله، كأن النار لم تُخلق إلا له.

وكان يجتمع كل ليلة إليه الفقهاء والعلماء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة، ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة، وكان إذا ذكر الموت اضطربت جوارحه، ويبكى بكاء شديداً.

ويحدثنا المغيرة بن حكيم أن فاطمة امرأة عمر قالت له: إنه قد يكون فى الناس من هو أكثر صلاة وصياما من عمر بن عبد العزيز، وما رأيت أحداً قط أشدّ فرقاً من ربّه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد فى مسجده، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكى حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكى حتى تغلبه عينه[1].

وهكذا نستطيع أن نقول أن عمر بن عبد العزيز كان حسن الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حسن السياسة، حريصاً على العدل بكل ممكنٍ، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، من أهل الزهد والورع.

ولكن هناك من يتربص به، ممن يكرهون العدل، ويحبون الظلم، فما زالوا به حتى سقوه السم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين.

يحدثنا التابعى مجاهد ـ رحمه الله ـ، فيقول: ـ

قال لى عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فىَّ؟ قلت: يقولون: مسحور. قال: ما أنا بمسحورٍ، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك ما حملتنى على أن تسقينى السُّمَّ؟!

قال: ألف دينار أعطيتها، على أن أعتق.

قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها فى بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه أبو نعيم (٥/ ٢٦٠) فى الحلية، والفسوى (١/ ٥٧١) فى المعرفة، وأورده الذهبى (٧/ ٢٠١) فى تاريخه، وأخرجه ابن المبارك (٨٨٤) فى الزهد، وأحمد (ص/ ٣٦٣) فى الزهد، وابن سعد (٥/ ٣٦٧) فى طبقاته.

أحدٌ[1].

ويُعلق على هذا الخبر مؤرخ الإسلام العلامة الذهبى ـ رحمه الله فيقول:

وكانت بنو أمية قد تبرمت بعمر، لكونه شدَّد عليهم، وانتزع كثيراً مما فى أيديهم مما قد غصبوه، وكان قد أهمل التحرز، فسقوه السم.

فعمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مات مسموماً، فنال الشهادة عند رب العالمين.

ويحدثنا أيوب السختيانى ـ رحمه الله ـ أنه قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتاً، دُفنت فى موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ؟

فقال: والله لئن يعذبنى الله بغير النار أحبُّ إلىَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ من قلبى أَنَّ أرَانِى لذلك أهلاً[2].

هكذا عمر بن عبد العزيز المتواضع يعرف منزلته، ولا يرفع نفسه فوق ما يعلمه عن نفسه، مع أنه ـ رحمه الله ـ كان خير المسلمين يومئذٍ!!

وفى روايةٍ أخرى أنه قال: والله لأن يعذبنى الله بكل عذابٍ إلا النار، فإنه لا صبر لى عليها، أحبّ إلىَّ من أَنْ يَعْلَمَ الله من قلبى أنّى لذلك الموضع أهلٌ.

وكان مرضه فى قرية تسمى «ديرسمعان» من قرى مدينة حمص بديار الشام، وعن آخر ما تكلم به، يروى لنا سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ فيقول:

قلت لعبد العزيز بن عمر: ما آخر ما تكلم به أبوك؟ فقال: كان له من الولد أنا، وعبد الله، وعاصم، وإبراهيم، وكنا أُغَيْلمةً، فجئنا كالمسلِّمين عليه والمُودِّعين له، فقيل له: تركت ولدك ليس لهم مالٌ، ولم تؤوهم إلى أحدٍ؟!

---

(1) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن عساكر كما أورده الذهبى (٧/ ٢٠٣) فى تاريخه، وأشار إليه ابن كثير (٩/ ٢٣٤) فى البداية، وأورده الذهبى (٥/ ١٤٠) فى السير، تاريخ الخلفاء (ص/ ٣٩١) للسيوطى.

(2) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه ابن سعد (٥/ ٤٠٤) فى طبقاته، والفسوى (١/ ٦٠٨) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٥/ ١٤١) فى السير، و (٧/ ٢٠٤) فى تاريخه، وابن الجوزى (ص/ ٣٢٣).

فقال: ما كنتُ لأعطيهم ما ليس لهم، وما كنتُ لآخذ منهم حقاً هو لهم، وإن وليىّ الله فيهم الذى يتولّى الصالحين، إنما هم أحد رجلين: صالح أو فاسق[1].

وفى روايةٍ أخرى: وهم بين رجلين: إما صالح فالله يتولّى الصالحين، وإما غير صالح فما كنتُ لأعينه على فسقه.

وفى روايةٍ ثالثة: أفأدع له ما يستعين به على معصية الله، فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟!

ما كنت لأفعل، ثم استدعى أولاده فودّعهم، وعزّاهم بهذا، وأوصاهم، ثم قال: انصرفوا عصمكم الله، وأحسن الخلافة إليكم.

ومن عجائب القدر أن يقول ابن عيينة بعد ذلك: فلقد رأينا بعض أولاد عمر ابن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً فى سبيل الله.

وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك ـ مع كثرة ما ترك لهم من الأموال ـ يأخذ العطية من أولاد عمر بن عبد العزيز، وما ذاك إلا لأن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وكل ولده إلى الله عز وجل ـ وسليمان وأمثاله وكل أولاده إلى ما ترك لهم من الضياع والأموال.

وتحدثنا فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر أنها كانت تسمع عمر فى مرضه يقول:ـ

اللهم أخف عليهم أمرى ولو ساعة من نهارٍ، فقلت له يوماً: ألا أخرج عنك، فإنك لم تنم؟ فخرجت عنه فجعلت أسمعه يقول:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ مراراً، ثم أطرق فلبث طويلاً، لا يُسمع له حسٌ، فقلت لوصيفٍ:

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الفسوى (١/ ٦٢٠) فى تاريخه، وابن الجوزى (ص/ ٣١٩) فى «مناقب عمر» وفى صفة الصفوة (٢/ ٢١٥)، وأورده الذهبى (٧/ ٢٠٣) فى تاريخه، وفى السير (٤/ ١٤٠)، وابن كثير (٩/ ٢٣٥) فى البداية.

ويحك انظر، فلما دخل صاح، فدخلتُ فوجدته ميتاً، قد أقبل بوجهه على القبلة، ووضع إحدى يديه على فيه، والأخرى على عينيه(١).

ولما جاء نعي عمر بن عبد العزيز، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ:

مات خير الناس، إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير(٢).

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ يوم الجمعة لخمسٍ بقين من رجب، سنة إحدى ومائة بدير سمعان من حمص، وعاش تسعاً وثلاثين سنة ونصفاً.

وصلى عليه يزيد بن عبد الملك، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وقد رئيت له منامات صالحة، وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء، والزهاد، ورثاه الشعراء.

ومن نسله: عبد الملك، وقد مات فى حياة أبيه، وعبد العزيز ولى المدينة ومكة فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وعبد الله ولى الكوفة، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب.

ومنهم: بكر، وموسى، والوليد، وعاصم، ويزيد، وزيان.

وله من البنات: أمينة، وأم عمار، وأم عبد الله.

وتزوج لميس بنت على بن الحارث، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان، وفاطمة بنت عبد الملك.



---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الآجرى (ص/٨٣) فى «أخبار عمر»، وأبو نعيم (٥/ ٣٣٥) فى الحلية، وابن سعد (٥/ ٤٠٧) فى طبقاته، وابن الجوزى (ص/ ٣٢٥) فى «مناقب عمر»، وأورده الذهبى (٧/ ٢٠٤) فى تاريخه، و (٤/ ١٤١) فى السير، وابن كثير (٩/ ٢٣٥) فى البداية.

(٢) انظر: «مناقب عمر» (ص/ ٣٢٩) لابن الجوزى، وتاريخ الإسلام (٧/ ٢٠٥).

الولاة والقضاة فى خلافة

عمر بن عبد العزيز

مكة: ـ أقر عليها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد حتى مات عمر رحمه الله.

المدينة: أقر عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم حتى مات.

الكوفة: ولى عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد حتى مات.

البصرة: ولى عدى بن أرطاة الفزارى حتى مات.

خراسان: ولاها الجراح بن عبد الله الحكمى، ثم كتب إليه فاستخلف عبد الرحمن بن نعيم الغامدى.

سجستان: تولاها الجراح، ثم ضمها إلى ابن نعيم، وذلك فى سنة مائة، ثم بعث يزيد بن المهلب أخاه مدركاً حين خلعه، فمنعه عبد الرحمن بن نعيم دخولها.

السند: ولاها عدى بن أرطاة لعبد الملك بن مسمع، ثم عزله وولى عمرو بن مسلم الباهلى حتى مات عمر رحمه الله.

البحرين: تولاها الصلت بن حريث، ثم عزله عدى بن أرطاة وولى عبد الكريم بن المغيرة.

عمان: ولَّى عدىُ سعيدَ بن مسعود المازنى، ثم ولاها عمر بن عبد العزيز من قِبَلِه عمرو بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى.

اليمامة: تولاها زرارة بن عبد الرحمن.

اليمن: أقر عليها عروة بن محمد حتى مات عمر رحمه الله.

الجزيرة وأرمينية وأذربيجان: ولى عبد العزيز بن حاتم أرمينية، ثم ولاها عدى بن عدى، فاستخلف سوادة بن سوادة الكندى على الجزيرة.

دمشق: تولاها عبد بن الحسحاس العذرى.

الأردن: تولاها عباد بن نسيّ الكندى.

فلسطين: تولاها النضر بن يريم بن أبرهة.

حمص: تولاها يزيد بن حصين السكونى.

قنسرين: تولاها الوليد بن هشام بن الوليد.

البلقاء: تولاها الحارث بن عمرو الطائى.

مصر: تولاها أيوب بن شرحبيل بن أبرهة.

أفريقية: عزل عنها محمد بن يزيد، وولى عبد الله بن المهاجر الأنصارى، ثم ولى إسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم، فقدمها سنة مائة، فأسلم عامة البربر فى ولايته، وكان حسن السيرة حتى مات عمر رحمه الله.

أما قضاء البصرة فقد تولاه إياس بن معاوية، وقضاء الكوفة تولاه القاسم بن عبد الرحمن بن مسعود، وتولى قضاء المدينة أبو طوالة عبد الله بن عبد الرحمن ابن معمر.

الشرط: تولاها يزيد بن بشر الكلبى، وكان ليث بن أبى رقية كاتبه، وتولى الخراج والجند صالح بن جبير الغدانى، وتولى الحرس ابن أبى عياش الألهانى، ثم عزله وولى عمر بن المهاجر مولى الأنصار.

حاجبه: كان حبيش مولاه.



(٨) خلافة يزيد بن عبد الملك

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد القرشى، الخليفة الأموى، استُخلف بعهدٍ عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز.

وسيتبين لنا من استعراض ملامح خلافته، أنه ما كان يصلح للخلافة، فلقد كانت همته مصروفة إلى اللهو والغوانى.

وفى بدء خلافته، وبالتحديد فى الأربعين الأولى من أيام خلافته حاول أن يسير بين الناس بسيرة عمر بن عبد العزيز، ولكنه عدل بعد ذلك، وانصرف إلى ملذاته.

وقد بدأ خلافته بعزل والى المدينة أبا بكر بن محمد، وولاها عبد الرحمن بن الضحاك، وكان ذلك فى أواخر أيام شهر رمضان من سنة إحدى ومائة.

وفيما تبقى من السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك قُتل شوذب الخارجى، فى وقعة قامت بين الخوارج وجند الكوفة، وكانت الخوارج جماعة قليلة، وجيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس، فطحنوا الخوارج طحناً، وقتلوهم عن آخرهم.

وفى هذه السنة لحق يزيد بن المهلب بالبصرة، فغلب عليها بعد أن خلع يزيد ابن عبد الملك، وأخذ ابن المهلب عامل يزيد على البصرة، وهو عدى بن أرطأة الفزارى فحبسه.

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك أمير المدينة[١]، ونتوقف مع حصاد سنوات خلافة يزيد بن عبد الملك.



(١) انظر : تاريخ الطبرى (٦/ ٥٧٤ ـ ٥٨٩)، البداية (٩/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، النجوم الزاهرة (١/ ٣١٤).

حصاد سنوات خلافة

يزيد بن عبد الملك

فى سنة اثنتين ومائة: سار العباس بن الوليد بن عبد الملك، ومسلمة بن عبد الملك بتوجيه من يزيد بن عبد الملك إلى مقاتلة يزيد بن المهلب الخارج عن الخلافة

وتم اللقاء بين الفريقين، وقُتل يزيد بن المهلب، ودارت الدوائر على أهل المهلب فقُتل منهم جملة منهم المفضل بن المهلب.

وفيها: أغزى يزيد بن أبى مسلم - وهو بأفريقية - محمد بن أوس الأنصارى فى البحر صقلية من بلاد المغرب، وأغزى معه الناس فغنم وسلم.

وابن أبى مسلم هذا، هو كاتب الحجاج، ووزيره وخليفته بعد موته على العراق، وأساء السيرة، فأهلك الخلق، وظلم العباد.

فلما تولى على إفريقية، وأراد أن يكرر ما فعله فى العراق بأهل المغرب كان فى ذلك مقتله.

ومن عجائب ما يروى فى ذلك أن محمد بن يزيد الأنصارى قال:

بعثنى عمر بن عبد العزيز حين ولى، فأخرجت من فى السجون من حبس سليمان ما خلا يزيد بن أبى مسلم، فنذر دمى، فلما مات عمر ولاه يزيد بن عبد الملك أفريقية وأنا بها، فأُخذتُ فأتى بى فى شهر رمضان عند الليل، فقال ابن أبى مسلم: محمد بن يزيد؟ قلت: نعم.

قال: الحمد لله الذى أمكن منك بلا عهد ولا عقد، فطالما سألت الله أن يمكننى منك.

قلت: وأنا طالما سألت الله أن يعيذنى منك. قال: فوالله ما أعاذك الله منى، والله لو أن ملك الموت سابقنى إليك لسبقته!

قال: وأقيمت المغرب. قال: فصلى ركعة، فثاربه الجند فقتلوه، وقالوا: خذ أى طريق شئت[1].

وفى هذه السنة: غزا العباس بن الوليد بن عبد الملك فافتتح دبسة من أرض

---

(١) خبرٌ لا بأس به. أخرجه خليفة (ص/٢٠٩) فى طبقاته.

الروم، وأقام الحج عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى.

وفى هذه السنة: غزا عمر بن هبيرة الروم بأرمينية، فهزمهم وأسر منهم بشراً كثيراً، قيل: سبعمائة أسير.

وفيها: عزل يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة عن العراق وخراسان، وذلك أنه لما ولى لم يرفع من الخراج شيئا[١].

ثم جاءت أحداث سنة ثلاثة ومائة.

وفى هذه السنة: ضُمّت مكة إلى عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى، فجمعت له مع المدينة، وولى عبد الواحد بن عبد الله النضرى الطائف، وعزل عبد العزيز عبد الله بن خالد عن مكة.

وفى نفس السنة: غزا يزيد بن مسروق سردانية من أرض المغرب فغنم وسلم.

وفيها: جمع يزيد بن عبد الملك العراق لعمر بن هبيرة، وعزل عبد العزيز بن الحكم بن أبى العامر.

وفى نفس السنة: قُتل أمير الأندلس: السمح بن مالك الخولانى، قتلته الروم[٢]

أحداث سنة أربع ومائة

فيها: كانت معركة نهر الرّان[٣]، فالتقى المسلمون والكفار الترك، وعلى المسلمين يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمى، وعلى الترك ابن الخاقان، وذلك بقرب باب الأبواب، ونصر الله الإسلام، وهزم الترك شر هزيمة، وفتح الحكمى بلنجر[٤].

وفيها: عزل يزيد بن عبد الملك والى أرمينية معلق بن صفار، وولاها الجراح ابن عبد الله الحكمى، وأقام الحج عبد الواحد بن عبد الله النضرى.

وفيها: غزا عثمان بن حيان المرى وعبد الرحمن بن سليم الكلبى فنزلا على

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٠٨ ـ ٢١٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ٧٠)، تاريخ الإسلام (٧/ ٨)، البداية (٩/ ٢٤٤ ـ ٢٤٩).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢١٠)، الكامل (١/ ١٠٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ٦١٩)، تاريخ الإسلام (٧/ ١٠)، البداية (٩/ ٢٤٩).

(٣) الران أو أران هو الاسم العربى لألبانيا القديمة، وكان جزءاً من ارمينية الكبرى.

(٤) بلنجر. مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.

سسره فافتتحاها وفتح عثمان قيصرية، حصنًا من حصون الروم.

وفيها: غزا عمرو بن فاتك الكلبى فى البحر فغنم وسلم وقاتل سعيد بن عمرو نائب خراسان أهل الصفد وحاصر أهل حجندة وقتل خلقًا كثيرًا، وأخذ أموالاً جزيلة وأسر رقيقًا كثيرًا جدًا.

وفى ربيع الأول من تلك السنة: عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك.

وفى هذه السنة: ولد السفاح أول خلفاء بنى العباس، وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على، وقد بايع أباه فى الباطن جماعة من أهل العراق.

وكان والى الحرمين والطائف هو عبد الواحد بن عبد الله النضرى، وعلى العراق والمشرق عمر بن هبيرة[1].

أحداث سنة خمس ومائة

فى هذه السنة: زحف الخاقان ملك الترك فى جمعٍ كثيفٍ من الأتراك نحو أرمينية، فزحف له الجراح الحكمى، فالتقوا بموضعٍ يقال له: الزم بين الكر والراس، وذلك فى شهر رمضان.

فاقتتلوا أياماً، ثم كانت الدائرة على الكافرين، فهزموا شر هزيمة.

وفيها: غزا الجراح الحكمى بلاد اللاّن، وفتح حصوناً كثيرة، وبلاداً متسعة الأطراف، فأصاب غنائم جمة، وسبى خلقاً كثيراً من أبناء الترك.

وفيها: غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم، وغزا مسلم بن سعيد بلاد الترك، وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد، فصالحه مالكها على مالٍ كثيرٍ يحمله إليه.

وفيها: حج بالناس إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك، ومات الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، يوم الجمعة لخمسٍ بقين من شعبان سنة خمس ومائة[2].

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢١١)، تاريخ الطبرى (٧/ ٧)، تاريخ الإسلام (٧/ ١١)، البداية (٩/ ٢٥٦).
(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢١٣)، تاريخ الطبرى (٧/ ٢١)، تاريخ الإسلام (٧/ ١٣)، البداية (٩/ ٢٥٩).

مثالب يزيد بن عبد الملك ووفاته

ذكر أصحاب السير والتواريخ فى ترجمة يزيد بن عبد الملك بعض المثالب التى وقعت منه فى خلافته.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: كان يزيد يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلى الخلافة، فلما ولى عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم.

وقد اتهمه بعضهم فى الدين، وليس بصحيح[1]، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتى[2].

وقال مؤرخ الإسلام الذهبى: كان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغوانى[3].

قلت: ومن تلك الأخبار ما رواه حماد الراوية، وعلى بن عمروس أنه كان ليزيد بن عبد الملك جارية يقال لها: حبابة، وكان لها عاشقاً شديد الوجد بها، فقال لها يوماً: إنى قد وليت فلاناً الخادم ما حوته يدى شهراً، لأخلو أنا وأنت فلا يشغلنا أحدٌ.

فقالت: إن كنت أنت قد وليته، فقد عزلته أنا، فغضب لذلك وخرج من المجلس الذى كان فيه، فلما أضحى النهار فلم يرها ضاق صدره، وقل صبره، فاحتال حتى مرت به ثم قال لها: فإنى قد عزلته، فقالت: فإنى قد وليته[4]!!

بل كان تعلقه بهذه الجارية، وحزنه على فراقها من أسباب وفاته، فقد دخل

---

(١) أوردنا تلك الأخبار فى كتاب «افتراءات وأباطيل عن بنى أمية».

(٢) انظر. البداية (٩/ ٢٦٠).

(٣) انظر: السير (٥/ ١٥٢).

(٤) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الخرائطى (٦٣٨) فى «اعتلال القلوب»، والأصفهانى (١٥/ ١٢٨، ١٢٩) فى الأغانى من طريقين، وهو فى الشعر والشعراء (١/ ٤٢٥) لابن قتيبة، والذهبى (٧/ ٢٨١) فى تاريخ الإسلام.

يوماً بعد موت حبابة إلى خزائنها ومقاصيرها، وطاف فيها، ومعه جارية من جواريها، فتمثلت الجارية:

كفى حزناً بالوالة الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة صفرا

فصاح صيحةً، وخرّ مغشياً عليه، فلم يفق إلى أن مضى من الليل القليل، فلم يزل بقية ليلة باكياً، ومَنْ عنده، فلما كان اليوم الثاني، وانفرد في بيتٍ يبكي عليها جاءوا إليه فوجدوه ميتاً[١].

وكانت وفاته في سنة خمس ومائة لخمس ليالٍ بقين من شعبان ببلقاء من أرض دمشق، ودامت خلافته أربع سنين وشهراً، وصلى عليه ابنه الوليد، وهو ابن خمس عشرة سنة[٢].



(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الطبري (٧/ ٢٣) في تاريخه، والخرائطي (٤١٨) في «اعتلال القلوب»، والأصفهاني (١٥/ ١٤١) في الأغاني، وابن الجوزي (ص/ ٤٩١) في ذم الهوى، وأورده الذهبي (٥/ ١٥٢) في السير.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٧/ ٢٢).

الولاة والقضاة في خلافة يزيد

مكة : ـ عزل عنها أبا بكر بن حزم، وولاها عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، في سنة إحدى ومائة، ثم عزله، وولى عبد الواحد بن عبد الله سنة أربع ومائة، فلم يزل عليها حتى مات يزيد.

المدينة : عزل عنها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد، فضمها يزيد مع الطائف إلى عبد الرحمن بن الضحاك، وذلك في سنة ثلاث ومائة، ثم عزله، وضمها مع الطائف إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري سنة أربع، حتى مات يزيد.

البصرة: خلع يزيد بن المهلب، فقدم البصرة في رمضان سنة إحدى ومائة، وبها: عدي بن أرطأة، فظهر عليه يزيد، فحبسه، ثم سار إلى واسطٍ، واستخلف على البصرة أخاه مروان بن المهلب.

فلما قُتل يزيد في سنة اثنتين، تراضى أهل البصرة بشبيب المازني، ثم قدَّم مسلمة بن عبد الملك وهو على العراق عبد الرحمن بن سليم، ثم ولى عبد الملك ابن بشر بن مروان، ثم ولى يزيد على العراق كله عمر بن هبيرة الفزاري، فأناب على البصرة سعيد بن عمرو الحرشي، ثم حسان بن عبد الرحمن الفزاري من أهل دمشق، ثم فراس بن سمي الفزاري، فلم يزل عليها والياً حتى مات يزيد.

الكوفة : مات عمر بن عبد العزيز وعليها عبد الحميد بن عبد الرحمن فأقره يزيد بن عبد الملك، ثم عزله مسلمة بن عبد الملك وهو والي العراق، وولاها محمد بن عمرو بن الوليد، ثم عزله ابن هبيرة سنة ثلاث ومائة، وولى الصعر بن عبد الله حتى مات يزيد بن عبد الملك.

خراسان: كان بها عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، فلما خلع يزيد بن المهلب بعث أخاه مدركاً، فمنعه عبد الرحمن من الدخول، فلما قدم مسلمة على العراق، بعث سعيد بن عبد العزيز بن الحارث، فأقره ابن هبيرة، ثم عزله وولى

سعيد بن عمر والحرشى، وذلك فى سنة ثلاث ومائة ثم عزله، وولى مسلم بن سعيد الكلابى فى سنة أربع ومائة.

سجستان: ولاها يزيد بن عبد الملك للقعقاع بن سويد الكوفى، فعزله ابن هبيرة وولى السيال بن المنذر النعمانى.

السند: مات عمر وعليها عمرو بن مسلم، ثم ولاها يزيد بن المهلب للشيبانى بعد أن غلب على البصرة، فلم يزل عليها حتى قدم عليها هلال بن أحوز، بعثه مسلمة بن عبد الملك، وذلك فى سنة اثنتين ومائة، ثم ولاها ابن هبيرة سنة ثلاث ومائة لعبيد الله بن على السلمى، ثم عزله وولى عبد الحميد بن عبد الرحمن الغطفانى حتى مات يزيد بن عبد الملك.

البحرين واليمامة: ولى يزيد عليها إبراهيم بن عربى.

أرمينية: ولاها يزيد لمعلق بن صفار البهرانى الحمصى سنة ثلاث ومائة، ثم عزله فى سنة أربع ومائة، وولى الجراح بن عبد الله الحكمى.

الجزيرة: ولاها يزيد لفائد بن محمد الكندى، والعرس بن قيس الكندى.

أفريقية: وليها يزيد بن أبى مسلم فى ذى القعدة من سنة إحدى ومائة فقُتل بها، فولى يزيد بن عبد الملك عليها بشر بن صفوان فى سنة اثنتين ومائة.

ثم خرج بشر وافدًا إلى يزيد بن عبد الملك، واستخلف يحيى الكلبى سنة خمس ومائة، فقدم على دار الخلافة، وقد مات يزيد بن عبد الملك.

أما قضاء البصرة فقد تولاه النضر بن أنس بن مالك، ثم موسى بن أنس فى سنة اثنتين ومائة، ثم عبد الملك بن يعلى سنة ثلاث ومائة.

والقضاة على الكوفة كان القاسم بن عبد الرحمن، ثم الحسين بن الحسن الكندى فى سنة ثلاث ومائة.

وتولى **القضاء فى المدينة** مسلمة بن عبد الله المخزومى، ثم سعد بن إبراهيم العوفى فى سنة ثلاث ومائة، ثم سعيد بن سليمان بن زيد فلم يزل قاضياً عليها

حتى مات يزيد بن عبد الملك.

وظيفة **الشرط**: تولاها كعب بن حامد حتى مات يزيد.

أما الخراج والجند والرسائل، فتولى كل ذلك صالح بن جبير الغدانى، ثم أسامة بن زيد اليمانى.

الخاتم وبيوت الأموال: تولاها مطير مولى يزيد بن عبد الملك.

الحرس: تولاه غيلان ختن أبى معاوية.

ويلاحظ أن يزيد بن عبد الملك حرص على استبدال عمال عمر بن عبد العزيز فى مواطن كثيرة، مما يوضح التغيير الذى طرأ على شخصيته.





اقرأ فى الصفحات التالية:

[١] خلافة هشام بن عبد الملك.

[٢] حصاد سنوات خلافة هشام.

[٣] وفاة هشام بن عبد الملك.

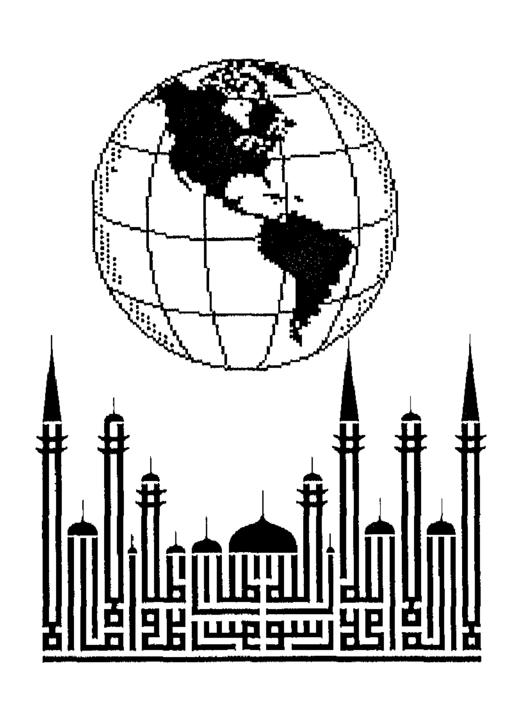
[٤] ذكر الولاة والقضاة فى خلافة هشام.

[٥] خلافة الوليد بن يزيد وحصاد خلافته.

[٦] مقتل الوليد بن يزيد الفاسق.

[٧] ذكر الولاة والقضاة فى خلافة الوليد.

[٨] خلافة يزيد بن الوليد الناقص.



(٩) خلافة هشام بن عبد الملك

هو هشام بن عبد الملك بن مروان، أبو الوليد، القرشى، الدمشقى، الأموى.

ولُد فى سنة اثنتين وسبعين، واستخلف فى شعبان سنة خمس ومائة، وذلك بعهدٍ معقود له من أخيه يزيد، ثم من بعده لولد يزيد، المسمى بالوليد.

كان هشام بن عبد الملك عندما أُبلغ بوفاة يزيد، وتوليه من بعده بالزيتونة فى منزله، فجاءه البريد بالعصا والخاتم، وسلّم عليه بالخلافة، فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق، دار الخلافة يومئذ.

ولعلنا نستطيع تلخيص سيرته فى خلافته بكلمات مؤرخ الإسلام الذهبى - رحمه الله - حيث يقول: كان حريصاً جماعاً للمال، عاقلاً، حازماً، سائساً، فيه ظلمٌ مع عدلٍ.

ولعل مما يعد فى مناقبه أنه ما كان أحدٌ أكره إليه الدماء من هشام بن عبد الملك، وقد قام فى خلافته ببناء مدينة الرصافة بقنسرين، وكان يحب السكنى بها فى الصيف.

وقد أظهر هشام بن عبد الملك علة جمعه للأموال بقوله: ما ترون من جمعى لهذا المال، وصونه فإنه لكم(١).

ومن دلائل حزمه، وحسن سياسته أن عبد الله بن على قال، وهو العباسى: جمعتُ دواوين بنى مروان، فلم أر ديواناً أصح، ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

وذلك أنه لم يكن أحدٌ من بنى مروان أشد نظراً فى أمر دواوينه، ولا أشد مبالغة فى الفحص من هشام بن عبد الملك.

وفى يومٍ تفقد بعض ولده، فوجد أنه لم يحضر الجمعة، فقال له موبخاً: ما منعك من الصلاة، فقال: نَفَقَتْ دابتى. فقال له: أفعجزت عن المشى فتركت

(١) انظر: تاريخ الطبرى (٧/ ٢٠١).

الجمعة؟! فمنعه الدابة سنة[1].

فأى حزمٍ هذا؟ وأى سياسة تلك للأبناء؟ وأى أبناء! أبناء الخليفة!

ومن مواقفه، والتى تُعد فى سجل مناقبه: قيامه بقوة على المبتدعين.

فهذا غيلان القدرى، كان قد أظهر القول بالقدر فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فاستتابه عمر، فقال: لقد كنت ضالاً فهديتنى، فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً، وإلا فاصلبه واقطع يديه ورجليه.

فلما كان عهد هشام بن عبد الملك ناظره الأوزاعى فانقطع غيلان، ولم يتب، فقال هشام: ويحك يا غيلان، قد أكثر الناس فيك، فنازعنا بأمرك، فإن كان حقاً اتبعناك، وإن كان باطلاً نزعت عنه.

قال: نعم، فدعا هشام ميمون بن مهران ليكلمه، فقال له ميمون: سل، فإن أقوى ما تكونون إذا سألتم. قال له: أشاء الله أن يعصى؟ فقال له ميمون: أفعُصى كارها؟! فسكت، فقال هشام: أجبه فلم يجبه، فقال له هشام: لا أقالنى الله إن أقلته، وأمر بقطع يديه، ورجليه[2]، فنفذت فيه دعوة الإمام الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وظل هشام بن عبد الملك على تلك السياسة الحازمة حتى كانت وفاته فى سنة خمس وعشرين ومائة.

فما هو حصاد سنوات خلافة هشام بن عبد الملك، هذا هو حديثنا فى الصفحات التالية.



(١) انظر: تاريخ الطبرى (٧/ ٢٠٤).

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه الطبرى (٧/ ٢٠٣) فى تاريخه، وانظر: تاريخ الإسلام (٧/ ٤٤١).

حصاد سنوات خلافة هشام بن عبد الملك

فى سنة خمس ومائة: استخلف هشام فى تلك السنة، فعزل عمر بن هبيرة عن العراق كله، وكذا المشرق، وولى ذلك كله لخالد بن عبد الله القسرى.

وكان والى الحرمين فى تلك السنة هو عبد الواحد النضرى، وانتهت السنة.

ثم دخلت سنة ست ومائة.

وفيها:

عزل هشام والى الحرمين، وولى ذلك خاله إبراهيم بن هشام المخزومى، وغزا الحجاج بن عبد الملك اللّن، فصالح أهلها، وأدّوا الجزية.

وفى هذه السنة: غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك، فقتل ابن الخاقان، وجماعة من الترك كبيرة، وغزا محمد بن أبى بكر فأصاب جزيرة قورسيقا، وسردانية.

وغزا الجراح الحكمى فى أرض الخزر، فصالحوه، وأعطوه الجزية، وخراج الأرض.

وحج بالناس فى تلك السنة الخليفة هشام بن عبد الملك[1]، ثم دخلت سنة سبع ومائة.

أحداث سنة سبع ومائة

فى هذه السنة: عُزل الجراح الحكمى عن أذربيجان، وأرمينية، وولى مسلمة ابن عبد الملك، فنهض مسلمة فغزا قيصرية وافتتحها بالسيف.

وفيها: غزا أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان بلاد غرشتان، فانهزم المسلمون واستشهد منهم الكثير، ورجع الجيش مهزوماً.

وفيها: كان بالشام طاعون شديد، فخاف الناس منه خوفاً شديداً.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢١٦)، الكامل (٥/ ١٢٨)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ٢٩ ـ ٣٩)، تاريخ الإسلام (٧/ ١٤)، البداية (٩/ ٢٦٢).

وفيها: غزا أسد القسرى جبال الطالقان والغُور، وكان أهلها خرجوا بأموالهم وأهلهم إلى كهفٍ عظيمٍ فى جبلٍ شاهقٍ، ليس فيه طريق مسلوك، فعمل أسد توابيت، وربطها بالسلاسل، ودلاّها عليهم، فظفر بهم، وعاد سالماً غانماً.

وفيها: غزا معاوية بن هشام الخليفة ومعه أهل الشام فعبروا البحر، ووصلوا إلى جزيرة قبرص.

وحج بالناس فى تلك السنة إبراهيم بن هشام المخزومى خال الخليفة(1).

وفى هذه السنة: خرج باليمن رجلٌ يقال له: عباد الرعينى، فدعا إلى مذهب الخوارج، واتبعه طائفةٌ من الناس، فخرج إليهم يوسف بن عمر، فقتل الرعينى وأصحابه.

وكان الولاة على الأقاليم فى هذه السنة هم الولاة فى السنة الماضية.

أحداث سنة ثمان ومائة

فيها: غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم، وافتتح مدينة قيسارية، وغزا إبراهيم بن هشام بلاد الروم، وافتتح حصناً من حصونهم.

وفيها: زحف خاقان ملك الترك إلى أذربيجان، وحاصر مدينة وارثان، ورماها بالمنجنيق، فسار إليه أمير تلك البلدة الحارث بن عمرو فالتقى مع خاقان الترك فهزمه، وقُتل من جيشه خلق كثير، وفر الخاقان هارباً.

وحج بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن هشام، وهو والى الحرمين والطائف، وباقى ولاة العام الماضى كانوا هم ولاة هذه السنة(2).

أحداث سنة تسع ومائة

فيها: عزل هشام بن عبد الملك والى خراسان أسد بن عبد الله القسرى، وأمره أن يقدم إلى الحج، فأقبل منها فى رمضان، واستخلف على خراسان الحكم بن

---

(1) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢١٧)، تاريخ الطبرى (٧/ ٤٠)، تاريخ الإسلام (٧/ ١٦)، البداية (٩/ ٢٧٤)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٣٢).

(2) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢١٨)، تاريخ الطبرى (٧/ ٤٣)، البداية (٩/ ٢٨٨)، تاريخ الإسلام (٩/ ١٧).

عوانة الكلبى.

وفيها: غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض الروم، وافتتح حصناً يقال له: الطينة، **وحج بالناس** والى الحرمين إبراهيم بن هشام.

وفيها: قدم من خراسان من دعاة بنى العباس رجلٌ يقال له: زياد أبو محمد الهمدانى فنزل باليمن، وفى نفس السنة: استعمل الخليفة هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمى، وكان فاضلاً خيراً، وكانوا يسمونه الكامل لفضله عند أهل خراسان[1].

أحداث سنة عشر ومائة

فى هذه السنة: غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الترك عند باب اللاّن حتى لقى خاقان ملك الترك فى جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهرٍ فى مطرٍ شديدٍ، ثم هزمهم الله.

وفيها: غزا معاوية بن هشام أرض الروم، وافتتح حصنين من حصونهم: صملة، والبوة.

وحج بالناس فى هذه السنة والى الحرمين والطائف إبراهيم بن هشام، وكان الوالى على العراق كله خالد بن عبد الله، وعلى بلاد خراسان: أشرس بن عبد الله.

وفى هذه السنة: أرسل الخليفة بهشام بن عبيدة والياً إلى إفريقية، فلما وصل إليها جهز جيشاً، فالتقوا مع المشركين، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا قائدهم، وانهزم الباقون فارين، وغنم المسلمون غنائم كثيرة[2].

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائة

فى هذه السنة: عُزل مسلمة بن عبد الملك عن أرمينية وأذربيجان، وأُعيد

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢١٨)، تاريخ الطبرى (٧/٤٦)، تاريخ الإسلام (٧/١٩)، النجوم الزاهرة (١/٣٤٠).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢١٩)، تاريخ الطبرى (٧/٥٤)، والكامل (٥/١٥٥)، النجوم الزاهرة (١/٣٤١)، البداية (٩/٢٩٢).

الجراح الحكمى، فسار إلى مدينة تفليس بأرمينية، وأغار على مدينة البيضاء التى للترك فافتتحها ورجع، فجمعت الترك جموعاً كثيرة مع ابن خاقان، فدخلوا أرمينية، وحاصروا أهل أردبيل، وهى من أشهر مدن أذربيجان.

وفيها: غزا مستنير بن الحارث فى أفريقية، فركب البحر فى مائةٍ وثمانين مركباً، فدخل عليهم الشتاءُ، فرجع، فجاءت ريحٌ عاصفٌ فغرقت عامة تلك المراكب، ومن فيها، ولم يسلم من المراكب إلا سبعة عشر مركباً، فإنا لله وإن إليه راجعون.

وفى هذه السنة: عزل الخليفة أشرس بن عبد الله السلمى عن خراسان، وولى عليها الجنيد بن عبد الرحمن، فلما قدم خراسان تلقته خيول الأتراك منهزمين من المسلمين، وهو فى سبعة آلاف، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم، ومعهم ملكهم خاقان.

وكاد الجنيد أن يهلك، ثم نصره الله عليهم، فهزمهم هزيمة منكرة، وأسر ابن أخى ملكهم، وأرسله إلى خليفة المسلمين أسيراً(١).

وكان متولى الحج، وعمال الأقاليم فى هذه السنة كالسنة التى قبلها.

ثم دخلت سنة اثنتى عشر ومائة

فى هذه السنة: زحف الجراح الحكمى بجيشٍ عظيمٍ من برذعة بأرمينية، فقدم أذربيجان فعسكر فى مرج سبلان، وبها نهر فعقد عليه جسراً فهو اليوم يدعى: جسر الجراح.

ثم زحف إلى ابن خاقان، وهو محاصر أهل أردبيل، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الجراح ـ شهيداً ـ لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتى عشر ومائة، وغلبت الترك أذربيجان، ووصلت خيولهم إلى قريبٍ من الموصل، ونصبوا على بلدة أردبيل المجانيق، وأهل أردبيل يقاتلونهم، فلما طال عليهم الحصار أسلموها،

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٢٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ٧٠)، تاريخ الإسلام (٧/ ٣٠٤)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٤٢)، البداية (٩/ ٣٤٠).

ودخلها الترك، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية، فلله الأمر من قبل، ومن بعد.

ولما قُتل الجراح ـ رحمه الله ـ أرسل الخليفة بسعيد بن عمرو الحرشى، فمضى حتى قدم برذعة، ثم مضى نحو أذربيجان، والتقى مع طاغية الترك فهزمهم، وهرب الخاقان، وعاد الحرشى بأسارى المسلمين، وغنم غنائم كثيرة، فالحمد لله على فضله وتوفيقه.

ثم خرج فى نفس السنة مسلمة بن عبد الملك فى شوال فى طلب الترك، فى مطرٍ شديدٍ وثلوجٍ، فافتتح الكثير من المدائن والحصون، حتى وصل الحال بأعداء الله المشركين أن أحرقوا أنفسهم بالنار فى مدائنهم، وكان فضل الله على المسلمين عظيماً.

وخلف مسلمة بمدينة الباب الحارث بن عمرو الطائى.

وفى هذه السنة: غزا ثابت بن خثيم صقلية، فأصاب سبايا وغنائم عظيمة، وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وفى هذه السنة أيضاً: غزا أشرس بن عبد الملك السلمى فرغانة، فلقيه الزحف، وأحاطت به الترك، فبلغ ذلك الخليفة هشام بن عبد الملك، فولى الجنيد ابن عبد الرحمن موضعه.

وكأنه عام الفتوحات والجهاد، فافتتح معاوية بن هشام بلدة خرشنة الرومية من ناحية ملطية[1].

أحداث سنة ثلاث عشرة مائة.

فى هذه السنة: خرج الجنيد ناحية طخارستان للغزو، فاجتمعت له الترك بالقرب من سمرقند، فسار الجنيد حتى كان على مسيرة أربع ليالٍ من سمرقند، فلقيه خاقان الترك فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى أمسوا فتحاجزوا، وكتب الجنيد إلى والى سمرقند يأمره بالقدوم عليه، فأتاه فلقيته الترك قبل أن يصل إلى الجنيد، فقُتل سورة بن أبجر وعامة جيشه، ثم لقيهم الجنيد فهزمهم الله ومضى الجنيد فدخل

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٢١)، تاريخ الطبرى (٧/ ٧٠)، تاريخ الإسلام (٧/ ٣٠٤)، الكامل (٥/ ١٧٠)، النجوم (١/ ٣٤٦)، البداية (٩/ ٣٤٠).

سمرقند.

وفى هذا العام أعيد مسلمة بن عبد الملك إلى أذربيجان، فأخذ الوالى عليها - سعد بن عمرو - فسجنه، فجاءه أمر الخليفة بإطلاقه،

وفيه: كانت وقعة عظيمة بأرض الروم، انكسر فيها المسلمون، وتمزقوا، وكانوا ثمانية آلاف، عليهم مالك بن شبيب الباهلى، وكان قد دخل عليهم فى بلاد الروم، فحشدوا له، فاستشهد فى هذه الوقعة جمٌ غفير، منهم: مالك الأمير، والبطّال الذى تضرب الأمثال بشجاعته، وعبد الوهاب بن بُخْت الزاهد.

وفى هذا العام: أرسل مسلمة بن عبد الملك الجيوش فى بلاد خاقان، ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم، وأسر وسبى، ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر، وقتل ابن خاقان.

وفى هذه السنة: صار من دُعاة بنى العباس جماعة إلى خرسان، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم فقتله، وقال: من أصيب منهم فدمه هدر[1].

أحداث سنة أربع عشرة ومائة

فى أول هذه السنة: عزل هشام أخاه مسلمة عن أذربيجان والجزيرة بابن عمه مروان بن معاوية، فسار مروان بجيشه، حتى جاوز نهر الرّمّ، فقتل وسبى، وأغار على الصقالبة.

وفيها: غزا معاوية بن هشام بلاد الروم، وأسر المسلمون قسطنطين، وغزا الجنيد بلاد الصغانيان من الترك، فرجع ولم يلق كيداً.

وفيها: وُلِّى إمارة المغرب عبيد الله بن الحبحاب السلولى، فبقى عليها تسع سنين وكان خبيراً حازمًا، وقد وُلِّى خراج مصر من قبل، فبنى جامع تونس.

وفيها: عزل الخليفة خاله إبراهيم بن هشام عن ولاية المدينة، وولاها لخالد بن عبد الملك بن الحارث، وعزله عن مكة والطائف أيضاً، وولى عليهما محمد بن

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٢٢)، تاريخ الطبرى (٧/٨٨)، تاريخ الإسلام (٧/٣٠٧)، الكامل (٥/١٧١)، النجوم (١/٣٤٦)، البداية (٩/٣٤٢).

هشام المخزومى[1].

أحداث سنة خمس عشرة ومائة

وفيها: خرج الحارث بن شريح عن طاعة الخليفة، وتغلب على مرو وجوزجان، فحاربه عاصم بن عبد الله، ثم إنّ الحارث قطع بهم نهر بلخ، فسار فى طلبه أمير خراسان زسد بن عبد الله القسرى، فالتقوا، فانهزم الحارث، وفر هارباً، وهُزم أصحابه.

وحج بالناس فى هذه السنة نائب الحرمين والطائف: محمد بن هشام بن إسماعيل.

وفيها: غزا معاوية بن الخليفة أرض الروم، وافتتح حصوناً، ووقع طاعون شديد بالشام، ووقع قحط شديد، ومجاعة عظيمة فى خراسان[2].

أحداث سنة ست عشر ومائة

فيها: بعث ابن الحبحاب أمير أفريقية ببلاد المغرب جيشاً إلى بلاد السودان فغنموا غنائم كثيرة، وغزا المسلمون فى البحر مما يلى مقلية، فأصيبوا فنالوا جنّة وشهادة.

وفيها: كان الطاعوان بالعراق، وكان أشده بمدينة واسط وسواحلها، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم، وعزل الجنيد عن خراسان فمات.

وفيها: ولى الخليفة على خراسان عاصم بن عبد الله الهلالى، فلما قدم عاصم خراسان، أخذ نواب الجنيد بالضرب الشديد، وأنواع العقوبات من المصادرات والجنايات[3].

أحداث سنة سبع عشرة ومائة

وصلت الترك إلى خراسان، ومعهم الحارث بن سريج الخارجى، وعليهم

---

(١)، (٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٢٣، ٢٢٤)، تاريخ الطبرى (٧/ ٩٠، ٩٢)، تاريخ الإسلام (٧/ ٣٠٩، ٣١١)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٥٠، ٣٥٢)، البداية (٩/ ٣٤٣، ٣٤٧).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٢٤، ٢٢٥)، تاريخ الطبرى (٧/ ٩٣، ٩٩)، تاريخ الإسلام (٧/ ٣١٢، ٣١٤)، النجوم (١/ ٣٥٣، ٣٥٤)، البداية (٩/ ٣٥١، ٣٥٢).

الخاقان الكبير، فعاثوا فساداً فى البلاد والعباد، ووصلوا إلى بلدة مرو الروذ، فسار إليهم أسد القسرى فالتقاهم، وهزمهم، وقُتل من الترك خلائق لا يحصون.

وفيها: افتتح مروان بن محمد والى أذربيجان ثلاثة حصون، وأسر تُومانشاه، وبعث به إلى الخليفة هشام، فمنّ عليه، وأعاده إلى مملكته.

وفيها: عزل هشام بن عبد الملك والى خراسان عاصم بن عبد الله، وضمها إلى خالد بن عبد الله، فولاها خالدٌ لأخيه أسد بن عبد الله(١).

أحداث سنة ثمان عشرة ومائة

فى هذه السنة: غزا مروان بن محمد من أرمينية، فدخل حصن ورتنيس من ثلاثة أبواب، فهرب ورتنيس إلى بلاد الترك، وترك القلعة، فنصب مروان عليها المجانيق، فقتل أهل خُمرين ورتنيس، وبعثوا برأسه إلى مروان، فنصب مروان رأسه لأهله قلعته، فنزلوا على حكم مروان، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية.

وفيها: غزا قثم بن عوانة الكلبى صقلية، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم.

وفيها: ازداد أمر دعاة بنى العباس، فوجّه بُكير بن ماهان إلى خراسان عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس بها، فنزل مرو، وغيّر اسمه، وتسمى بخداش، ودعا الناس إلى محمد بن على العباسى، فتسارع الناس إليه وأطاعوه.

ثم أظهر الدعوة إلى الإباحية والانحلال، فرخص لبعضهم فى نساء بعض، وقال: إنه لا صلاة، ولا صوم، ولا حج، فالصوم أن تصوم عن ذكر الإمام فلا يُباح باسمه، والصلاة هى الدعاء للإمام، والحج القصد إلى الإمام.

وبدأ من أطاعوه فى النفور عنه، وبلغ خبره أسد بن عبد الله القسرى، فوضع العيون عليه حتى ظفر به، فأتى به، وقد تجهز لغزو بلخ، فسأله عن حاله، فأغلظ خداش له القول، فأمر به أسد، فقطعت يداه، وقلع لسانه، وسُملت عينه.

ثم تتبع أسد باقى أتباعه، الذين أصروا على زندقتهم فقتلهم، وصلب بعضهم عبرة لغيرهم.

---

(١) انظر ما سبق.

وفى هذه السنة: عزل الخليفة والى مصر عبد الرحمن بن خالد، وكان الوليد ابن رفاعة قد استخلفه على صلاة مصر، وكان من قبل ولى شرطتها مدة سنين.

فلما مات الوليد بن رفاعة أقره الخليفة هشام على إمرة مصر عوضاً عن الوليد ابن رفاعة، وكان ذلك فى جُمادى الآخرة من سنة سبع عشر ومائة.

ولما تم أمره جعل على شرطته عبد الله بن بشار الفهمى، وكان فى عبد الرحمن هذا لينٌ، وفى ولايته على مصر نزلت الروم بنواحى مصر، وأسروا منها خلقاً كثيراً، فلما بلغ هشاماً ذلك عزله عن إمرة مصر، وأعاد حنظلة بن صفوان ثانياً على مصر.

وذلك فى سنة ثمان عشرة ومائة، فكانت مدة ولايته على مصر سبعة أشهر وخمسة أيام.

وفى هذه السنة: عزل الخليفة خالد بن عبد الملك والى المدينة، واستعمل عليها محمد بن هشام بن إسماعيل.

وحج بالناس فى هذه السنة أمير الحرمين والطائف محمد بن هشام، وكان الوالى على المشرق كله والعراق خالد بن عبد الله، وعامله على البصرة وقضائها وصلاتها: بلال بن أبى بردة، وعلى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد بن مروان[1].

وجاءت أحداث سنة تسع عشرة ومائة

وفيها: غزا مروان بن محمد غزوة السائحة، فدخل بجيشه فى باب اللان، فلم يزل حتى خرج إلى بلاد الترك، ومر ببلنجر، وسمندر، وانتهى إلى البيضاء مدينة الخاقان، فهرب الخاقان.

وفيها: جهز أمير أفريقية المغرب جيشاً، عليهم قثم بن عوانة، فأخذوا قلعة سرداينة من بلاد المغرب، ورجعوا فغرق قثم ـ رحمه الله ـ هو وجماعة، فنال الشهادة.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٢٦)، تاريخ الطبرى (٧/ ١٠٩)، النجوم (١/ ٣٥٨)، تاريخ الإسلام (٧/ ٣١٥)، البداية (٩/ ٣٦٠).

وفيها: قصد خاقان الترك أسد بن عبد الله القسرى، فالتقاهم أسدُ بن عبد الله وواقعهم فقُتل خاقان وأصحابه، وغنم أسد أموالاً عظيمة، وفتح بلاداً لم يصل إليها غيره.

وفى هذه السنة: ظهر أحد الكذابين السحرة بالكوفة يسمى المغيرة بن سعيد، فأخذه خالد بن عبد الله القسرى الوالى، وأمره به فأحرق حياً، وكذا مَنْ كان معه.

وفيها: غزا أسد بن عبد الله بلاد الخُتَّلَ خلف نهر جيحون ببلاد السند، وقتل ملكها.

وحج بالناس فى هذه السنة: مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة هشام، وكان الولاة فى هذه السنة هم الذين فى السنة التى قبلها(1).

أحداث سنة عشرين ومائة

فى هذه السنة: غزا سليمان بن هشام بلاد الروم، وافتتح حصن سندرة، وغزا مروان بن محمد بلاد الترك.

وفى هذه السنة: وجّهت شيعة بنى العباس بخراسان إلى محمد بن على بن العباس، سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه.

فأبلغهم أنهم مخالفون لسيرته، لموافقتهم لخداش الزنديق، فرجعوا وتابوا.

وفى هذه السنة: عُزل خالد بن عبد الله القسرى عن إمرة العراق بيوسف بن عمر الثقفى، وكانت مدة ولايته أربع عشرة سنة(2).

أحداث سنة إحدى وعشرين ومائة

وفيها: غزا مسلمة بن هشام بلاد الروم، فافتتح حصن مطامير، وسار حتى أتى ملطية، وغزا مروان بن محمد من أرمينية إلى قلعة سرير الذهب ـ وهى حالياً

---

(1) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٢٦)، تاريخ الطبرى (٧/١١٣)، النجوم (١/٣٦٢)، تاريخ الإسلام ٧/٣١٦)، البداية (٩/ ٣٦١)، الكامل (٥/ ٢١٥).

(2) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٢٧)، تاريخ الطبرى (٧/١٣٩)، تاريخ الإسلام (٧/٣١٨)، النجوم (١/ ٣٦٤)، البداية (٩/٣٦٥)، الكامل (٥/ ٢١٩).

فى جنوب الاتحاد السوفيتى ـ من بلاد الروم، فقتل وسبى وغنم، ثم أتى قلعة ثانية فقتل وأسر.

ثم دخل حصن الملك، فهرب الملك، حتى صالحوا مروان فى السنة على ألف رأس من الماشية، ومائة ألف مُدى[1].

ثم سار مروان حتى وصل إلى أرض أزر، بجوار جبال طبرستان، وبلاد بطران فصالحوه، وصالحه أهل بلاد تومان شاه، ثم أتى جمرين فقاتلهم ولازم الحصار عليهم شهرين، ثم صالحوه، ثم افتتح مسدارة، وغيرها.

وفى هذه السنة: غزا نصر بن سيار ما وراء النهر مرتين، ثم غزا الثالثة وقتل ملك الترك كورصُل، وكان ملكاً عظيماً غزا فى المسلمين اثنتين وسبعين غزوة، ولما قبض عليه نصر أراد أن يفدى نفسه بألف جملٍ، وبألف برذون، فلم يقبل نصر وقتله.

وفيها: خرج زيد بن على بن الحسين، ووقع له مع جيش الخليفة حروب، وآل أمره إلى الهزيمة، واختفى عن الأنظار طوال هذه السنة.

وحج بالناس فى تلك السنة: والى الحرمين والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل، وكان الوالى على العراق هو يوسف بن عمر، وعلى خراسان نصر بن سيار، وعلى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد[1].

أحداث سنة اثنتين وعشرين ومائة

فيها: ظفر جيش الخليفة بزيد بن على، وقتله بالكوفة.

وفيها: خرج عبد الأعلىٰ بن حديج مولى ابن نصير، وميسرة المدغرى، رئيس البربر، وقوى شأنهما، وأمَّرت البربر عليهم ميسرة، فأسرع حبيب الفهرى إليه من صقلية فالتقى هو وميسرة، فكانت ملحمة هائلة ولكن الغلبة كانت لميسرة.

---

(١) المدى: هو مكيال أهل الشام ومصر.

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٢٨)، تاريخ الطبرى (٧/ ١٦٠)، تاريخ الإسلام (٨/ ٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٦٦)، الكامل (٥/ ٢٤٠)، البداية (٩/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

ثم إن البربر أنكرت سوء سيرة ميسرة، وتغيروا عليه فقتلوه، وأمَّروا عليهم خالد بن حميدة الزناتى، فأقبل بهم فى جيشٍ عظيمٍ، فكانت بينهم وبين جيش الخليفة ملحمة مشهورة، قُتل فيها الزناتى وسائر من معه، وقُتل فيها خلقٌ من فرسان العرب، ولذا سميت بغزوة «الأشراف».

واختلط الحابل بالنابل، واضطربت أمور الناس، وقويت شوكة الخوارج، وعمد الناس إلى عبيد الله بن الحبحاب، فعزلوه، فغضب الخليفة هشام لما بلغه، وبعث على المغرب كلثوم بن عياض القشيرى.

وحج بالناس فى هذا الموسم والى الحرمين السابق، وكان الولاة بالأقاليم هم نفس الولاة فى العام الذى قبله[1].

أحداث سنة ثلاث وعشرين ومائة

فى هذه السنة: كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة بقيادة كلثوم بن عياض من جهةٍ، وبين البربر من جهةٍ أخرى، فقُتل كلثوم قائد جيش الخلافة، واستبيح عسكره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وخرج أبو يوسف الأزدى رأس الخوارج من هذه الملحمة منتصراً، ثم اتبع المسلمين يقتل بعضهم، ويسبى البعض الآخر، وقُتل حبيب الفهرى، وابن أبى المهاجر، فقام بأمر جيش الخلافة بلج ابن عم كلثوم فانتصر على الخوارج وهزمهم شر هزيمة، وقتل قائدهم الأزدى.

وفيها: خرج خمسة وعشرون ألفاً من الروم فنزلوا بملطية، فبعث إليهم هشام ابن عبد الملك الجيوش الكثيفة، فقتلهم شر قِتْلة، والحمد لله وحده.

وفيها: أقام الحج بالناس يزيد بن هشام بن عبد الملك، الملقب بالأفقم.

وفى هذه السنة: أوفد يوسفُ بن عمر الحكمَ بن الصلت إلى الخليفة، يسأله ضم خراسان إليه مع العراق، وعزل نصر بن سيار.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٢٩)، تاريخ الطبرى (٧/ ١٨٠)، تاريخ الإسلام (٨/ ٧)، الكامل (٥/ ٢٢٩)، النجوم (١/ ٣٦٨)، البداية (٩/ ٣٧٠).

وفى هذه السنة: غزا نصر بن سيار بلاد فرغانة[1].

أحداث سنة أربع وعشرين ومائة

فى هذه السنة: عاثت الخوارج فى بلاد المغرب فساداً، ولكن بعد مقتل قائدهم ميسرة افترقوا إلى فرقتين، فلما بلغ الخليفة هشام مقتل كلثوم والى المغرب، قام بإرسال حنظلة بن صفوان الكلبى والياً على المغرب.

وفيها: غزا سليمان بن هشام بلاد الروم، فلقى ملك الروم «أليون» فقاتله، وغنم، وعاد سالماً.

وفيها: قدم جماعةٌ من دعاة بنى العباس من بلاد خراسان ـ قاصدين إلى مكة ـ فمروا بالكوفة، فبلغهم إن فى السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسرى، قد حبسهم يوسف بن عمر الثقفى، فاجتمعوا بهم فى السجن، فدعوهم إلى البيعة لبنى العباس، وإذا لديهم الاستعداد لذلك، فقبلوا منهم.

ووجدوا عندهم فى السجن أبا مسلم الخراسانى، وهو غلامٌ، يخدم عيسى بن مقبل العجلى، فأعجبهم شهامته، وقوته، واستجابته مع مولاه لهذا الأمر، فاشتراه بكر بن ماهان من العجلى بأربعمائة درهم، وخرجوا به معهم، فكانوا لا يوجهونه إلى مكانٍ إلا ذهب، ودعا إلى بنى العباس.

وحج بالناس فى هذا العام والى الحرمين كالعادة، وكان الولاة هم نفس الولاة فى العام السابق[2].

أحداث سنة خمس وعشرين ومائة

فيها: قامت فتن كثيرة بالمغرب، وشبت نيران الحرب، وكان الوالى عليها من قِبَل الخلافة حنظلة بن صفوان، فزحف إليه عكاشة الخارجى فى جمعٍ كثيف، فكانت بينهما معركة لم يسمع بمثلها، وانهزم الخوارج فيها شر هزيمة، وقتل منهم ما لا يحصى.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٣٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ١٩٢)، تاريخ الإسلام (٨/ ٩)، النجوم (١/ ٢٧٠)، البداية (٩/ ٣٨١).

(٢) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٣٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ١٩٨)، تاريخ الإسلام (٨/ ١١)، الكامل (٥/ ٢٤٩)، النجوم (١/ ٣٧٥)، البداية (٩/ ٣٨٢).

ثم جمع فلول الخوارج جموعهم، وكان رأسهم عبد الواحد الهوارى، فتجهز له حنظلة فى أربعين ألف جندى، ولكن كانت الغلبة للخوارج الذين نزلوا على مقربة من القيروان.

وهنا عبأ حنظلة جيشاً، وأكثر من السلاح، وخرج معه العلماء، والقراء، والوعاظ، وأكثر من الدعاء، والاستغاثة بالله تعالى، وضج النساء والأطفال بالبكاء. وسار حنظلة بين الصفوف مُحرضاً جنده على الشهادة، ثم كبر المسلمون مع حنظلة، والتقوا مع جيش الخوارج، وثبت الجمعان، ثم انكسرت ميسرة جيش حنظلة، ثم تراجعوا، وحملوا فهزموا الخوارج، وقتل رأسهم عبد الواحد الهوارى، وأُتى برأسه.

وعند ذلك دارت الدائرة على الخوارج البربر، وأُسر عكاشة الخارجى، وأُتى به إلى حنظلة فقتله، وبلغت القتلى من الخوارج مبلغاً عظيماً.

يقول مؤرخ الإسلام الذهبى ـ رحمه الله ـ: بلغت مائة ألف وثمانين ألفاً، وهذه ملحمة مشهورة ما سمعنا بمثلها قط، وهؤلاء الخوارج يستبيحون نساء المسلمين، وذريتهم، ودماءهم، وأموالهم، ويكفرون أهل القبلة، وتعرف بغزوة «الأصنام» باسم قرية هناك.

قلت: وهذه معروفة بالجزائر الآن، وقد حدث بها عما قريب زلازل مدمر.

ويقول الليث بن سعد ـ رحمه الله ـ:

ما غزوة كان أحب إلىَّ أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الغرب بالأصنام

وفى هذه السنة: توفى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بالرصافة، واستخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء لستٍ خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة[1].

---

(١) انظر: البيان المغرب (١/٥٨، ٥٩) لابن عذارى، تاريخ خليفة (ص/٢٣٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٠٠، ٢٠٨)، تاريخ الإسلام (٨/ ١٣)، البداية (٩/ ٣٩٠)، النجوم (٢/ ٢٧٧).

وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك

طالت أيام الخليفة هشام بن عبد الملك، وعلى الرغم مما حدث فى أيامه من اضطرابٍ فى أحوال دولته، فلم ينقطع الغزو والجهاد فى سبيل الله، بل اتسعت دولة الإسلام خصوصاً فى بلاد الترك.

وقد كان حريصاً فى خلافته على الحزم، وحسن السياسة، وعلى الخصوص فى الأمور المادية.

يحدثنا العلامة الأصمعى ـ رحمه الله ـ، فيقول:

قدم وفدٌ على أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وفيهم رجلٌ من قريشٍ يقال له: إسماعيل بن أبى الجهم، وكان أكبرهم سناً، وأفضلهم رأياً وحلماً، فقام متوكئاً على عصا، وقال: ـ يا أمير المؤمنين: إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت، وأثنت عليك فأحسنت، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مُثنيهم فضلك، أفتأذن لى فى الكلام؟

قال: تكلم، قال: أفأوجز أم أطنب؟قال: بل أوجز. قال: تولاك الله أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتُّقى، وجمع لك خير الآخرة والأولى، إن لى حوائج أفأذكرها؟

قال: نعم، قال: كبرت سنى، وضعفت قواى، واشتدت حاجتى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى.

قال: يا ابن أبى الجهم ما يجبر كسرك، وينفى فقرك؟ قال: ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار، قال: هيهات يا ابن أبى الجهم، بيت المال لا يحتمل هذا.

قال: كأنك آليت يا أمير المؤمنين ألا تقضى لى حاجة فى مقامى هذا!

قال: ألف دينار لماذا؟ قال: أقضى بها ديناً قد فدحنى حمله، وأرهقنى أهله[1].

قال: نعم المسلك أسلكتها، ديناً قضيت، وأمانةً أديت. قال: وألف دينار

---

(١) أرهقنى: أعجلنى.

لماذا؟ قال: أزوج بها من أدرك من ولدى، فأشد بها عضدى، ويكثر بها عددى.
قال: ولا بأس، أغضضت طرفاً، وحصَّنت فرجاً، وأمَّرت نسلاً، وألف دينار لماذا؟

قال: أشترى بها أرضاً فأعود بفضلها على ولدى، وبفضل فضلها على ذوى قراباتى.

قال: ولا بأس، أردت ذخراً، ورجوت أجراً، ووصلت رحماً، قد أمرنا لك بها.

فقال: الله المحمود على ذلك، وجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، والرحم خيراً.

فقال هشام: تالله ما رأيتُ رجلاً ألطف فى السؤال، ولا أرفق فى مقالٍ من هذا[1].

ومما أنشده الخليفة هشام بن عبد الملك، فى ذم الهوى قوله:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال[2]

وكانت وفاة هشام بن عبد الملك بالرصافة، يوم الأربعاء، لست ليالٍ خلون من شهر ربيع الآخر، وله أربع وخمسون سنة.

وصلى عليه الوليد بن يزيد الذى ولى الخلافة بعده، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة، وسبعة أشهر وعشر ليالٍ.

وكان له من الأولاد: معاوية، وخلف، ومسلمة، ومحمد، وسليمان، وسعيد، وعبد الله، ويزيد الأفقم، ومروان، وإبراهيم، ومنذر، وعبد الملك، والوليد، وقريش، وعبد الرحمن، وعدة بنات.

وبموت هشام بن عبد الملك مات ملك بنى أمية عملياً، واضطرب حالهم اضطراباً شديداً، وإن كانت دولتهم تأخرت بعد هشام عدة سنين كما سنبين ذلك.

ولكن نتوقف الآن مع الولاة والقضاة فى خلافة هشام بن عبد الملك قبل إكمال المسير مع خلفاء بنى أمية.

---

(١) خبرٌ حسنٌ. أخرجه القالى (١/١٤٧) فى الأمالى.

(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الأصفهانى (٧/١٩، ٢٠) فى الأغانى، والخرائطى (٩٥) فى اعتلال القلوب، واورده ابن الجوزى (ص/٣٤) فى ذم الهوى، والذهبى (٥/٣٥٢) فى السير، والسيوطى (ص/٩٣٩٥) فى تاريخ الخلفاء.

الولاة والقضاة فى خلافة هشام بن عبد الملك

مكة والمدينة والطائف: ـ تولاهم محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى سنة ست ومائة، فى جمادى الأولى، فلم يزل والياً حتى مات هشام.

اليمن: ـ ولاها هشام ليوسف بن عمر الثقفى، فقدمها لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست ومائة، فلم يزل والياً حتى كتب إليه الخليفة فى سنة عشرين ومائة بولايته على العراق، فسار واستخلف ابنه الصلت بن يوسف على اليمن، ثم ولاها أخاها القاسم بن عمر، فلم يزل والياً حتى مات هشام.

البصرة: ـ ولاها الخليفة لخالد بن عبد الله القسرى عند ولايته العراق أبان بن ضبارة الحمصى.

الكوفة: ـ ولاها خالد بن عبد الله بن عبد الملك، ثم عزله وولى إسماعيل بن أوسط البجلى، ثم عزله وولى عبد الله بن عمرو البجلى، ثم عزله وولى أخاه عاصم بن عمرو، ثم عزله وولى قبيس بن عبد الله البجلى، ثم عزله وولى نوفاً الأشعرى.

ثم عزله وولى زياد بن عبد الله الحارثى، ثم عزل خالداً سنة عشرين ومائة، وولى يوسف بن عمر، فولى الحكم بن الصلت الثقفى، ثم عزله وولى يوسف بن محمد بن القاسم الثقفى، ثم عزله وولى محمد بن عبيد الله الثقفى، ثم عزله وولى زياد بن صخر اللخمى، ثم عزله وولى عبيد الله بن العباس الكندى، ثم عزله وولى أبا أمية بن المغيرة الثقفى، فأقام جمعة حتى هرب يوسف بن عمر.

خراسان: ـ ولى خالد بن عبد الله أخاه أسد بن عبد الله، ثم عزله هشام سنة ثمان ومائة، وولى أشرس بن عبد الله السلمى، ثم عزله سنة ثلاث عشرة ومائة، وولى الجنيد بن عبد الرحمن، ثم عزله سنة خمس عشرة ومائة، وولى عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى، ثم جمعت لخالد بن عبد الله الثانية، فولى أخاه أسد ابن عبد الله، فمات أسد سنة عشرين ومائة قبل عزل خالد بقليل، واستخلف جعفر بن حنظلة البهرانى، ثمم ولّى الخليفة نصر بن سيار فلم يزل والياً حتى مات الخليفة.

سجستان: ـ ولاها خالد بن عبد الله الهمدانى، ثم الأصفح الكندى، ثم ابن أبى بردة الأشعرى، فلم يزل والياً حتى عزل خالد، وولى يوسف بن عمر العراق، فولاها محمد بن حجر العبدى، ثم إبراهيم بن عاصم العقيلى، فمات إبراهيم فولاها يوسف لحرب بن قطن الهلالى، فلم يزل والياً حتى مات الخليفة.

السند: ـ ولاها الخليفة لخالد بن عبد الله، والذى أناب عنه الجنيد بن عبد الرحمن سنتين، ثم عزله وولى تميم بن زيد، ثم عزله وولى الحكم بن عوانة، فقُتل الحكم، واستخلف محمد بن عرار الكلبى، فعزله يوسف الثقفى سنة اثنتين وعشرين ومائة، وولى عمرو بن محمد بن القاسم، فلم يزل والياً حتى مات الخليفة.

البحرين: ـ فى ولاية خالد القسرى عمل بها: محمد بن زياد البجلى، وهزان بن سعيد، ويحيى بن إسماعيل، ويحيى بن زياد الحارثى.

وفى ولاية يوسف الثقفى عمل بها: عبد الله بن شريك النميرى، ومحمد بن حسان الأسيدى، وغلب عليها المسيب بن فضالة نحواً من ثلاث سنين.

اليمامة: ـ ولاها الخليفة للمهاجر بن عبد الله، فلما مات المهاجر فولاها ابنه حتى قُتل الوليد.

مصر: ـ ولاها الخليفة لمحمد بن عبد الملك بن مروان، ثم ولاها لعبيدة بن الحبحاب مولى بنى سلول.

أفريقية: ـ كان عليها بشر بن صفوان الكلبى، فخرج عنها وافداً إلى يزيد بن عبد الملك، واستخلف يحيى بن ماعصة الكلبى، فرد هشامٌ بشر بن صفوان إليها، فقدمها سنة ست، فلم يزل والياً حتى مات سنة تسع ومائة، واستخلف نعاس بن قرط الكلبى، فعزله هشام، وولى عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، فقدمها سنة عشر ومائة.

ثم تركها السلمى واستخلف عقبة بن عبد الله التجيبى، ثم جمعها الخليفة لعبيدة بن الحبحاب مع مصر، فقدمها سنة عشر ومائة، ثم عزله سنة ثلاث وعشرين ومائة، وولاها كلثوم بن عياض، ثم ولى حنظلة بن صفوان فلم يزل والياً عليها إلى سنة تسع وعشرين.

أرمينية: ـ مات يزيد بن عبد الملك، وعليها الجراح الحكمى، فأقره هشام، ثم عزله فى سنة سبع ومائة، وولى مسلمة بن عبد الملك، ثم عزله سنة تسع، وولى الجراح مرة ثانية، فقُتل الجراح سنة اثنتى عشرة ومائة، فولاها سعيد بن عمرو الحرشى، ثم عزله سنة ثلاث عشرة، وولى مسلمة بن عبد الملك، فقفل مسلمة راجعاً، واستخلف مروان بن محمد.

القضاء: تولاه فى البصرة: ثمامة بن أنس، ثم بلال بن أبى بردة، ثم من بعده عبد الله بن بريدة فلما مات الأخير تولاه: عامر بن عبيدة الباهلى فلم يزل قاضياً حتى مات هشام، والوليد كذلك.

وأما القضاء فى الكوفة: تولاه الحسين بن الحسن الكندى، ثم سعيد بن أشرع الهمدانى، ثم محارب بن دثار، ثم الحكم بن عتيبة، ومن بعده عيسى بن المسيب البجلى، وعبد الله بن شبرمة، وأخيراً ابن أبى ليلى فلم يزل قاضياً بالكوفة حتى مات هشام والوليد.

أما القضاء فى المدينة: تولاه إبراهيم بن هشام، وأناب عنه: محمد بن صفوان الجمحى، ومن بعده الصلت بن زبيد، ثم تولاه أبو بكر بن عبد الرحمن، وأخيراً تولاه أبو بكر بن محمد بن حزم فلم يزل عليه حتى مات هشام.

وظيفة الشرط: ـ أقر الخليفة كعب بن حامد العبسى ثلاث عشرة سنة، ثم ولاه أرمينية، وولى الشرط يزيد بن يعلى العبسى.

كاتب الرسائل: ـ هو سالم مولى الخليفة.

الخزائن وبيوت المال: ـ تولى كل ذلك عبد الله بن عمرو بن الحارث.

وتولى الخاتم: الربيع بن شابور.

وتولى الحرس: نصير مولى الخليفة، ثم عزله وولى الربيع بن زياد مع الخاتم.

حاجبه: تولاه: غالب بن مسعود.

وطويت صفحة خلافة هشام بن عبد الملك لتبدأ صفحة الوليد بن يزيد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(١٠) خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

في يوم الأربعاء لستٍ خلون من شهر ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين ومائة استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

وكان والده يزيد بن عبد الملك قد عقد له الخلافة بعد أخيه هشام، فلما مات هشام سلمت له الخلافة، فأقام سنة وأشهراً.

في بدء أمر خلافته سار في الناس بسيرةٍ حسنة فزاد في أعطيات الناس، وأمر بإعطاء الزمنى، والمجذومين، والعميان، وكان كريماً لا يسأل شيئاً قط إلا وأعطاه.

ولكنه بعد فترةٍ يسيرة انقلب حاله، وتضمنت أفعاله من القبح والفواحش أشياء كثيرة فمقته الناس، وخرجوا عليه حتى قُتل كما سيأتي.

ومن كثرة أمور القبيحة، وأفعاله الشنيعة لقبوه: بـ «الفاسق».

وقد وردت الكثير من الأخبار تتحدث عن فجوره، بل وإلحاده في القرآن الكريم، وكفره بالله تعالى، ولكن بالنظر إلى أسانيد تلك الأخبار نجد أن جُلّ ما روى في زندقته ليس بصحيح[1]، مما دعا مؤرخ الإسلام **العلامة الذهبي - رحمه الله - يقول: -**

مقت الناس الوليد لفسقه، وتأثموا من السكوت عنه، وخرجوا عليه، ولم يصح عن الوليد كفرٌ ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمر، والتلوط، فخرجوا عليه لذلك[2].

ويحدثنا مصعب الزبيري عن أبيه يقول: -

كنتُ عند المهدي، فذكر الوليد بن يزيد، فقال رجلٌ: كان زنديقاً، فقال المهدي: مَهْ، خلافة الله أجلُّ من أن يجعلها في زنديق[3].

(١) وقد جمعتُ ذلك في بحث «أباطيل وافتراءات حول الخلافة الأموية».

(٢) نقلاً عن تاريخ الإسلام (٨/٢٩١، ٢٩٤).

(٣) خبرٌ صحيحٌ: انظر: تاريخ الإسلام (٨/ ٢٩١)، السير (٥/٣٧٢)، البداية (١٠/٨).

ويقول مؤرخ الإسلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش، مصراً عليها، منتهكاً محارم الله عز وجل، لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين، فالله أعلم.

لكن الذى يظهر أنه كان عاصياً، شاعراً، ماجناً، متعاطياً للمعاصى، لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحى من أحد، قبل أن يلى الخلافة، وبعد أن ولى.

ولم يزدد فى الخلافة إلا شراً ولهواً، ولذّة وركوباً للصيد، وشرب المسكر، ومنادمة الفساق، فما زادته الخلافة على ما كان قبلها إلا تمادياً وغروراً، فثقل ذلك على الأمراء، والرعية، والجند، وكرهوه كراهة شديدة[1].

وكان مصرعه فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، ودامت له الخلافة سنة وثلاثة أشهر.

ولنتعرف سوياً على أحداث تلك الحقبة القصيرة جداً من تاريخ الإسلام والمسلمين فى العهد الأموى.



(١) انظر: البداية (١٠/ ٧ ـ ٨).

حصاد خلافة الوليد بن يزيد

بدأ حكم الوليد فى سنة خمس وعشرين ومائة، وفى هذه السنة عقد البيعة من بعده لابنيه الحكم وعثمان، وجعلهما وليىّ عهده، أحدهما بعد الآخر، وجعل الحكم مقدماً على عثمان، وكتب بذلك على الأمصار.

وفى هذه السنة: ولىّ الوليدُ نصرَ بن سيار خراسان كلها، وكتب الوليدُ إلى يوسف بن عمر بالقدوم عليه، فقدم، فدفع إليه خالد بن عبد الله القسرى، ومحمداً، وإبراهيم ابنى هشام بن إسماعيل المخزومين، وأمره بقتلهم، فعذبهم حتى قتلهم.

وفى هذه السنة: كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يأمره بالقدوم عليه، ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال.

وفيها: أغزى الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد بن عبد الملك، وأمَّر على جيش البحر الأسود بن بلال المحاربى، وأمره أن يسير إلى قبرص، فيخيرهم بين المسير إلى الشام إن شاءوا، وإن شاءوا إلى الروم، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين، فنقلهم إلى الشام، واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا إليها.

وفى هذه السنة: قُتل يحيى بن زيد بن على سليل آل البيت، وكان مختفياً فى خراسان عند الحريش بن عمرو ببلخ حتى مات هشام بن عبد الملك، فبلغ خبره يوسف الثقفى.

فكتب يوسف بن عمر الثقفى إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد، فكتب نصر بدوره إلى نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلى، فأحضر الحريش، وأمر بضربه ستمائة سوط فلم يدل عليه، حتى جاء ولد الحريش فدلهم عليه فحبس.

فكتب نصر بن سيار إلى يوسف الثقفى بذلك، فكتب الوليد إلى نصر يأمره بإطلاقه من السجن، وإرساله إليه، فأطلقهم وجهزهم إلى الشام، فلما كانوا

ببعض الطريق توسم نصر منه غداراً فدار القتال بين جيش نصر بن سيار، ويحيى ابن زيد وأتباعه حتى قُتل يحيى وأتباعه[1].

أحداث سنة ست وعشرين ومائة

ظل الوليد بن يزيد فى غيّه وفجوره، وازداد فى إعلانه بالفجور حتى أحصى له أبو الزناد أنه شرب سبعين قدحاً[2].

يقول أبو الزناد ـ رحمه الله ـ: كنتُ عند هشام بن عبد الملك وعنده الزهرى، فذكرا الوليد، فتنقصاه وعاباه عيباً شديداً، ولم أعرض فى شىء مما كانا فيه، فاستأذن الوليد، فإذن له، وأنا أعرف الغضب فى وجهه، فجلس قليلاً، ثم قام.

فلما مات هشام كتب فىَّ فحملت إليه، فرحب بى وقال: كيف حالك يا ابن ذكوان؟ وألطف المسألة بى، ثم قال: أتذكر يوم الأحول وعنده الفاسق الزهرى، وهما يعيبانى؟ قلت: أذكر ذلك، فلم أعرض فى شىء مما كانا فيه.

قال: صدقت، أرأيت الغلام الذى كان قائماً على رأس هشام؟ قلت: نعم. قال: فإنه نمَّ إلىَّ بما قالا، وايم الله لو بقى الفاسق ـ يعنى الزهرى ـ لقتلته.

قلت: قد عرفت الغضب فى وجهك حين دخلت، ثم قال: يا ابن ذكوان، ذهب الأحول بعمرى، فقلت: بل يطيل الله لك عمرك يا أمير المؤمنين، ويمتع الأمة ببقائك، فدعا بالعشاء فتعشينا، وجاءت المغرب فصلينا، وتحدثنا حتى جاءت العشاء الآخرة فصلينا وجلس، وقال: اسقنى، فجاءوا بإناء مغطى، وجاء ثلاث جوار فصُففن بين يديه، بينى وبينه، ثم شرب، وذهبنا فتحدثنا، واستسقى فصنعن مثل ما صنعن أولاً. قال: فما زال على ذلك يتحدث ويستسقى ويصنعن مثل ذلك حتى طلع الفجر، فأحصيتُ له سبعين قدحاً[3].

وزاد الوليد فى السفه والفجور، واشتد على بنى هشام بن عبد الملك، فضرب سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وغَرّ به إلى عمان فحبسه بها.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٣٦)، تاريخ الطبرى (٧/ ٢٠٩، ٢٢٨)، البداية (١٠/ ٥ ـ ٦).

(٢) خبرٌ صحيحٌ. اخرجه الطبرى (٧/ ٢٥٤).

(٣) انظر السابق.

فلم يزل سليمان محبوساً بها حتى قتل الوليد بن يزيد، وحبس يزيد بن هشام.

وأخذ الوليد جارية كانت لآل الوليد، فكلمه عمر بن الوليد، فقال: لا أردها.

فكان أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه، إفساده على نفسه بنى عميه هشام والوليد بن عبد الملك، مع إفساده جند خراسان، وذلك بقتله لخالد القسرى.

فرماه بنو هشام، وبنو الوليد بالكفر، والزندقة، وبالفجور، وباللواط، وغير ذلك من الموبقات، وكان أشدهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

وكان الناس إلى قوله أميل، لأنه أظهر النسك والتواضع، وكان يقول: ما يسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس على الفتك به.

فقد كان يزيد بن الوليد من كبار البيت الأموى، وينسب إلى الصلاح والورع، فبايعه الناس على التخلص من الوليد بن يزيد الفاسق، وتم له الأمر، وقتل الفاسق، وانتهت خلافته القصيرة.

وفى الصفحات التالية نتوقف أمام مقتل الوليد بن يزيد، واستباب الأمر ليزيد ابن الوليد.



مقتل الوليد بن يزيد الفاسق

يحدثنا أحد الشهود لتلك النهاية الدموية لخليفةٍ تجرأ على المحارم، **وهو عبد الله بن واقد الجرمي ـ رحمه الله ـ فيقول:**

لما أجمعوا على قتل الوليد قلدوا أمرهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وبايعه من أهل بيته عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فخرج يزيد بن الوليد فأتى أخاه العباس ليلاً فشاوره فى قتل الوليد فنهاه عن ذلك، فأقبل يزيد ليلاً حتى دخل دمشق فى أربعين رجلاً، وكسروا باب المقصورة، ودخلوا على واليها فأوثقوه، وحمل يزيد الأموال، ونادى مناديه:

من انتدب إلى الوليد، فله ألفان فانتدب معه ألف رجل، وكثرت الجيوش حول يزيد بن الوليد فى نصرته، وكلهم قد بايعه بالخلافة.

وبلغ الوليد بن يزيد فتوجه من البلقاء متوجهاً إلى حمص، وكتب إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك يأتيه فى جندٍ من أهل حمص، وهو منها قريب، وخرج الوليد حتى انتهى إلى البخراء[1].

وتفرقوا الناس عن الوليد حتى دخلوا عليه، وقد ارتدى درعين وبيده السيف صلتاً، فأحجموا عنه، فنادى مناديهم:

اقتلوا اللوطى قتلة قوم لوط، فقتل[2].

وقُتل الوليد بن يزيد الفاسق يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.



(١) البخراء: هو قصر فى برية ورملٍ من تدمر على أميال.
(٢) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/ ٢٣٧)، وبمعناه أخرجه الطبرى (٧/ ٢٤٥) فى تاريخه.

الولاة والقضاة في خلافة الوليد

المدينة ومكة والطائف: جمعهم ليوسف بن محمد الثقفى، فلم يزل عليهم حتى قتل الوليد.

اليمن: ـ تولاه الضحاك بن زمل السكسكى حتى قُتل الوليد.

البصرة: ـ كان القاسم بن محمد بن القاسم عليها حتى مات هشام، فأقره الوليد حتى قُتل.

الكوفة: ـ تولاها عبيد الله بن العباس الكندى، ثم عزله يوسف، وولى أبا أمية ابن المغيرة الثقفى، فأقام جمعة حتى هرب يوسف بعد قتل الوليد.

خراسان: ـ أقر عليها نصر بن سيار الليثى حتى قُتل الوليد.

سجستان: ـ تولاها حرب بن قطن الهلالى حتى مقتل الوليد.

السند: ـ تولاه عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى حتى قتل الوليد.

البحرين: ـ ظل محمد بن حسان الأسدى والياً عليه حتى مقتل الوليد.

اليمامة: ـ تولى عليها المهاجر بن عبد الله الكلابى حتى قتل الوليد.

أفريقية: ـ مات هشام بن عبد الملك وعليها حنظلة بن صفوان، فلم يزل والياً حتى قتل الوليد.

عمان: ـ ولاها يوسف بن عمر الثقفى للفيض بن محمد بن كردم.

أما قضاء البصرة فتولاه عامر بن عبيدة حتى قتل الوليد، ووقعت الفتنة فاعتزل، وتولى قضاء الكوفة ابن أبى ليلى حتى قتل الوليد، وتولى قضاء المدينة سعد بن إبراهيم، ثم يحيى بن سعيد.

وظيفة الشرط: ـ تولاها عبد الرحمن بن حنبل الكلبى، ثم عزله وولى عبد الله بن عامر الكلاعى.

الخراج والجند: ـ تولاهما عبد الملك بن محمد بن الحجاج، ومن بعده الحجاج بن عمير.

الخزائن وبيوت الأموال: ـ تولى كل ذلك عبد الرحمن بن حنبل الكلبى صاحب الشرط، وتولى الحرس: غيلان ختن أبى معن، وكان حاجبه هو عيسى بن مقسم.

(١١) خلافة يزيد بن الوليد الناقص

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد القرشي، الدمشقي، الملقب بـ «الناقص» وذلك لأنه نقص من عطاء الجند بقدر ما زادهم الوليد بن يزيد الفاسق المقتول، وجعل الأعطية إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك.

وبويع له بالخلافة ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، ولكنها لم تدم شيئاً يُذكر كما سنبين ذلك وأسبابه.

بدأ يزيد بن الوليد خلافته، فخطب الناس فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد. . .

أيها الناس، إنى والله ما خرجتُ أشراً، ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة فى الملك، وما بى إطراء نفسى، ولا تزكية نفسى، وإنى لظلومٌ لنفسى إن لم يرحمنى ربى، ولكنى خرجتُ غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه حين دَرَسَت معالم الهدى، وطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحل الحرمة، والراكب البدعة، والمغير السنة.

فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمةٌ لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم، فاستخرت الله فى أمرى، وسألته ألا يكلنى إلى نفسى، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهلى وأهل ولايتى، وهو ابن عمى فى نسبى، وكفئى فى حسبى، فأراح الله منه العباد، وطهر منه البلاد، ولاية من الله وعوناً بلا حول منا ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وعونه.

أيها الناس. . . .

إن لكم عندى. . ألا أضع لبنةً على لبنة، ولا أنقل مالاً من بلدٍ إلى بلدٍ حتى أسُدَّ الثغور، فإن فضل شىء رددتُه إلى البلد الذى يليه، حتى تستقيم المعيشةُ وتكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتى على الذى بذلتُ لكم، فأنا لكم، وإن ملتُ

فلا بيعة لى عليكم، وإن رأيتم أقوى منى عليها، فأردتم بيعته، فأنا أول من يبايع، ويدخل فى طاعته، وأستغفر الله لى ولكم[1].

وكان يزيد شاباً أسمر، نحيفاً، حسن الوجه، عُرف بالنسك، والبعد عن اللهو وآلاته، ومن ذلك قوله: يا بنى أمية.. إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وينوبُ عن الخمر، فإن كنتم لابُدَّ فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا[2].

ولكن من بلائه الذى ابتلى به القول بالقدر.

يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ:

لما ولى يزيد بن الوليد، دعا الناس إلى القدر، وحملهم عليه، وقرب أصحاب غيلان القدرى.

ولذا فالمعتزلة تحبه، بل هو عندهم للمذهب أفضل من عمر بن عبد العزيز.

ولكن تخلص الناس من الوليد الفاسق، وتولى الخلافة يزيد الناقص لكى يضطرب البيت الأموى.



---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/٢٣٨) فى تاريخه، وأورده الذهبى فى السير (٥/ ٣٧٥)، وفى تاريخ الإسلام (٨/ ٣١١)، وابن كثير (١٠/ ١٣) فى البداية كلهم عن خليفة.

وأخرجه الطبرى (٧/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) من طريق آخر فى تاريخه.

(٢) خبرٌ حسنٌ. أخرجه بن أبى الدنيا فى «ذم الملاهى» وأورده الذهبى (٥/ ٣٧٦) فى السير، و(٧/ ٣١٢) فى تاريخه، وابن كثير (١٠/ ١٦) فى البداية، وابن القيم (١/ ٢٦٣) فى إغاثة اللهفان وغيرهم.



اقرأ فى الصفحات التالية:

[١] بداية النهاية: اضطراب البيت الأموى.

[٢] وفاة الخليفة يزيد بن الوليد الناقص.

[٣] ذكر الولاة والقضاء فى خلافة يزيد.

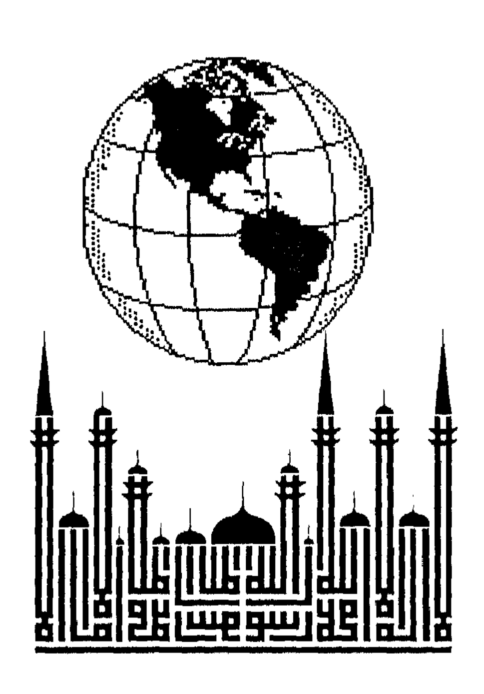
[٤] خلافة إبراهيم بن الوليد.

[٥] خلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء.

[٦] حصاد سنوات خلافة مروان.

[٧] نهاية آخر خلفاء بنى أمية.

[٨] ذكر الولاة والقضاء فى خلافة مروان.



بداية النهاية اضطراب البيت الأموى

بمجرد قتل الوليد، وولاية يزيد، إلا وانتشرت الفوضى والفتن فى أرجاء البيت الأموى، وتتلخص ملامح الاضطراب فى النقاط التالية:

(١) ـ وثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بمجرد مقتل الوليد فخرج من محبسه، وكان محبوساً بعمان، فأخذ ما كان بعمان من الأموال، وأقبل إلى دمشق، وجعل يلعن الوليد، ويعيبه.

(٢) ـ وثب أهل حمص على دار العباس بن الوليد، فهدموها، وأظهروا الطلب بدم الوليد بن يزيد، فهرب إلى أخيه الخليفة، فكاتب أهل حمص الأجناد فى الأقاليم، ودعوهم إلى الطلب لدم الوليد، فأجابوهم، واتفقوا على ألا يدخلوا فى طاعة يزيد.

فانتخبوا أميراً منهم، ووافقوا بعض أمراء الأقاليم، فطمعوا، وقصدوا دمشق، فالتقى بهم جند الخليفة، وكانت موقعة عند ثنية العقاب قتلوا فيها، وأسروا، وبايعوا ليزيد بن الوليد مكرهين مضطرين.

(٣) ـ وفى نفس الوقت وثب أهلُ فلسطين والأردن على عاملهم فقتلوه، وقاموا بإحضار يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه والياً عليهم، فدعا الناس إلى قتال يزيد بن الوليد فأجابوه، وفى نفس الوقت قام أهل الأردن بتنصيب محمد بن عبد الملك واليّا عليهم واجتمعوا على الخروج لقتال يزيد بن الوليد.

فلما بلغ يزيد بن الوليد خبرهم، بعث إليهم جيشاً، فتفرقوا، وبايع أغلبهم ليزيد بعد ذلك.

(٤) ـ وامتنع نصر بن سيار الوالى بخراسان فى خلافة الوليد المقتول من تسليم عمله بالولاية إلى منصور بن جمهور، وقد كان يزيد بن الوليد ولاها منصورا مع العراق.

(٥) ـ وفى نفس الوقت كتب مروان بن محمد إلى الغمر بن يزيد، أخى

الوليد بن يزيد يأمره بدم أخيه الوليد.

(٦) ـ وقوع الاختلاف فى خراسان بين اليمانية والنزارية، وأظهر الكرمانى الخلاف لوالى خراسان نصر بن سيار، وخاف ابن سيار قدوم الحارث بن سُريج عليه بأصحابه والترك، فيكون أمره أشد عليه من الكرمانى وغيره.

(٧) ـ واظهر مروان بن محمد الخلاف على يزيد بن الوليد، وانصرف من أرمينية إلى الجزيرة، مظهراً أنه طالبٌ بدم الوليد بن يزيد، فلما صار بحران بايع ليزيد.

(٨) ـ استقل عبد الرحمن بن حبيب ببلاد أفريقية، وخطب للعباسيين، وعظم الخلاف في بلاد الأندلس حتى اتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى.

كل ذلك يبين لنا مقدار الفتنة التى نزلت بالبيت الأموى، وعظم الاضطراب الذى أدى إلى بدء زوال دولتهم.

وكانت المفأجاة وصول الخبر بوفاة الخليفة يزيد بن الوليد، الذى لم يمض عليه فى الخلافه سنة واحدة !!.



وفاة الخليفة يزيد بن الوليد

مرض الخليفة يزيد بن الوليد بالطاعون، ولم يُمتع بالخلافة، فقد كانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر.

ويحدثنا برد بن سنان **أبو العلاء** عن لحظات الخليفة الأخيرة، فيقول:-

حضرت يزيد بن الوليد حين حضرته الوفاة، فأتاه قطنٌ، فقال: أنا رسول من وراء بابك يسألونك بحق الله لما وليت أمرهم أخاك إبراهيم، فقطّب وقال بيده على جبهته:

أنا أولىّ إبراهيم ؟! ثم قال لى: يا أبا العلاء، إلى من ترى أن أعهد؟ فقلت: أمرٌ نهيتك عن الدخول فى أوله فلا أشير عليك فى آخره.

قال: وأصابته إغماءة حتى ظننت أنه قد مات، ففعل ذلك غير مرة، فقعد قطنٌ فافتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد، ودعا ناساً فأشهدهم عليه.

ولا والله ما عهد إليه يزيد شيئاً، ولا إلى أحدٍ من الناس[1].

وكان آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد: واحسرتاه.... وأسفاه، وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد، وهو ولى العهد من بعده.

وحج بالناس فى هذه السنة عبد العزيز بن عمر، وهو والى الحرمين، والطائف. وطويت سريعاً صفحة خلافة يزيد بن الوليد، لتأتى خلافة مَنْ هو أسرع منه نهاية ، إبراهيم بن الوليد.



(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/ ٢٤١) فى تاريخه، وأورده الذهبى (٨/ ٣٤) فى تاريخه، وابن عساكر كما فى تهذيب تاريخه (٢/ ٣٠٦)، والذهبى (٥/ ٣٧٧) فى السير.

الولاة والقضاة فى خلافة يزيد بن الوليد

مكة، والمدينة، والطائف:ـ ولاها يزيد بن الوليد لعبد العزيز بن عبد الله بن عمرو، ثم عزله وولاها لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فظل عليهم والياً حتى مات يزيد.

البصرة:ـ قُتل الوليد الفاسق، وعليها محمد بن القاسم بن محمد، فهرب فاصطلح أهل البصرة على عبد الله بن عبد الله الملقب بالأفوه، فصلى بهم جمعة، ثم قدم جرير بن يزيد البجلى، ثم ولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز العراق، فكتب إلى عبد الله بن أبى عثمان فصلى بالناس، حتى قدم ابن سهيل.

الكوفة:ـ ولاها منصور بن جمهور لعبيد الله بن العباس، فعزله ابن عمر، وولى أخاه عاصم بن عمر.

سجستان:ـ قُتل الوليد وعليها حرب بن قطن، فولاها منصور بن جمهور لمحمد بن عزار، فعزله ابن عمر وولاها لحرب بن قطن فأقام شهراً، ثم خرج عنها واستخلف سوار بن الأشعر المازنى، فلم ترض به قبائل بكر بن وائل، وقاتلوا تميماً، فبعث ابن عمر سعيد بن عمرو من آل سعيد بن العاص فلم ترض تميم وبكر.

خراسان:ـ تولاها نصر بن سيار حتى انقضى أمر دولة بنى أمية.

أفريقية:ـ غلب عليها عبد الرحمن بن حبيب.

أما قضاء البصرة: فتولاها ابن عبيدة ثم اعتزل فى الفتنة، أما فى الكوفة: فتولاه ابن أبى ليلى، وتولى قضاء المدينة سعد بن إبراهيم، ثم عبد العزيز بن عمر، ثم من بعده عثمان بن عمر التيمى.

وظيفة الشرط: تولاها بكير بن شماخ اللخمى، وتولى **كتابة الرسائل:** ليث بن أبى سليمان.

الخراج والجند:ـ تولاها النضر بن عمرو اليمنى مع الحرس.

(١٢) خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

بويع لإبراهيم بن الوليد بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد، فلم يتم له الأمر، ولم يبق فيه شيئاً يذكر. فمكث سبعين ليلة فى الخلافة، ثم خُلع، ووليها مروان ابن محمد كما سيأتى. وكان ذلك فى سنة سبع وعشرين ومائة.

وفى تلك الفترة اليسيرة من خلافته، كان جماعة يسلمون عليه بالخلافة، وجماعة أخرى بالإمارة، وامتنعت طائفة ثالثة.

وبدأت خلافة إبراهيم بن الوليد بمجرد وفاة يزيد أخيه، وفى نفس الوقت دعا مروان بن محمد قيساً، وربيعة فأعطاهم أعطياتهم، وولى على قيس إسحاق بن مسلم العقيلى، وعلى ربيعة المساور بن عقبة، ثم خرج يريد الشام، واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد، فلقيه وجوه قيس: الوثيق بن الهذيل، ويزيد بن عمر الفزارى، وأبو الورد بن الهذيل، فى خمسة آلاف من قيسٍ، فساروا معه حتى قدم حلب، وبها بشر ومسرور ابنا الوليد بن عبد الملك، أرسلهما إبراهيم بن الوليد حين بلغه مسير مروان بن محمد.

والتقى القوم، فخرج أبو الورد بن الهذيل فى ثلاثمائة وكبروا، وحملوا على مروان حتى كانوا قريباً منه، ثم حولوا وجههم وقلبوا أترستهم ولحقوا بمروان، وحمل مروان ومن معه فانهزم مسرور وبشر من غير قتالٍ، فأخذهما مروان فحبسهما عنده، وأسر ناساً كثيراً من أصحابهما فأعتقهم مروان، ثم سار حتى أتى حمص فدعا أهلها إلى المسير معه والبيعة لوليى العهد: الحكم وعثمان ابنى الوليد بن يزيد، وهما محبوسان عند إبراهيم بن الوليد بدمشق، فبايعوه وخرجوا معه حتى أتى عسكر سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتالٍ شديدٍ، وحوى مروان عسكره.

وبلغ عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ما لقى سليمان، وهو معسكر فى ناحية أخرى، فأقبل إلى دمشق، وخرج إبراهيم بن الوليد من دمشق ونزل باب الجابية، وتهيأ للقتال ومعه الأموال، ودعا الناس فخذلوه، وأقبل عبد العزيز بن

الحجاج وسليمان بن هشام، فدخلا مدينة دمشق يريدان قتل الحكم وعثمان ابنى الوليد، وهما فى السجن.

وجاء يزيد بن خالد عبد الله القسرى فدخل السجن، فقتل يوسف بن عمر الثقفى، والحكم، وعثمان ابنى الوليد.

وأتاهم رسول إبراهيم فتوجه عبد العزيز بن الحجاج إلى داره ليخرج عياله، فثار به أهل دمشق فقتلوه، واحتزوا رأسه، فأتوا به أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، وكان محبوساً مع يوسف بن عمر وأصحابه، فأخرجوه ووضعوه على المنبر فى قيوده، ورأس عبد العزيز بين يديه، وحلوا قيوده وهو على المنبر، فخطبهم وبايع لمروان، وشتم يزيد وإبراهيم ابنى الوليد وأشياعهم، وأمر بجسد عبد العزيز فصلب على باب الجابية منكوساً.

وبعث برأسه إلى مروان بن محمد، وبلغ إبراهيم فخرج هارباً، وأستأمن أبو محمد لأهل دمشق فأمَّنهم مروان، ثم استأذن فى الدخول على مروان يزيد بن خالد بن يزيد، وأبو محمد بن عبد الله بن يزيد، وأبو محمد بن عبد الملك فأذن لهم، وكان أول من تكلم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد، فسلم عليه بالخلافة، وعزاه على الوليد وابنيه الحكم وعثمان ابنى الوليد، فقال: وأصيب الغلامان !! إنا لله، إن كانا الحملين الذين يؤكلان ويوضعان، ثم بايعوه.

ثم أتى مروان بن محمد دمشق فأمر بيزيد بن الوليد فنبش، وصُلب !!!.

وأتته البيعة من كل الأقاليم تسلم عليه بالخلافة، وعند ذلك أتى إبراهيم بن الوليد إلى مروان بن محمد بالجزيرة، فخلع نفسه وبايعه، فقبل منه وأمَّنه، وسار إبراهيم بن الوليد فنزل الرقة على شاطىء الفرات[1].

ثم أتى مروان كتاب سليمان بن هشام يستأمنه، فأمنه، فأتاه فبايعه، وبذلك تم الأمر لمروان، واستقامت له الخلافة.

وانتهت خلافة إبراهيم بن الوليد والتى لم تبدأ أصلاً فى شىء يستحق الذكر، لتبدأ خلافة آخر خلفاء البيت الأموى، مروان بن محمد.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه خليفة (ص/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) فى تاريخه، وبمعناه الطبرى (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) فى تاريخه، وانظر: السير (٥/ ٣٧٧) للذهبى.

(١٣) خلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء

هو مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو عبد الملك، الملقب بـ: «الحمار».

وهذا اللقب الغريب العجيب، المنفر التصق به لشجاعته ومواصلته الحروب حرباً بعد حربٍ، يصل فيها السَّير بالسُّرى، ولا يجف له لبدٌ، دوخ الخوارج بالجزيزة.

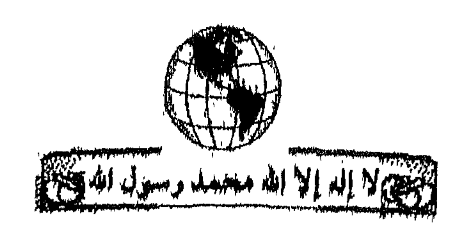
ويقال: بل العرب، تُسمى كل مائة عامٍ حماراً، فلما قارب ملك بنى أمية مائة سنة، لقبوا مروان بالحمار، وذلك مأخوذٌ من موت حمار العزيز، وهو مائه عام.

بويع له بالخلافة في سنة سبع وعشرين ومائة، ومن حينئذ بدأت حروبه التى لم تتوقف إلا مع موته. وكان مروان عظيم المروءة، محباً للهو، غير أنه شُغل بالحرب، وكان يحب المبارزة، معروفاً بها.

ولد مروان بالجزيرة من الشام، سنة اثنتين وسبعين، وأبوه متوليها، وأمه أم ولد، وقد ولي ولايات جليلة قبل الخلافة، وافتتح قونية سنة خمس ومائة، وولى الجزيرة، وأذربيجان سنة أربع عشرة ومائه.

وكان مشهوراً بالفروسية، والدهاء، ومن ذلك: أنه سار مرة حتى جاوز نهر الروم، فقتل، وسبى، وأغار على الصقالبة.

ونتوقف مع أهم الأحداث في سنوات خلافة الخليفة مروان بن محمد.



حصاد سنوات خلافة مروان بن محمد

فى سنة سبع وعشرين ومائة: ظهر فى هذه السنة سعيد بن بحدل أحد الخوارج، بنواحى الموصل، واغتنم اشتغال الناس بمقتل الوليد الفاسق، وموت يزيد الناقص، واختلافهم حول إبراهيم بن الوليد، فثار فى جماعة من الخوارج بالعراق، فالتف عليه أربعة آلاف، فقصدتهم جيوش الخلافة، ولكنها لم تتمكن من القضاء عليهم.

وفى أثناء ذلك أصيب ابن بحدل الخارجى بالطاعون فمات، وقبل موته استخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس، فالتف عليه الخوارج، والتقى هو وجيش الخلافة مرة أخرى، والدائرة تدور على جيوش الخلافة المرة تلو المرة.

ثم قصد الضحاك بطائفة ضخمة من أتباعه مروان، فاجتاز بالكوفة، فنهض إليه أهلها فهزمهم الضحاك، ودخل الكوفة فاستحوذ عليها، وأناب عليها، ثم عبأ جيوشه، وسار حتى نزل بواسط فحاربه نائب العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

ودام القتال بين الفريقين شهرين أو أكثر، وقتل خلق لا يحصى عددهم إلا الله، ثم أرسل الضحاك المحكمى إلى عبد الله بن عمر، ولاطفه على أن يدخل فى طاعته، ويقره على عمله، فأعطاه عبد الله ذلك ولابنه. ثم سار الضحاك إلى الموصل، فخرج لحربه متوليها، فقتل، فاستولى الضحاك على الموصل، واتسع سلطانه، واستفحل أمر الخوارج، فكتب مروان بن محمد الخليفة إلى ولده عبد الله، والى الجزيرة فأمره أن يعسكر بنصيبين.

فسار الضحاك إلى نصيبين، فحصره نحواً من شهرين، وبث خيله يغيرون على بلاد الجزيرة، وكثرت جموع الضحاك، وانضم إليهم من فروا من جيش مروان بن محمد، وعظم الخطب، واشتد الأمر، وأحس مروان بخطورة الحصار المستهدف به ولده.

فسار مروان بنفسه ليرفع الحصار عن أبنه، فالتقى بالضحاك، فأشار أمراء

الضحاك وكبار جنده عليه بالتأخر، وتقديم فرسانه، فقال الضحاك:

إنى والله مالى فى دنياكم هذه من حاجة، وإنما أردت هذا الطاغية، وقد جعلت لله علىَّ إن رأيته أن أحمل عليه حتى يحكم الله بيننا وبينه، وعلىَّ دينٌ، سبعة دراهم فى كُمىّ منها ثلاثة دراهم.

والتحم القتال إلى المساء، فقتل الضحاك فى المعركة، ولم يدر به أحدٌ، ودخل الليل وقُتل من الفريقين نحو من ستة آلاف، ثم أصبحوا على القتال، وساد الجو الضباب، بحيث أن الفارس لا يرى عَرّفَ فرسه، ومضى مروان فى كل وجه، وثبت جنده.

وجاء أحد رؤوس الخوارج، ويلقب بالخبيرى، فدخل فى معسكر مروان، وقطع أطناب[1] خيامه، وجلس على سريره، فكرّ نحوٌ من ثلاثة آلاف على الخبيرى فقتلوه. فقام بأمر الخوارج شيبان فتحيز بهم، ونزل بالزاب[2].

وفى الزاب خندق الخوارج على أنفسهم، فقاتلهم مروان بن محمد عشرة أشهر، كل يومٍ تعود راية لمروان مهزومة.

ثم نزل شيبان الخنادق، وطلب الوصول إلى شهر زور،[3] ثم انحدر على ماه[4]، ثم على الصيمرة[5]، فأتى بلاد كرمان، وعاث وأفسد، ثم رجع إلى عمان فقاتلوه، فقتل فى آخر مواقعه.

فى نفس السنة: خرج بأذربيجان بسطام بن الليث التغلبى، فسار حتى قدم بلد[6]، فسار إليه عسكر من الموصل فبيتهم وأصاب منهم، ثم قدم نصيبين فعاث وأفسد فى حياة الضحاك، فجهز له الضحاك عسكراً، فقتل هو وكل أصحابه، وسكنت حركة الخوارج.

---

(١) **أطناب**: أعمدة.

(٢) الزاب: هو موضع بين الموصل واربل بالعراق، ويقال له: الزاب الأعلى، أما الزاب الأسفل فبين شهرزور وأذربيجان.

(٣) **شهر زور**: هى بلدة واسعة فى الجبال بين إربل وهمذان.

(٤) ماه: بلدة بأرض فارس.

(٥) الصيمرة: بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان.

(٦) بلد: ولاية واسعة بين فارس وسجستان، وخراسان.

وفيها: خرج الحارث بن حريث الكرماني ومعه الأزد فالتقاه أمير خراسان نصر بن سيار، فانهزم نصر وقوى أمر الحارث، والتفت عليه قبائل مضر، وبايعوه، وغلب على مرو، واستفحل أمره.

وفيها: خرج بمصر وجوه أهلها على مروان، وكثرت عليه الحركات الخارجية ما بين المغرب إلى أذربيجان وأرمينية.

وفى هذه السنة: بعث مروان على العراق يزيد بن عمر الفزارى، وعزل عبد الله بن عمر، فكانت ولاية عبد الله بن عمر عامين، فسار يزيد الفزارى حتى نزل هيت، وحارب الخوارج مرات، وظهر عليهم، وانهزم منه منصور بن جمهور إلى السند.

وفى هذه السنة: اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بنى العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام، ومعهم أبو مسلم الخراسانى، فدفعوا إليه نفقات كثيرة، وأعطوه خمس أموالهم، ولم ينتظم لهم أمر فى هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة، والفتن الواقعة.

وفيها: خرج بالكوفة معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، فدعا إلى نفسه، وخرج إلى محاربة أمير العراق عبد الله بن عمر عبد العزيز، فجرت بينهما حروب.

وفى هذه السنة: خرج الحارث بن حريث الذى كان لحق ببلاد الترك، ومالأهم على المسلمين فمنّ الله عليه بالهداية، ووفقه حتى خرج إلى بلاد الشام، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار والى خراسان، واستمر الحارث على هذا الخير.

وفى هذه السنة: خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك نفسه من بيعة مروان بن محمد، ونصب له عدة الحرب. وحج بالناس فى هذا العام عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، والى الحرمين[1].

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٧/ ٣٠٠ - ٣٣٠)، تاريخ الإسلام (٨/ ١٦ - ٢١)، البداية (١٠/ ٢٥ - ٢٦).

أحداث سنة ستة وعشرين ومائة

فى هذه السنة: اجتمع الحارث بن سريج إلى الكرمانى وإلى الأزد، وقال لهم: تعالوا نقاتل هذا الباغى، يعنى نصر بن سيار، فقاتلوا نصراً فهزموه.

فلما دخل الليل، خرج نصر بن سيار متوجهاً إلى أبر شهر، فطمع الحارث أن تجتمع عليه تميم وشامّهم، فقالوا: نحن معك، فمال إليهم، فاجتمعت مضر مع الحارث وبايعوه، واجتمعت اليمن وربيعة مع الكرمانى فاقتتلوا، فقُتل الحارث، وهُزمت تميم، وغلب الكرمانى على مرو، وكتب العهود.

وفيها: قتل حوثرة بن سهيل والى مصر حفص بن الوليد، واستولى على ديار مصر.

وفيها: بعث إبراهيم العباسى أبا مسلم إلى خرسان، وأمّره على أصحابه، وكتب إليهم بذلك، فأتاهم فلم يقبلوا منه، وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم، فرجع إلى إبراهيم العباسى بمكة فى أيام الحج، وأخبره بما قابلوه من المخالفة، فقال له:

يا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت، ارجع إليهم، وعليك بهذا الحى من اليمن فأكرمهم، وانزل بين أظهرهم، فإن الله لا يتمم هذا الأمر إلا بهم.

ثم حذره من بقية الأحياء، ثم عاد أبو مسلم ثانياً إلى خراسان.

وفيها: دعا أبو حمزة الخارجى إلى خلاف آل مروان، وإلى خلاف مروان بن محمد.

وفيها: بعث مروان بن محمد على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل بها الخوارج.

وفى هذه السنة: حج عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الحرمين والطائف[1].

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٤٩ ـ ٢٥٠)، تاريخ الطبرى (٧/ ٣٣٠)، ، والكامل (٥/ ٣٤٢)، والنجوم (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، البداية (١٠/ ٢٦)، تاريخ الإسلام (٨/ ٢٢).

أحداث سنة تسع وعشرون ومائة

في هذه السنة: خرج عبد الله بن يحيى الكندى بحضرموت، فغلب عليها، وكان الوالى بها إبراهيم بن جبلة الكندى، فأخرج إبراهيم منها من غير قتالٍ يذكر.

اجتمع الأباضية - فرقة من الخوارج - إليه، فسار إلى صنعاء، وبها القاسم بن عمر الثقفى فالتقى الجمعان واشتد القتال، ثم انهزم القاسم بن عمر، وكثر القتل فى جنده، وتبعه الكندى فهرب والى صنعاء، وقُتل أخوه الصلت، واستولى الكندى على صنعاء، فجبى الأموال، وجهز إلى مكة عشرة آلاف، وكان والى مكة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فكره قتالهم، وفشل فوقفوا بعرفة، فلما انتهى الحج، غلبوا على مكة، ففر عبد الواحد هارباً إلى المدينة.

وفى هذه السنة: كتب ابن هبيرة أمير العراقين إلى عامر بن ضبارة، فسار حتى أتى خراسان، وقد ظهر بها أبو مسلم الخراسانى، صاحب الدعوة العباسية فى رمضان.

وفيها: سار الكرمانى إلى مرو الروذ فسار إلى قتاله متوليها سالم بن أحوز المازنى فاقتتلوا فانهزم الكرمانى، ثم كرّ عليهم، فاقتتلوا، ثم تهادنوا، ثم سار نصر ابن سيار فحاصر الكرمانى ستة أشهر، وعظمت الفتن إلى أن قُتل الكرمانى، ولحق عسكره بشيبان ابن مسلمة السدوى الحرورى الذى تغلب على سرخس وطوس، وعظمت جيوش شيبان هذا، وقاتلهم نصر بن سيار بضعة عشر شهراً، واشتغل بهم إلى أن قوى أمر أبى مسلم الخراسانى.

فأما المغرب فوثب بها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على رأس الأباضية فقتله، وصلب جثته فثار أصحابه، وجرت لهم حروب عديدة. وظهر بخراسان عبد الله بن معاوية الهامشى، فقبض عليه أبو مسلم، وسجنه هو وشيعته وأقام الحج عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[1].

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٥٣، ٢٥٤)، تاريخ الطبرى (٧/ ٣٤٩)، تاريخ الإسلام (٨/ ٢٤) النجوم (١/ ٣٩١، ٣٩٢)، البداية (١٠/ ٢٩).

أحداث سنة ثلاثين ومائة

فى هذه السنة: اصطلح نصر بن سيار وجديع بن على الكرمانى على أن يقاتلوا أبا مسلم صاحب الدعوة، فإذا فرعوا من حربه نظروا فى أمرهم، فدس أبو مسلم بدهائه إلى ابن الكرمانى يمكر به، ويقول: أنا معك، وانخدع له ابن الكرمانى، والتف معه وقاتلوا نصر بن سيار.

ثم كتب نصر بن سيار إلى أبى مسلم: إنى أبايعك وأنا أحق بك من ابن الكرمانى، فقوى شأن أبى مسلم وكثر جيشه، وخافه نصر بن سيار، وتقهقر بين يديه، ونزح عن مرو فأخذ أبو مسلم أثقاله وأهله، ثم بعث عسكراً إلى سرخس فقاتلهم شيبان الحرورى فقتل شيبان.

وأقبل سعادة الدولة العباسية من كل وجهٍ، ثم كانت موقعة حاسمة بين جيش أبى مسلم، وجيش نصر بن سيار، فانهزم أيضاً جيش ابن سيار، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

وتأخر نصر بن سيار إلى قُومسٍ، وظفر أبو مسلم الخراسانى بسالم بن أحوز فقتله، واستولى على أكثر من خراسان، ثم ظفر بعبد الله بن معاوية الهامشى فقتله، وجهز قحطبة بن شبيب فى جيشٍ فالتقى هو ونباتة بن حنظلة الكلابى على جرجان، فقتل فى الحال نباتة، وابنه.

ثم هرب نصر بن سيار، وكتب إلى والى العراق ابن هبيرة يستصرخ به، وإلى مروان بن محمد الخليفة يطلب من العون والمدد من الرجال، والعتاد، والأموال.

وفى هذه السنة: حدثت وقعة قُديد بقرب مكة،، فقتل فيها خلقٌ من قريش. وذلك أن عبد الواحد والى مكة المهزوم أمام الكندى الخارج على الدولة الأموية لما تقهقر إلى المدينة، واستولى جيش الكندى على مكة، كتب إلى الخليفة مروان يخبره بخذلان أهل مكة فعزله، وجهز جيشاً من المدينة فبرز لحربهم الذين استولوا على مكة، وعليهم أبو حمزة، واستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح الحميرى،

ثم التقى الجمعان بقُديد فى صفر من السنة فانهزم أهل المدينة، واشتد بهم القتل. وسار أبو حمزة فاستولى على المدينة، فأصيب يوم قديد ثلاثمائة نفس من قريشٍ، منهم: حمزة بن مصعب بن الزبير وابنه عمارة، وابن أخيه مصعب بن عكاشة وعتيق بن عامر بن عبد الله الزبيرى، ومن آل عثمان بن عفان، وغيرهم، وهرب نائب المدينة عبد الواحد بن سليمان. فلما أحسن أبو حمزة الخارجى السيرة فى أهل المدينة مالوا إليه، واستمعوا له، حتى سمعوه يقول:

من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، فعند ذلك أبغضوه، ورجعوا عن محبته.

فأقام أبو حمزة الخارجى بالمدينة حتى بعث الخليفة بعبد الملك بن عطية أحد بنى سعد فى خيل أهل الشام فى أربعة آلاف مقاتل، وأمرهم أن يقاتلوا أبا حمزة، فإذا انتهوا منه، قصدوا نائب صنعاء عبد الله بن يحيى فقاتلوه، فكلاهما خرج عن الخلافة.

فسار ابن عطية حتى بلغ وادى القرى فتلقاه أبو حمزة الخارجى قاصداً قتال مروان بالشام، فاقتتلوا إلى الليل، فقال له: ويحك يا ابن عطية! إن الله قد جعل الليل سكناً، فأخرّ إلى غدٍ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله، فما زال يقاتلهم حتى هزمهم، فولوا، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ودخل ابن عطية المدينة منتصراً.

فأقام ابن عطية شهراً بالمدينة، ثم استخلف عليها، ثم ذهب إلى مكة فاستخلف عليها أيضاً، ثم سار إلى اليمن، فخرج إليه عبد الله بن يحيى نائب صنعاء، فاقتتلا فقتله ابن عطية، وبعث برأسه إلى مروان، وجاء كتاب مروان إليه يأمره بإقامة الحج للناس فى هذه السنة، ويستعجله فى العودة إلى مكة.

خرج ابن عطية من صنعاء فى حفنة قليلة من أتباعه، يقال: إنها اثنى عشر راكباً، وترك جيشه بصنعاء، وأخذ معه أربعين ألف دينار.

فلما كان ببعض الطريق نزل منزلاً إذا أقبل إليه أميران، يقال لهما ابنا جمانة

من كبار تلك الناحية، فقالوا: ويحكم أنتم لصوص!.

فقال: أنا ابن عطية، وهذا كتاب أمير المؤمنين إلىَّ بأمارة الحج، فنحن نعجل السير لندرك الموسم، فقالوا: هذا باطل، ثم حملوا عليهم، فقتلوا ابن عطية وأصحابه، ولم يفر منهم إلا رجل واحد، وأخذوا ما معهم من الأموال.

وحج بالناس فى تلك السنة محمد بن عبد الملك بن مروان، والى الحرمين والطائف[1].



(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٥٤ ـ ٢٥٨) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٧٧ ـ ٤٠٢)، الكامل (٥/ ٣٧٨ ـ ٣٩٦) تاريخ الإسلام (٨/ ٢٦ ـ ٣٠)، النجوم (١/ ٣٩٣)، البداية (١٠/ ٣٤ ـ ٣٧).

ثم جاءت سنة إحدى وثلاثين ومائة

فى هذه السنة: توجه قحطبة بن شبيب بعد قتل بناته من جرجان، فجهز ابن هبيرة جيشاً عظيماً فنزل بعضهم بهمذان، وبعضهم بماه، وبغيرهما من المدن، وعليهم ولده داود بن يزيد، وعامر بن ضبارة، فالتقى فى نواحى أصبهان فى شهر رجب، فقتل عامر، وانهزم داود وجيشه.

ووقع الحصار على نهاوند وتقهقر الأمير نصر بن سيار إلى أن وصل إلى الرىّ فأدركه الأجل بها، ثم إن ابن هبيرة كتب إلى مروان الحمار يخبره بمقتل ابن ضبارة فوجّه إلى نجدته حوثرة بن سهيل الباهلى فى عشرة آلاف من قيس، ثم تجمعت الجيوش القادمة تحت راية الخلافة فى نهاوند، وأميرهم مالك بن أدهم.

فحصرهم قحطبة أربعة أشهرٍ حتى أكلوا خيلهم، ثم خرجوا بالأمان فى شوال، ثم قتل قحطبة ،وجوهاً من عسكر نصر بن سيار، وقتل أولاده، ثم أقبل فى جيوشه يريد العراق، فنهض والى العراق ابن هبيرة، حتى نزل بين حلوان والمدائن، وعلى مقدمته: عبيد الله بن عباس الليثى، وانضم إليه المنهزمون حتى صار فى ثلاثة وخمسين ألفاً، ثم توجه فنزل جلولاء، ونزل قحطبة فى آخر العام بخائقين، فكان بين الطائفتين بريد، فبقوا أياماً كذلك.

وفى هذه السنة: تحول أبو مسلم الخراسانى من مرو فنزل نيسابور، واستولى على عامة خراسان.

وفيها: كان الطاعون العظيم، هلك فيه خلق كثير، بدأ فى شهر رجب، واشتد فى رمضان[1].

وفى هذه السنة: حج بالناس الوليد بن عروة، وكان قد ولى الحرمين والطائف من قبل عمه عبد الملك بن محمد بن عطية.

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/٢٥٨ ـ ٢٦٠)، تاريخ الطبرى (٧/٤٠٣ ـ ٤١٢)، الكامل (٥/٣٩٦)، النجوم (١/ ٣٩٥ ـ ٤٠٠)، البداية (١٠/٣٧ ـ ٣٨) تاريخ الإسلام (٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢).

أحداث سنة اثنتين وثلاثين ومائة

فيها: زالت دولة بنى أمية، وانتهى العهد الأموى فى ديار الأمة الإسلامية ففى المحرم من تلك السنة بلغ ابن هبيرة أن قحطبة توجه نحو الموصل، فقال لأصحابه ما بال القوم تنكبونا؟! قالوا: يريدون الكوفة، فترحل ابن هبيرة نحو الكوفة، وكذلك فعل قحطبة فعبر الفرات فى سبعمائة فارس، وتتامّ إلى ابن هبيرة نحو ذلك، فتواقعوا فجاءت قحطبة طعنة فوقع فى الفرات فهلك، ولم يعلم به قومه.

وانهزم أيضاً أصحاب ابن هبيرة، وغرق خلق منهم، فقال بيهس بن حبيب نجمع الناس بعد أن جاوزنا الفرات، فناد مناد: «من أراد الشام فهلم».

فذهب معه جماعةٌ من الناس، ونادى آخر: «من أراد الجزيرة» فتبعه خلق، ونادى آخر «من أراد الكوفة» فذهب كل جند إلى ناحية، فقال ابن هبيرة: «من أراد واسط فهلم» فدخل ابن هبيرة ومن ومعه إلى واسط يوم عاشوراء.

وأصبح جند قحطبة قد فقدوا قائدهم قحطبة، ثم استخرجوه من الماء فدفنوه، وأمروا عليهم ابنه الحسن، فقصد بهم الكوفة، فدخلوها يوم عاشوراء أيضاً، وهرب متوليها زياد بن صالح إلى واسط.

وقُتل صاحب شرطة ابن هبيرة زياد بن سويد، وكاتبه، أما ابن قحطبة فاستعمل على الكوفة أبا سلمة الخلال، ثم قصد واسط، وخندق على جيشه، فأعد ابن هبيرة عساكره، فالتقوا فانهزم ابن هبيرة، وتحصنوا بواسط.

وفى شهر المحرم، وثب أبو مسلم صاحب الدعوة على ابن الكرمانى الخارجى فقتله بنيسابور، وبويع أبو مسلم على خراسان ونيسابور، وخطب للخليفة العباسى[1].

وفى شهر ربيع من هذه السنة: كانت البيعة لأول خليفة عباسى قد تمت فى الكوفة، وهو أبو العباس عبد الله السفاح فى دار مولاهم الوليد بن سعد.

ولكن كيف كانت نهاية الخليفة مروان بن محمد، آخر ملوك بنى أمية؟

---

(١) انظر: تاريخ خليفة (ص/ ٢٦٠ ـ ٢٦٤)، تاريخ الطبرى (٧/ ٤١٢)، تاريخ الإسلام (٨/ ٣٣٣)، البداية (١٠/ ٣٨). النجوم (١/ ٤٠٠).

نهاية آخر خلفاء بنى أمية

خرج الكثيرون على خلافة مروان بن محمد، وتخلى عنه الكثيرون من البيت الأموى، وكثرت حركات الخوارج فى سائر الأقاليم، وفى نفس قويت شوكة العباسيين، وأعلنوا الخلافة والبيعة من الكوفة.

وسارت بلاد المسلمين مقسمة بين خليفتين أحدهما أموى فى دمشق، والآخر عباس فى الكوفة.

سار مروان بن محمد لحرب العباسيين فى مائة وعشرين ألفاً، حتى نزل بقرب الموصل، فالتقى هو وعبد الله بن على عم المنصور، فى جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فانكسر جمع مروان وفرّ، فاستولى على الجزيرة عبد الله بن على، ثم طلب الشام، ففر مروان إلى فلسطين، فلما علم بسقوط دمشق فى أيدى العباسيين، سار إلى مصر، ووصل إلى الصعيد، فأدركوه ببوصير فقاتل حتى قتل فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

يقول أبو هاشم مخلد بن محمد: لما انهزم مروان من الزّاب كنتُ فى عسكره، وكان لمروان فى عسكره بالزاب عشرون ومائة ألف، كان فى عسكره ستون ألفاً، وكان فى عسكر ابنه عبد الله مثل ذلك، والزاب بينهم، فلقبه عبد الله ابن علىّ فيمن معه وأبى عون وجماعة قوّاد، منهم حُميد بن قحطبة.

فلما هُزموا سار إلى حران، وبها أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، ابن أخيه عامله عليها، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، فلما دنا منه عبد الله بن على حمل أهله وولده وعياله ومضى منهزماً، وخلّف بمدينة حران أبان بن يزيد، وتحته ابنة لمروان يقال لها أم عثمان، وقدم عبد الله بن على، فتلقاه أبان مسوداً[1] مبايعاً له، فبايعه ودخل فى طاعته، فآمنه ومن كان بحران والجزيرة.

ومضى مروان حتى مر بقنسرين وعبد الله بن على متبع له، ثم مضى من قنسرين إل حمص، فتلقاه أهلها بالأسواق، وبالسمع والطاعة فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم شخص منها، فلما رأوا قلة من معه طمعوا فيه وقالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعد ما رحل عنهم، فلحقوه على أميالٍ، فلما رأى غبرة خيلهم أمكن لهم

---

(١) المسودة: هم العباسيون، وكان شعارهم السواد.

فى واديين قائدين من مواليه، يقال لأحدهما يزيد، والآخر مخلد، فلما دنوا منه وجازوا الكمينين، ومضى الذرارى، وقف فيمن معه وناشدهم فأبوا إلا مكاثرته وقتاله، فنشب القتال بينهم، وثار الكمينان من خلفهم، فهزمهم وقتلتهم خيله حتى انتهوا إلى قريب من المدينة.

ومضى مروان حتى مرّ بدمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، وهو ختن لمروان، متزوج بابنة له يقال لها: أم الوليد، فمضى وخلفه بها حتى قدم عبد الله بن على عليه، فحاصره أياماً، ثم فتحت المدينة ودخلها عنوة معترضاً أهلها.

وقتل الوليد بن معاوية فيمن قُتل، وهدم عبد الله بن على حائط مدينتها، ومَرَّ مروان بالأردن، فشخص معه ثعلبة بن سلامة العاملى، وكان عامله عليها، وتركها ليس عليها والٍ، حتى قدم عبد الله بن على فولى عليها، ثم قدم فلسطين وعليها من قبله:

الرماحس بن عبد العزيز، فشخص به معه، ومضى حتى قدم مصر، ثم خرج منها حتى نزل منزلاً منها يقال له: «بوصير» فبيته عامر بن إسماعيل وشعبه ومعهما خيل أهل الموصل فقتلوه بها، وهرب عبد الله وعبيد الله ابنا مروان ليلة بُيِّت مروان إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاءً، وقاتلتهم الحبشة، فقتلوا عبيد الله، وأفلت عبد الله فى عدة ممن معه، وكان فيهم: بكر بن معاوية الباهلى، فسلم حتى كان فى خلافة المهدى، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدى[1].

قُتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وبعث إسماعيل بن عامر برأس مروان إلى أبى عون ، فبعث بها بدوره إلى صالح بن على، وبعث صالح برأسه مع يزيد بن هانىء صاحب الشرط إلى أبى العباس الخليفة العباسى.

وذلك فى يوم الأحد، لثلاث بقين من ذى الحج سنة اثنتين وثلاثين ومائة واختلف فى سن مروان يوم مقتله، ولكن الأشهر أنه عاش اثنتين وستين سنة.

وهكذا انتهت الخلافة الأموية، وزال ملك بنى أمية، ونرصد الآن الأسباب الحقيقية لسقوط الخلافة الأموية.

---

(١) خبرٌ صحيحٌ. أخرجه الطبرى (٧/ ٤٣٧) فى تاريخه.

الولاة والقضاة في خلافة مروان

المدينة: أقرّ مروان عليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، ثم عزله سنة تسع وعشرين ومائة، وولى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، ثم انحاز من أبى حمزة الخارجى، ودخل أبو حمزة المدينة فوجه مروان إلى المدينة عبد الملك بن محمد بن عطية، فقتل أبا حمزة، وضم إليه مكة، ثم خرج ابن عطية إلى اليمن، واستخلف الوليد بن عروة، ثم ولاها مروان لأخيه يوسف بن عروة فلم يزل والياً عليها حتى جاءت الدولة العباسية.

مكة: أقرّ عليها عبد العزيز بن عمر مع ولاية المدينة، ثم ولاها عبد الواحد بن سليمان، فانحاز عن أبى حمزة الخارجى، وأقام بها أبو حمزة، ثم خرج يريد المدينة فاستخلف أبرهة بن الصباح، ثم رجع أبو حمزة فقتله ابن عطية، ثم خرج إلى الطائف وولى رومى بن ماعز الكلابى، ثم عزله وولى محمد بن عبد الملك، ثم قتل ابن عطية ببلاد اليمن، فولى مروان يوسف بن عروة، فلم يزل والياً عليها حتى جاءت الدولة العباسية.

أفريقية: غلب عليها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى حتى قتل سنة ثمان وثلاثين ومائة.

اليمن: وثب الكندى عليها، وهو عبد الله بن يحيى، فأخرج الضحاك بن زمل عنها، فوجه مروان ابن عطية إليه فقتله، ثم انحدر يريد مكة فقتل فى بعض بلاد اليمن، فولاها مروان ليوسف بن عروة مع ولاية الحرمين، فبعث إلى اليمن أخاه الوليد بن عروة، فلم يزل والياً حتى جاءت الدولة العباسية.

أرمينية: رجع مروان بن محمد من أرمينية عقب مقتل الوليد بن يزيد، واستخلف عليها عاصم بن عبد الله فبعث الضحاك بن قيس بمسافر بن القصاب، فقتل والى أرمينية عاصم بن عبد الله، وبلغ الخبر مروان، فولى عبد الله بن مسلم فمات، فولى إسحاق بن مسلم فخرج إسحاق، واختار أهل أرمينية مسافر بن بجير حتى قامت الدولة العباسية.

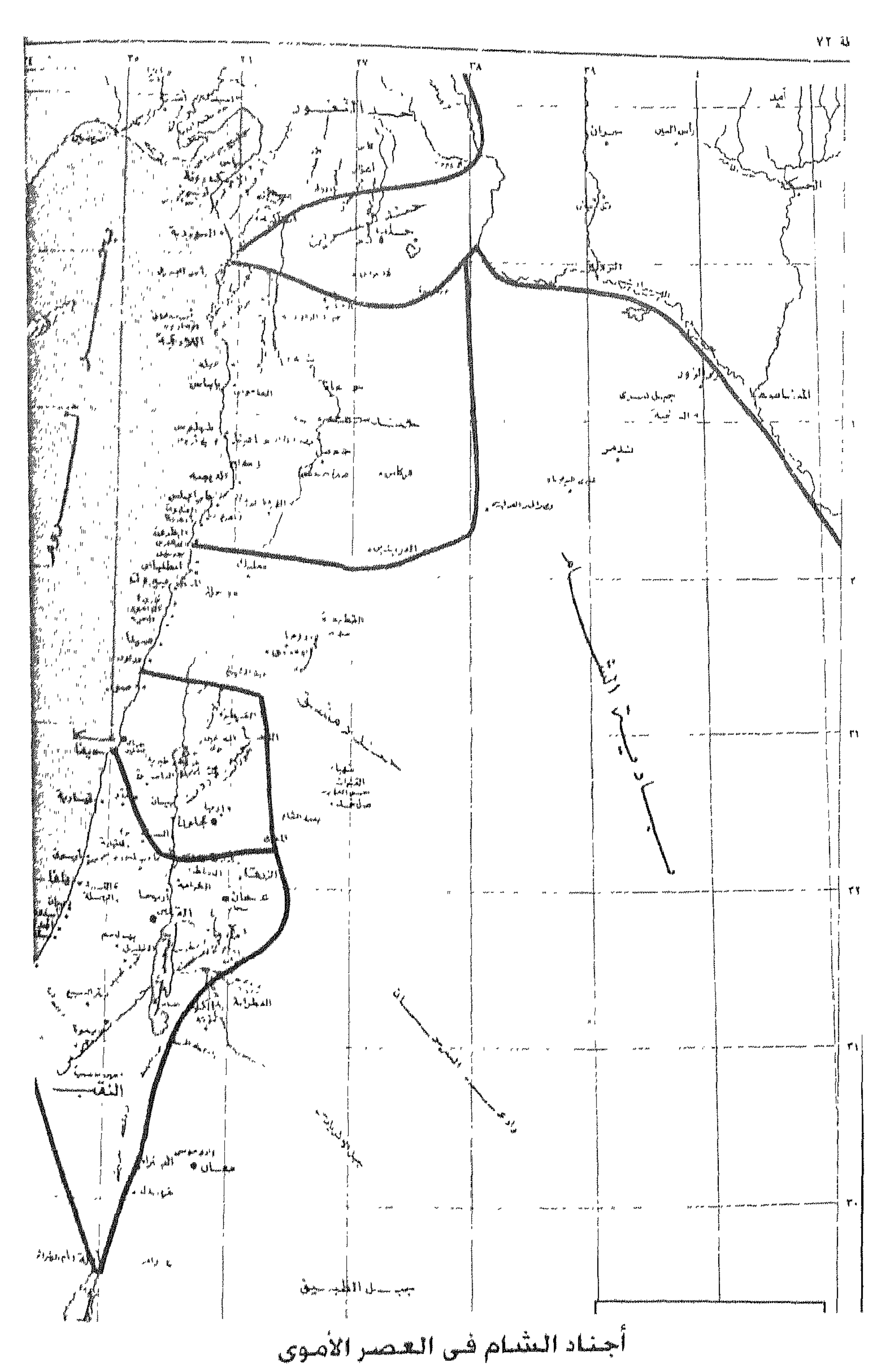
أما القضاء فى المدنية: فتولاه عباد بن منصور، ثم معاوية بن عمر الغلابى، فقضى ثلاثة أيام، ثم استعفى فأعفاه سلم بن قتيبة، وولى عامر بن عبيدة الباهلى فاستعفى، فولى عباد بن منصور، فلم يزل قاضياً حتى جاءت الدولة العباسية.

أما القضاء فى الكوفة: فتولاه ابن أبى ليلى حتى دخلها الضحاك بن قيس، فولاها غيلان بن جامع المحاربى، ثم قدم ابن هبيرة فاستقضى الحجاج بن عاصم المحاربى، ثم عزله وولى منصوراً حتى جاءت الدولة العباسية.

أما المدينة فكان عليها عثمان بن عمر التيمى، فأقره عبد الواحد بن سليمان، ثم قضى محمد بن عمران التيمى للوليد بن عروة حتى قامت الدولة العباسية.

صاحب الشرط: كان كوثر بن الأسود الغنوى، وتولى الجند والخراج وبيوت الأموال: عمران بن صالح مولى هذيل، وتولى الحاجبة: سقلاب مولى لمروان.



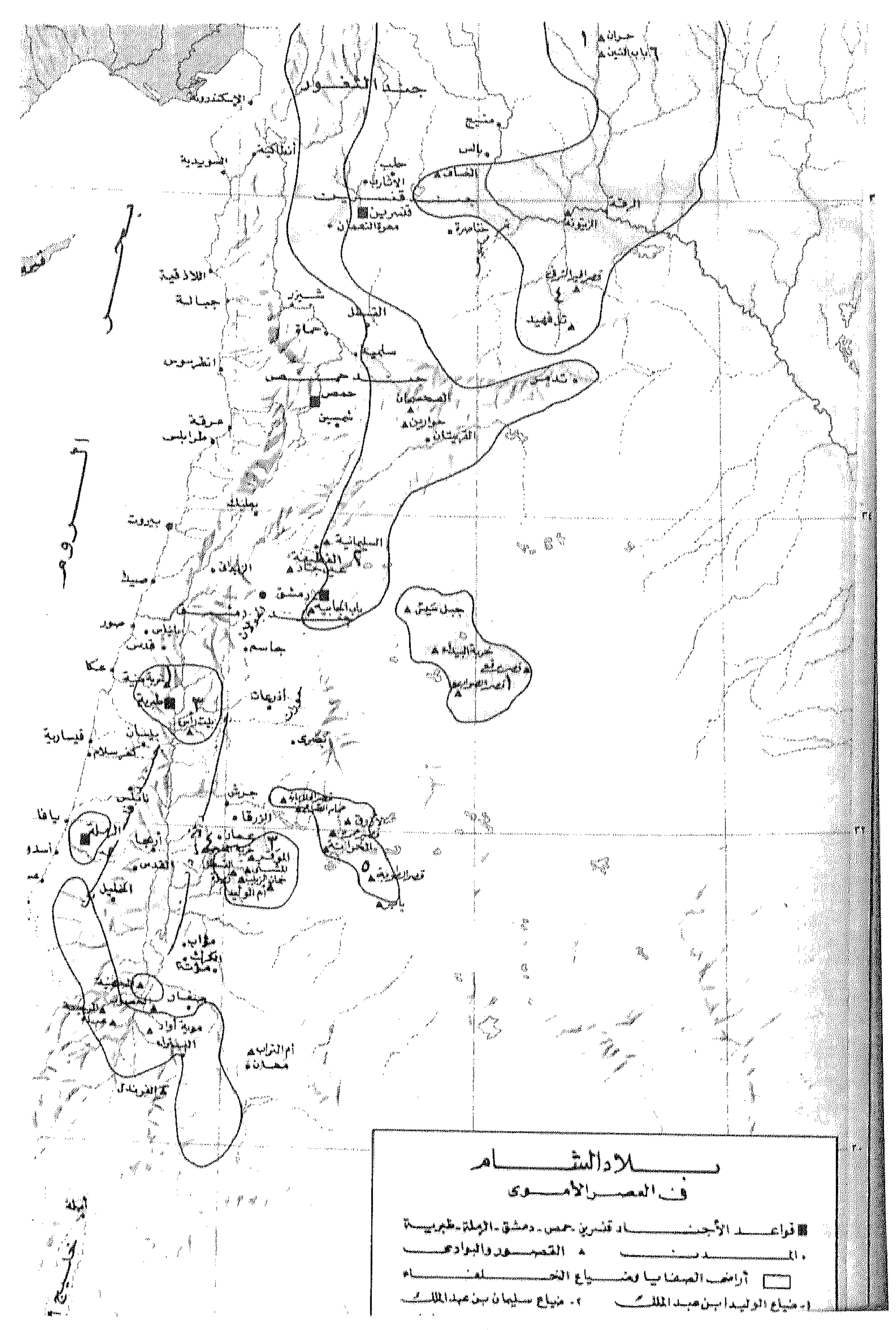


أجناد الشام فى العصر الأموى

[١٠٠٣/الأُمويون/ صحابة]



اقرأ فى الصفحات التالية:



بلاد الشام
في العصر الأموي
قواعد الأجناد قنسرين - حمص - دمشق - الرملة - طبرية
المدن
القصور والبوادي
أراضي الصوافي وضياع الخلفاء
١- ضياع الوليد ابن عبد الملك
٢- ضياع سليمان بن عبد الملك
جند العواصم
جند قنسرين
جند حمص
جند دمشق
حران
منبج
بالس
حلب
قنسرين
معرة النعمان
خناصرة
الرقة
الإسكندرونة
أنطاكية
السويدية
اللاذقية
جبالة
شيزر
حماة
سلمية
أنطرسوس
حمص
تدمر
عرقة
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
دمشق
عكا
طبرية
قيسارية
نابلس
يافا
الرملة
القدس
الخليل
جرش
الزرقاء
عمان
بصرى
أذرعات
جابية
أيلة
بحر الروم

أسباب سقوط الدولة الأموية

حقًا لكل أمة أجل، ولكل أجلٍ كتاب، والملك بيد الله تعالى، يقلب الليل والنهار، فيعز مَنْ يشاء بتوفيقه، ويذل مَنْ يشاء بخذلانه، ويرفع مَنْ يشاء بقدرته، ويخفض من يشاء بحكمته.

قال الله عز وجل: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1).

ومن حكمة الله أنه إذا جار الملوك على الرعية، فجار القوى على الضعيف، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، سلط الله على الملوك من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم، وضعفائهم سواء بسواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تزول.

فلما قدر الله وشاء زوال ملك بنى أمية، هيأ لذلك أسبابه، وإذا قدر الله أمرًا فلا مرد له، وكان أمر الله تعالى قدرًا مفعولاً.

اختلفت كلمة بنى أمية، واتحدت كلمة بنى العباس، وتخاذل الناس وتخلفوا عن الخليفة الأموى، وسارع الناس واجتمعوا على الخليفة العباسى، فكان انقراض ملك بنى أمية، وبدء ملك بنى العباس، وسبحان مَنْ له البقاء والدوام ولكن يبقى التساءل: ماهى جوانب التقصير التى طرأت على الأمويين فأدت إلى زوال دولتهم؟

وعندما ننظر إلى حقبة الخلافة الأموية نجد أن جميع خلفائهم من لدن معاوية - رضى الله عنه - إلى آخرهم نجد أنهم أربعة عشر رجلاً.

وعندما نستعرض سير وأدوار حياتهم نجد عدة أسباب اجتمعت عندهم كانت هى الأسباب الحقيقية لسقوط دولة بنى أمية، وزوال عزهم ومجدهم.

١ - انقلاب الخلافة الإسلامية إلى المُلك العضوض.

فبعد أن كان الوالى يختار من مجموع المسلمين، أو من أهل الحل والعقد بعد

---

(١) سورة آل عمران ٢٦.

توافر عدة كفاءات به، وعلى رأسها الجانب الدينى من التقى والصلاح، صارت الخلافة ملكًا يرثه الابن من أبيه، والأخ من أخيه، ومن استطاع الغلبة فالسيف هو الحكم الفصل حينئذٍ.

٢ ـ وجود بعض الخلفاء الباحثين عن اللذات والشهوات فى الخلافة:

مما لاشك فيه أن بعض خلفاء بن أمية كما مَرَّ بنا من أمثال الوليد الفاسق كانوا لا إرب لهم من الخلافة إلا الاغتراف من اللذات، والتفنن فى الشهوات مما أَلَّبَ الرعية، وجلب التذمر والضيق عند أهل التقى على بنى أمية.

نعم هناك من الصفحات المشرقة كصفحة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ الذى أعاد إلى الأذهان ذكرى عمر الخلافة الراشدة، ولكنها صفحة من عدة صفحات فهيهات أن تغير من الأمر شيئًا.

٣ ـ تَخَلِّى خلفاء بنى أمية عن القيادة الدينية.

كان من صميم عمل الخليفة الحج بالناس، والإمامة فى الأعياد والجمع، والصلوات إلا إن طرأت له الأعذار من مرضٍ أو نحوه.

وهذه القيادة الدينية كانت تُقرب الخليفة من الرعية، وتشعرهم بقربه منهم، وحرصه على سلامة دينهم، وتُقرب طائفة العلماء والزهاد من الخليفة، فتنصلح الدنيا والدين معًا.

فلما كان خلفاء بنى أمية فى بدء عهدهم كانوا يؤمون الناس، فخلف من بعدهم من أخّر فى إقامة الصلوات، ثم ازداد الأمر سوءًا عندما تخلى الخلفاء عن القيادة الدينية، وأنابوا عنهم الولاة والأمراء .

ويتمثل المنصب الدينى أيضًا فى القيام بدور القضاء، والفصل بين الناس فى الخصومات، وكان خلفاء بنى أمية يباشرونه بأنفسهم فى بدء خلافتهم، ولا يجعلونه إلى أحدٍ سواهم. إلا إذا شغلوا بجهادٍ أو نحوه من الأمور العظام.

فلما طال الزمان ترك الخلفاء القضاء للأمراء، والذين بدورهم أنابوا غيرهم، مما أضعف من شخصية الخليفة فى أعين الرأى العام.

٤ ـ اختلاف آل البيت الأموى فيما بينهم.

كانوا فى بدء تسلمهم الخلافة فى تماسك، يعضد بعضهم البعض، ويستعمل بعضهم البعض الآخر فى الولايات، والأقاليم، وإدارة شئون الرعية.

فلما طال بهم العهد، انقسموا، واختلفوا، وظهر التنافس بين أفراد البيت الأموى، وتطلع كل فرع من فروع تلك الشجرة على السيادة والفوز بالقيادة، ولو على حساب باقى أفراد البيت الأموى.

وقد قيل لبعض بنى أمية: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: اختلافٌ فيما بيننا، واجتماع المختلفين علينا.

٥ ـ ظهور حركات الخوارج وكثرتها:

كان ظهور حركات الخوارج من أكبر المعوقات فى امتداد الفتح الإسلامى، فقد شغلوا الحاكم والولاة بتتبعهم يمينًا وشمالاً مما بدد الكثير من طاقات حكام بنى أمية.

٦ ـ البيعة لاثنين فى وقت واحد:

يعد من عوامل سقوط الخلافة الأموية ما حدث من حرص الكثير من خلفائهم على البيعة لاثنين فى وقتٍ واحدٍ، فهذا مروان بن الحكم يأخذ البيعة لابنيه من بعده عبد الملك وعبد العزيز، وغيره فعل نفس الأمر، مما جعل الفرقة حادثة قبل حدوثها.

٧ ـ ظهور العصبية القبلية بين الرعية:

طالت أيام بعض الحكام من بنى أمية كهشام بن عبد الملك، فكثر فى أيامه العزل لهذا، والتولية لهذا، وبدأت الرعية تنقسم فبعض الناس يشايع هذا الوالى، والبعض الآخر يشايع هذا الوالى، فتطاحنت المضرية واليمنية فى خراسان مثلاً. وكذا ظهور العصبية بين القيسية واليمنيّة.

ومن المفيد هنا أن نبرز تلك الحقيقة والتى طالما يعتنى بها الباحثون، ألا وهى أن الأمويين حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا للعرب مكان الصدارة فى كل أنحاء الولايات والأقاليم التى تخضع لهم، وجعلوا بذلك الأمم الأخرى فى المرتبة

الثانية.

وقد يقول قائل: وماذا يستفيدون من تلك السياسة؟ والجواب: أنها أفادتهم كثيرًا فى بدء دولتهم، فأمنوا من الفتن والدسائس، ولكنها من جانب آخر كانت من أهم المعاول التى أسقطت دولتهم.

فقد جعلت هذه السياسة القوة والمهابة للعرب أمام الشعوب المختلفة التى دخلت فى الإسلام، ثم قضت تلك السياسة على دولتهم عندما ضعفوا فى أيامهم الآخيرة بدءًا من عهد الوليد بن يزيد الفاسق.

فقد بدأت الدعوة العباسية تنشط فى البحث عن الاتباع، فوجدت فى تلك الشعوب وخاصة الفرس أعظم الجند، والمعين على الوصول إلى الخلافة.

وبالفعل نجد أن البداية كانت من خراسان حيث الفرس، وبعض الأخلاط من الترك.

وهكذا كان مبدأ الحرص على جعل العرب فى الصدارة، والاستغناء بالكلية عن الشعوب الأخرى مهما كانت الكفاءات التى يمتلكون من أسباب سقوط الخلافة الأموية، إذ أن ذلك ألهب مشاعر العصبية عند تلك الشعوب.

٨ ـ بغض الكثيرين من الرعية لبنى أمية:

وقع بعض حكام بنى أمية فى بعض الأخطاء القاتلة التى جلبت لهم سخط الكثيرين من الرعية من أمثلة ذلك: موقف يزيد بن معاوية من الحسين ـ رضى الله عنه ـ وما نشأ عنه من قتل الحسين، وموقف عبد الملك بن مروان من آل الزبير، وقتاله لعبد الله ومصعب ابنى الزبير حتى قتلا.

فقد ظهرت الشيعة، وغيرها، واجتمعوا على مناوأة الأمويين، والكيد لهم، وليس خروج أمثال المختار، وتتبعه لقتلة الحسين، وقتلهم شر قتلة إلا مثلاً من تلك الأمثلة على تغلغل الشعور بالبغض والسخط فى قلوب الكثيرين من الرعية.

٩ ـ تأخر رواتب الجند فى بعض الأحيان.

الجندى ما هو إلا سلاح الحاكم ضد الخارجين على الشريعة، والدرع الواقى

للدولة الإسلامية ضد أعدائها، فإن أعطى ماله من عطاء كانت طاعته حاضرة، وإذا العطاء مُنع تذمر وتخاذل، بل وتواطأ وتآمر.

وهذا ما حدث بالفعل فى عهد بعض خلفاء بنى أمية، وعلى الخصوص فى أواخر عهدهم، فى خلافة مروان بن محمد حيث قلت الأموال، وتوقف الكثير من الأقاليم عن إرسال الأموال إلى دار الخلافة لسقوط تلك الأقاليم تحت راية العباسيين، أو تحت راية الخوارج وقد سئل شيخ من شيوخ بنى أمية بعد زوال دولتهم عن أسباب زوال ملكهم فقال:

«جار عمالنا عن رعيتنا فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا، فمالوا عنا وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا.

وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا».

١٠ ـ اشتداد ساعد الدولة العباسية:

نشط الدعاة العباسيون، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى، فاختار النقباء، وأرسلوا الدعاة إلى مختلف الأقاليم، وبخاصة خراسان، يدعون إلى الرضا من آل البيت

فاجتمع الناس خلف تلك الدعوة، فكانت نهاية الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية.

ويحدثنا آخر الناجين من الدولة الأموية، **وهو عبد الله بن مروان فيقول:**

قدمتُ أرض النوبة، وقد خُبِّر أمرنا، فدخل علىَّ رجلٌ طوال أقنى[1]، حسن الوجه. فقعد على الأرض، ولم يقرب الثياب، فقلت: ما يمنعك أن تجلس على ثيابنا؟ قال: لأنى مَلِكٌ، وحق على كل ملكٍ أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه، ثم قال لى:

---

(١) أقنى: القنا فى الأنف: طوله ودقة أرنبته مع حدبٍ فى وسطه

لِمَ تشربون الخمر، وهى محرمة عليكم؟

قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا، لأن الملك زال عنا.

قال: فَلِمَ تطأون الزروع بدوابكم والفساد، محرم عليكم؟

قلت: يفعل ذلك جهالنا.

قال: فلم تلبسون الديباج والحرير، وتستعملون الذهب والفضة، وهو محركم عليكم؟

قلت: ذهب الملك منا، وقل أنصارنا، فانتصرنا بقومٍ من العجم، دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا.

قال: فأطرق مليًا، وجعل يقلب يديه، وينكت فى الأرض، ويقول:

عبيدنا، وأتباعنا، دخلوا فى ديننا، وزال الملك عنا!!

يردده مرارًا، ثم قال:

ليس ذلك كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم عليكم، وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز، وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى، فيصيبنى معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام فتزودوا ما احتجتم إليه، وارتحلوا عن بلدى.

قال ابن مروان: ففعلت ذلك[1].

فلله الأمر من قبل، ومن بعد، وإليه يرجع الأمر كله.



(١) انظر: عيون الأخبار (١/ ٣٠٤) لابن قتيبة.

جوانب الحضارة والرقى فى الدولة الأموية

كم ظلت الحضارة الإسلامية بعهودها المختلفة، فظلت قرونًا طويلة كأنها لم تكن شيئًا مذكورًا

وفى نفس الوقت كانت الحضارات القديمة كالفراعنة، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، وغيرها هى المذكورة، والعنوان على أصحابها.

فلما وُلد علم الآثار فى فجر القرن التاسع عشر الميلادى - يعنى فى العهد الحديث - ظهرت الدعوة والتخصص فى عهود الحضارات المختلفة، ومنها الحضارة الإسلامية بأزمنتها المختلفة عن طريق دراسة الآثار الإسلامية كالمساجد، والقلاع، والقصور، والعملات، وغيرها.

فهى آثار مادية شاهدة على معالم الحضارة الإسلامية، ومبنية لمعالم الرقى فى عصورهم المختلفة.

وعندما نتأمل جوانب الحضارة فى الدولة الأموية التى جاءت بعد دولة الراشدين، نجد أنها اتخذت من دمشق عاصمة للخلافة، وزحفت الجيوش الإسلامية إلى أقطار المعمورة شرقًا، وغربًا حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية حتى وصلت إلى بلاد الصين، بعد مرورهم بوسط آسيا.

ووصلت رقعة الدولة الإسلامية غربًا إلى أفريقيا التى زحفوا منها إلى بلاد الأندلس، وفى تلك الحقبة تم إنشاء المدن الجديدة التى ما زالت حتى يومنا هذا، مثل مدينة «واسط» فى العراق، ومدينة «القيروان» فى تونس.

هذه الدولة الشاسعة الأطراف كان لابُدّ لها أن تسك النقود الخاصة بها، بعد أن كانت تتعامل بالعملة الرومية تارة، والفارسية تارة أخرى.

ففى عهد الدولة الأموية، وفى عصر عبد الملك بن مروان تم ضرب العملة الإسلامية والتى لا نصيب فيها للنقوش الفارسية أو الرومية، وكان ذلك فى سنة ست وسبعين من الهجرة النبوية.

وقد نقش على أحد وجهى الدينار أو الدرهم «لا إله إلا الله وحده لا شريك

له» وعلى الوجه الآخر ﴿الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد﴾[1].

وطوقهما بمعنى قرآنى: (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)[2].

وعلى الوجه الآخر «بسم الله ضرب هذا الدينار (أو الدرهم) فى سنة . . .»

وتعد العملة الإسلامية من أعظم وأهم المصادر الأساسية فى دراسة التاريخ الإسلامى، وما ذاك إلا لأنها تعين الباحث على متابعة أحداث التاريخ، والتحقق من بعض الوقائع.

ومن معالم الحضارة فى عهد الدولة الأموية أن لغة الدواوين ظلت غير عربية حتى كانت خلافة الوليد بين عبد الملك، فتم تعريب الدواوين مما ضبط الكثير من الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية فى العهد الأموى.

ولم ينقض العصر الأموى حتى كانت اللغة العربية هى السائدة فى كل أنواع المكاتبات.

وعندما نتجول إلى بعض الأقاليم الإسلامية فى العهد الأموى نجد بعض ملامح الحضارة.

ففى تونس: وتقع تلك الدولة إلى شرقى الجزائر، وكانت قديمًا تسمى «إفريقية» وقد فُتحت مرتين، الأولى فى سنة سبع وعشرين بعد الهجرة والثانية فى العهد الأموى فى سنة خمسين على يد القائد عقبة بن نافع رحمه الله.

وبين جنبات أرض تونس بنى عقبة بن نافع مسجده الشهير.

ثم جاء حسان بن النعمان وولى إفريقية فى خلافة معاوية ـ رضى الله عنه ـ ثم كان عاملاً على مصرفى خلافة عبد الملك بن مروان، فلما اضطربت الأحوال والأمور فى إفريقية بعد مقتل زهير البلوى فى سنة ست وسبعين، أمره عبد الملك ابن مروان بالتوجه إلى إفريقية، فتوجه إليها فى أربعين ألف مقاتل فقضى نهائيًا على شوكة البربر،

---

(١) سورة الإخلاص: ١ ـ٣.

(٢) مستفادة من سورة التوبة: ٣٣.

وقام بتأسيس بلدة صغيرة بجوار مدينة «قرطاجنة» جعلها قاعدة بحرية للجيوش الإسلامية، وأنشأ بها دارًا كبرى لصناعة السفن، وأتى بالعمال لذلك من مصر. ثم كبرت تلك البلدة، واتسعت حتى عُرفت باسم «تونس».

وفى سنة أربعة عشر ومائة خطط فيها ابن الحبحاب مسجد «الزيتونة».

وتُعد مئذنة مسجد عقبة بن عامر من أقدم المآذن فى العالم الإسلامى وحتى يومنا هذا.

فى مصر: عندما نتجول فى مصر فى تلك الحقبة من الزمان لم نجد أهم من هذين الأثرين. «مسجد عمرو بن العاص» وما أُدخل عليه من توسعات، و«مقياس النيل».

ففى زمان الوليد بن عبد الملك أمر قرة بن شريك والى مصر بتوسعته، فهدم المسجد وبناه، وكانت القبلة مشرقة جدًا، فتيامن بها قليلاً.

وذُكر أن الليث بن سعد وابن لهيعة كانا يتيامنان قليلاً إذا صليا فى المسجد الجامع، وهو «مسجد عمرو».

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف[1]، بل عُمد قائمة بصدر الجدار، وإنما قرة بن شريك جعل المحراب المجوف، وفيه منبر من أقدم المنابر الإسلامية.

ثم حدثت توسعة عبر عصور خلفاء بنى أمية، ولما ولى عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير اللخمى مصر من قبل مروان بن محمد أمر باتخاذ المنابر فى القرى، ولم يكن إذ ذاك يخطب فى القرى إلا على العصى، وذلك فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وكانت زيادة قُرة بن شريك من القبلى والشرقى، وأخذ بعض دور عمرو بن العاص، وابنه عبد الله فأدخله فى المسجد.

وتحسن إنشاء مقياس النيل حتى صار أعجوبة فى معرفة مبلغ الزيادة والنقصان

---

(١) للسيوطى رسالة بعنوان «إعلام الأريب ببدعة المحاريب» طبعت بدار الصحابة بطنطا.

فى ماء النيل، وكان فى جزيرة الروضة، وهى الجزيرة التى بين مدينة مصر، ومدينة الجيزة، وعرفت فى أول الإسلام «بالجزيرة» و «بجزيرة مصر»، ثم قيل لها: «جزيرة الحصن».

وعرفت فى أيام القضاعى والكندى «بجزيرة فسطاط مصر» وأطلق عليها فى أيام المقريزى «الروضة».

ومن ملامح الحضارة فى خلافة الأمويين «بناء بيت المال» وقد بناه أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر فى سنة سبع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الوالى على مصر فى هذا الوقت: «عبد الملك بن رفاعة» كما مر بنا.

بلاد الشام: وبحكم أن دار الخلافة كانت فى ديار الشام بدمشق، فقد كانت ملامح الحضارة، والرقى العمرانى أبلغ وضوحًا ودلالة.

وبلاد الشام فى العصور الماضية تشمل فلسطين، وشرق الأردن، ولبنان، وسوريا.

ومن أبلغ العمارة الأموية فى الشام: قبة الصخرة بالمسجد الأقصى ببيت المقدس.

هذا الأثر الذى لا زال باقيًا حتى يومنا هذا، قام ببنائه عبد الملك بن مروان فى سنة اثنتين وسبعين فوق الصخرة التى وضع النبى ﷺ قدمه فى ليلة الإسراء ليعرج به إلى السموات العلا.

وقد بنى عبد الملك بن مروان هذه القبة فى غاية للإتقان والإبداع، حتى صارت تحفة معمارية تذكر للعهد الأموى.

وهى أقدم أثر معمارى إسلامى باقٍ حتى الآن من درر الفنون الإسلامية ويبلغ اتساع قطر القبة ٤٤و٢٠مترًا، ويرتفع القبة عن أرض المبنى ـ عدا النهاية ـ وهى الهلال «٣و٣٥» مترًا، فإذا أضفنا النهاية يكون الارتفاع الكلى ٣و٣٩ مترًا.

والقبة مصنوعة من الخشب، وهى مزدوجة، يعنى قبتين، الأولى داخلية،

والثانية خارجية، كل منهما مكونة من ٣٢ ضلعًا من الخشب يأخذ شكل القوس، أقرب إلى شكل فص البرتقال.

وللقبة مجراة من الخارج لتصريف مياه الأمطار، وقد جددت فى سنة ٤١٣هـ بواسطة الخليفة «الظاهر».

ثم جددت على يد السلطان محمد سنة ١٣١٨هـ ثم فى الخلافة العثمانية سنة ١٥٥٢م.

وفى الأردن: يوجد مجموعة من القصور التى بناها الخلفاء الأمويون، منها: قصر المثنى، وهو أقرب تلك العصور إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى عمّان، يبعد عنها حوالى خمسة أميال.

وتتألف بقايا هذا القصر من ثلاث قاعات ذات عقود، تآكلت بفعل عامل الزمان، وقد أنشئ من قوالب الآجر، ثم غطى بطبقة من الملاط نقشت عليه زخارف إسلامية دقيقة رائعة، أشبه ما تكون بتطريز الإبرة فى الدقة.

ويوجد قصر «الحرابة» وهو يشبه القلعة الحصينة، وهو عبارة عن بناء مربع بالغ الضخامة، والمتانة.

ويوجد قصر «عمره» وهو فى البادية الأردنية، ويحتوى على قاعات ذات سقوف مثلثة، وحمامات بخار.

ويوجد قصر «الحلابات».

ومن الآثار الأموية فى البلاد الأردنية: قصر عمرو، الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية سنة ١٨٩٨م على بعد خمسين ميلاً شرقى عمان، العاصمة الأردنية.

وقد بنى هذا القصر الصغير،ولذا أطلق عليه «قصير عمرو»،بنى لكى يستريح فيه الخليفة عند خروجه للصيد.

وألحق به حمام تزدان جدرانه بنقوشٍ مختلفة، وينسب هذا البناء للخليفة الوليد بن عبد الملك.

وبجوار الأردن كشف فى الأراضى الفلسطينية، وبالتحديد فى شمال مدينة

أريحا عن قصر «هشام» فى خربة المفجر،

ويرجع تاريخ هذا القصر العتيق إلى سنة عشر ومائة هجرية، وقد وُجدت كتابة فى أطلاله، تؤيد ذلك التاريخ.

ويوجد قصر «المشتى» الذى انكشفت أطلاله فى القرن التاسع عشر الميلادى، وذلك فى الجنوب الشرقى من مدينة عمان.

وهذا القصر له واجهة حجرية ذات زخارف بديعة الصنع، دقيقة النقوش، وقد قام السلطان عبدالحميد العثمانى بإهداء هذه الواجهة إلى الإمبراطور غليوم فى سنة ١٩٠٣م. ونقلت أحجارها إلى متحف برلين حيث أعيد تركيبها فى القسم الإسلامى من هذا المتحف. ويرجع تاريخ هذا القصر إلى أواخر العهد الأموى.

ومن التحف المعمارية فى دمشق: المسجد الأموى، الذى بناه الوليد بن عبد الملك فيما بين سنتى ثماتية وثمانين، وستة وتسعين، وأنفق عليه أموالاً طائلة، يقول المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»:

قلت يومًا لعمى: يا عم، لم يحسن الوليد حين أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرفت فى عمارة الطرق، والمصانع، ورم الحصون لكان أصوب وأفضل!

قال: لا تعقل يا بنى، إن وفق وكشف له عن أمرٍ جليلٍ، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى فيها بيعًا قد افتتن فى زخارفها، وانتشر ذكراها كالقمامة «كنيسة القيامة»(١) وبيعة لد والرها، فاتخذ للمسلمين مسجدًا أشغلهم به عنهن، وجعله أحد عجائب الدنيا.

ولا زال حتى يومنا الجامع الأموى يشهد لحضارة الأمويين بالتقدم والرقى.

ويحدثنا الأستاذ محمد مرزوق عن طبيعة التقدم الحضارى فى دولة الأمويين.

فيقول: أقبل المسلمون فى عصر الدولة الأموية على التشييد والتعمير،

---

(١) احسن التقاسيم (ص/ ١٥٩).

واستعانوا فى ذلك برجال الصناعة والفنون فى الأمم التى فتحوها، وأسبغوا عليهم رعايتهم، ووجد أولئك الفنانون فى ظل الحكام الجدد إعجابًا بأعمالهم، وتقديرًا لما تخرجه أيديهم من أبنية قائمة أو تحف منقولة، وكان طبيعيًا أن تتحلى هذه التحف، وتلك الأبنية بزخارف الفن الرومانى فى الشام، ومصر، وبلاد المغرب، وبزخارف الفن الفارسى فى العراق وإيران، وقد يجتمع كلا الفنيين فى أثرٍ واحدٍ، إذا ساهم فى إنشائه وزخرفته فنانون من الرعايا السابقين، لكل من بيزنطةَ، وإيران.

والآثار التى شاهدنا فى بلاد الشام وهى أقدم الآثار الإسلامية وجودًا ـ تفصح بتصميمها ويزخارفها عن هذه الحقيقة، إد تتلاقى فيها العناصر الفنية لكل من الفنين السابقين، فهى تزدان بمزيجٍ من زخارف الفن البيزنطى، وزخارف الفن الساسانى.

وبعد فقد كانت المعالم الحضارية فى العصر الأموى إذ كانت الحياة لا تزال بسيطة، ولم تكن الدولة الإسلامية منفتحة على الأقطار الأخرى، فقد كانت كل المعالم فى الدولة الإسلامية فى هذا العهد عربية الصيغة.

وعصر الأمويين فى حقيقة الأمر لم يكن عصر الترجمة والتدوين، بل كان عصر الفتح والتأسيس لديار الإسلام، وسيأتى من بعده عهد التصنيف والترجمة، ألا وهو العصر العباسى، وتلك هى السنة الكونية فى دنيا الناس أن يبدأ الشىء صغيرًا، ثم يرتقى، ثم تُدخل عليه التهذيبات، والتحسينات.



نهضة العلوم الإسلامية فى العهد الأموى

تنوعت المؤلفات والتصانيف فى المجالات المختلفة للتراث الإسلامى، فكثرت المصنفات العلمية الفقهية، والتفسيرية، وكذا العقائدية.

ولكن تبقى أعظم الخسائر أن الكثير من تلك المصنفات فُقد، ولم يصل إلينا.

[**علم الفقه**]ويتناول الحديث عن الحلال والحرام، والمباح والمستحب والمكروه.

فهذا نبذة عن مصنفيه قبيصة بن ذؤيب صحابىٌّ صغيرٌ، عاش فى العصر الأموى، وفى خريف عمره كان من سكان قصر الخليفة الأموى بدمشق فتولى الكتابة للخليفة عبد الملك، وختم باسمه.

روى قبيصة كتابه فى «الفرائض» عن زيد بن ثابت، ولكنه لم يصل إلينا[1].

وهذا إبراهيم النخعى، تابعىٌّ، كوفىٌّ، ولد سنة ٥٠هـ، وتوفى سنة ٩٦هـ، صنف كتابًا فى الفقه، نقل عنه أبو نعيم صاحب الحلية كثيرًا، ولم يصلنا إلينا[2].

والإمام مكحول بن أبى مسلم، المشهور بالدمشقى، واختلف فى سنة وفاته، ذكر ابن النديم كتابين من أعماله، هما: «السنن فى الفقه» و «المسائل فى الفقه» ولكن لم يصلنا إلينا منهما أى كتاب[3].

ويحدثنا العلامة ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ بأن فتاوى الزهرى، والحسن البصرى كانت مجموعة فى ثلاثةٍ، وفى سبعة أسفارٍ، فأين هى الآن؟!

ولكن نجد الإمام مالك ـ رحمه الله ـ وقد عاش نصف عمره تقريبًا فى العصر الأموى، والنصف الآخر فى العصر العباسى، ولقد أفتى بأن الناس بايعوا بنى

---

(١) انظر: العلل (١/ ٣٢٦) لأحمد بن حنبل، طبقات ابن سعد (٥/ ١٧٦)، (٧/ ٤٤٧)، أسد الغابة (٤/ ١٩١) لابن الأثير، البداية والنهاية (٧٨/ ٣١٣)، (٩/ ٧٣)، شذرات الذهب (١/ ٩٧) لابن العماد الحنبلى.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ١٨٨)، الحلية (٤/ ٢١٩ ـ ٢٤٠) لأبى نعيم، التهذيب (١/ ١٧٧).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٠)، الفهرست (٢٢٧) لابن النديم، الحلية (٥/ ١٧٧)، التهذيب (١٠/ ٢٨٩)، معجم المؤلفين (١٢/ ٣١٩) لكحالة.

العباس وهم مكرهون، وليس على مكرهٍ يمين.

يصنف لنا أبو عبد الله مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، موسوعته الفذة، وكتابة الرائد: «الموطأ» وصنف لنا أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى كتابًا يتناول أحكام الجهاد والقتال، سماه كتاب «السير» يوجد منه أجزاء فى الأم للشافعى (٢/ ٢٦، ٢٩٢)، (٧/ ٣٠٣).

وقد توفى إمام ديار الشام الأوزاعى سنة ١٥٧هـ[١].

وكذا صنف أبو إسحاق الفزارى، المتوفى سنة ١٩٣هـ، كتابه «السير» فى أحكام الجهاد، وقد عاش عصور خمسة من خلفاء بنى أمية، هشام بن عبد الملك، والوليد الفاسق، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد من سنة ١٠٥ إلى سنة ١٣٢هـ.

وكتابه مطبوع، وتحت أيدينا، والحمد لله وحده.

وابن أبى ليلى، محمد بن عبد الرحمن الكوفى، ولد سنة ٧٤هـ وتوفى سنة ١٤٨هـ، وتولى منصب القضاء فى الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة العباسية.

صنف كتابه «الفرائض»[٢] كما ذكر ابن النديم، ولم يصلنا.

[**علم التفسير**] ويتناول الحديث عن القرآن الكريم من حيث المعانى والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول.

نجد تفاسير كثيرة مسندة إلى بعض الصحب الكرام، كابن عباس رضى الله عنهما، ومن التابعين: ابن أبى رباح، وابن المسيب، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة، وهى منثورة فى كتب التفسير المسندة بالمأثور كتفسير «عبد الرزاق»، وتفسير «سعيد ابن منصور»، وتفسير «الطبرى».

وكذلك ألف محمد بن السائب الكلبى، وهو من المتروكين فى علم الرواية، كتابه فى التفسير، وقد توفى سنة ١٤٦ هـ[٣]، ومن بعده مقاتل بن سليمان -

(١) انظر: الفهرست(ص/ ٢٢٧) لابن النديم، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٠) للذهبى، شذرات الذهب (١/ ١٤١).

(٢) انظر: الفهرست (٢٠٢).

(٣) انظر: الضعفاء للعقيلى (١٦٣٢)، الميزان (٣/ ٥٥٩) للذهبى، التهذيب (٩/ ١٨٠)، والتقريب (٢/ ١٦٣) لابن حجر.

وحاله من المتهمين فى علم الرواية ـ صنف تفسيرًا»، وهو «التفسير فى متشابه القرآن»، وقد توفى سنة ١٥٠هـ[1].

وذكر أصحاب التراجم أن الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ المتوفى فى سنة ١١٠هـ صنف كتابًا فى التفسير[2]، وقد وصل إلينا أشياء منه مسندة فى كتب المتأخرين.

[**علم العقائد**] ويتناول الحديث عن مسائل كثيرة خاصة بالخالق، ،والإيمان، والخلافة وغير ذلك فصنف الحسن البصرى رسالة فى «القدر»[3]، وترك لنا الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ رسالة بعنوان «الرد على القدرية»[4] وقد وصل إلينا أجزاء منها فى حلية الأولياء (٥/ ٣٤٦ ـ ٣٥٣) للأصبهانى.

وصنف الحسن بن محمد بن على الهاشمى، المتوفى سنة ٩٩هـ عدة كتب فى المعتقد.

بل يعد من أوائل من صنفوا فى الاعتقاد، فله كتاب «الإرجاء» وذكر الذهبى أنه كان فى ورقتين، وقد ندم الحسن على تأليفه لهذا الكتاب، فقال لزاذان:

يا أبا عمرو، لوددت أنى كنت مت ولم أكتبه.

وليس المراد بالإرجاء فى هذا الكتاب ما يتعلق بالإيمان مما يعيبه أهل السنة، وفى هذا يقول ابن حجر: المراد بالإرجاء الذى تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذى يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان، وذلك أنى وقفت على كتاب الحسن ابن محمد المذكور، أخرجه ابن أبى عمر العدنى فى كتاب «الإيمان» له فى آخره، قال: حدثنا إبراهيم بن عيينة عن عبد الواحد بن أيمن قال: كان الحسن بن محمد يأمرنى أن أقرأ هذا الكتاب على الناس: أما بعد، فإنا نوصيكم بتقوى الله ـ فذكر كلامًا كثيرًا فى الموعظة والوصية بكتاب الله واتباع ما فيه وذكر اعتقاده ـ ثم قال فى آخره: ونوالى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، ونجاهد فيهما، لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة، ولم تشك فى أمرهما، ونرجئ من بعدهما ممن دخل فى الفتنة

(١) انظر: الضعفاء للعقيلى(١٨٣٣)، الميزان(٤/ ١٧٣)، التهذيب (١/ ٢٨٤)، التقريب (٢/ ٢٧٢) لابن حجر.
(٢) انظر: الفهرست (٥٤)، تاريخ التراث العربى (١/ ٣٥٢) لسزكين
(٣) انظر السابق.
(٤) انظر: تاريخ التراث (١/ ٣٥٧).

فنكل أمرهم إلى الله.

إلى آخر الكلام، فمعنى الذى تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين فى الفتنة يكون مخطئًا أو مصيبًا، وكان يرى أنه يرجئ الأمر فيهما، وأما الإرجاء الذى يتعلق بالإيمان فلم يعرج عليه[1].

وصنف الحسن بن محمد كتابًا بعنوان: «الرد على القدرية»[2].

وهكذا نستطيع أن نقول إن العصر الأموى زخر بالتصنيف فى العلوم الإسلامية، ولكن ضاعت أغلب تلك المصنفات، أو وصلت إلينا منثورة فى كتب مصنفى العهد العباسى.

وعند هذا القدر توقف القلم عن الحديث، فإن الحديث عن التأليف يطول، ولكن فى هذا القدر كفاية لمن رام الفهم والهداية.

والحمد لله وحده



(١) انظر: طبقات ابن سعد (٥/٣٢٨)، التهذيب (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١)، تاريخ التراث العربى (١/٣٥٨).
(٢) انظر ما كتب حوله فى: تاريخ التراث العربى (١/٣٥٨).

ازدهار الآداب في العصر الأموى

اتسعت الدولة الأموية بالفتوحات، وحدث اختلاط بين العرب والأعاجم فى البلدان المفتوحة، فبدأ اللحن يفشو فى اللغة، وفسد النطق السليم.

وهنا ابتدء أهل العلم فى الاهتمام بتدوين قواعد النحو تدوينًا تامًا، وفى ذلك أعظم خدمة للقرآن الكريم، حتى يقرأ قراءة صحيحة، وحتى لا يدخل الخلل إلى معالم اللغة العربية.

فإن الأئمة من الصحابة الراشدين، ومن تلاهم من التابعين، يحضون على تعلُّم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها، إذ هى من الدين بالمكان المعلوم، فيها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلَّغ رسُوله ﷺ طاعته، وشرائع أمره ونهيه.

وكذلك كانوا يحضون على رواية الشعر الذى هو حكمة العرب فى جاهليتها وإسلامها، وديوانها الذى أقامته مقام الكتاب لما تقدم من مآثرها وأيامها، فكانوا يتناشدونه فى مجالسهم، ويتذاكرونه عند محافلهم[1].

ومما لا شك فيه أن علم النحو انبثق عن العقلية العربية المحضة، ولم يكن المنطق الأرسطى قد وصل بعد إلى الدخول فى هذا العلم الرائد.

فقد برزت أهميته وضرورته عندما بدأت الأعاجم تدخل فى الإسلام، وتتعلم القرآن.

وظهر منهم اللحن، فابتدأ أمر تدوين النحو.

فمن مدرسة البصرة فى العهد الأموى: ظهرت طبقة مشايخ وأساتذة الخليل بن أحمد، وسيبويه، ومنهم: عيسى بن عمر الثقفى، المتوفى سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٦م، وهو من مشاهير القراء كذلك[2].

---

(١) انظر: طبقات النحويين (ص/ ١٢) للزبيدى الأندلسى.

(٢) انظر ترجمته: طبقات النحويين (ص/ ٤٥) للزبيدى، الإرشاد (٦/ ١٠٠) لياقوت، مرآة الجنان (١/ ٣٠٧) لليافعى، النجوم الزاهرة (٢/ ١٢) لابن تغرى، بغية الوعاة ٣٧٠ للسيوطى.

ومنهم: أبو عمرو بن العلاء، وهو أحد القراء السبعة المشهورين، توفى سنة ١٤٥هـ/ ٧٧٠م[١] ومنهم: يونس بن حبيب الضبى، توفى سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م، واهتم بجمع الأمثال، واللغة، والنوادر، وصنف كتاب «القياس فى النحو»[٢].

ويأتى المؤسس الحقيقى لعلم النحو، والذى عاش الحقبة الأخيرة من العصر الأموى، وكذا عاش فى العصر العباسى: الخليل بن أحمد الفراهيدى، توفى سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م.

صنف كتابه الشهير «العين»

وكان أول من سلك أساليب جديدة فى علم العربية، وهو بلا خلاف مبتكر «علم العروض»[٣].

فإذا تركنا مدرسة البصرة فى العهد الأموى، وذهبنا إلى مدرسة الكوفة، نجد منهم: محمد بن أبى سارة الرؤاسى، وقد استفاد منه الخليل بن أحمد، وهو الذى أسس مدرسة النحو فى الكوفة، ومن تصانيفه: كتاب «الفيصل» فى النحو[٤].

ومنهم: معاذ بن مسلم، الملقب بالهراء، وهو الذى وضع علم الصرف، وكان معلمًا للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، وقد توفى سنة ١٨٧/ ٨٠٣م[٥].

ومنهم: أبو مسلم مؤدب الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان قد نظر فى النحو، فلما أحدث الناس التصريف لم يحسنه وأنكره، فهجا أصحاب النحو فقال:

---

(١) انظر: الفهرست (٢٨) لابن النديم، طبقات النحويين (ص/ ٣٥)، طبقات القراء (١/ ٢٨٨) للجزرى. مرآة الجنان (١/ ٣٢٥)، بغية الوعاة (٣٦٧)، شدرات الذهب (١/ ٢٣٧).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣)، طبقات النحويين (٤٨)، معجم الأدباء (٢٠/ ٦٤) لياقوت، وفيات الأعيان (٧/ ٢٤٤) لابن خلكان، التهذيب (٥/ ٣٤٦) لابن حجر.

(٣) انظر: طبقات النحويين (ص/ ٤٧)، مرآة الجنان (١/ ٣٠٣)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٩) للذهبى، ، النجوم الزاهرة (١/ ٣١١)، التهذيب (٣/ ١٦٣)، بغية الوعاة (٢٤٣)، شذرات الذهب (١/ ٢٧٥).

(٤) انظر: طبقات النحويين (ص/ ١٢٥)، الإرشاد (٢/ ١٣٨)، بغية الوعاة (٣٣، ٣٩٣)، نزهة الألباء (٥٤)، الفهرست (٦٤).

(٥) انظر: طبقات النحويين (ص/ ١٢٥)، بغية الوعاة (٣٣)، (٣٩٣).

قد كان أخذُهُمُ فى النحو يُعجبنى حتى تعاطوْا كلام الزَّنْج والرومِ(١)

وأما فن الشعر فقد ازدهر فى العصر الأموى، وتواجدت الشعراء فى مجالس خاصة، وفى قصور بعض الخلفاء، وكان كبار الشعراء يلزمون حلقات العلم، فهذا الفرزدق كان يلزم الحسن البصرى الفقيه، المحدث، الزاهد.

وهذا جرير كان يلزم حلقة محمد بن سيرين المفسر، الفقيه، الواعظ(٢).

وقد استطاع بعض هؤلاء الشعراء الانتفاع بتلك الحصيلة، فهذا جرير يهاجى الأخطل النصرانى، فيبين له أنه لولا ما يدفع قوم الأخطل من الجزية، لسباهم المسلمون، ولأصبحت أموالهم غنيمة، فيقول جرير:

لولا الجزى قسم السواد وتغلب فى المسلمين فكنتم أنفالا(٣)

وظهرت فى ألفاظ شعراء هذا العصر الألفاظ الإسلامية كالجنة ،والنار، والإيمان ،والكفر، والقرآن والنبوة، والشهيد والجهاد، والصلاة والزكاة، والمسجد وغيرها.

وفى أفكار شعراء العصر الأموى ظهرت المعانى الإسلامية، فهذا جرير يخاطب عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى حول فكرة «لا مفر من قضاء الله» فيقول:

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل(٤)

وفكرة فناء الخلق، وبقاء الواحد الأحد، تناولها شعراء العصر الأموى، فهذا وضاح اليمن، يقول:

سأصبر للقضاء فكل حى سيلقى سكرة الموت المذوق

فما الدنيـا بقائمة وفيها من الأحياء ذوعين رمـوق

(١) انظر: طبقات النحويين (ص/١٢٥).

(٢) انظر" العقد الفريد (٣/١٦٩) لابن عبد ربه.

(٣) انظر: ديوان جرير (١/٦٥).

(٤) انظر: ديوان جرير (١/٩٤).

وللأحياء أيام تقضى يلف ختامها بسوق[1]

ويقول الفرزدق:

ألا كل شيء في يد الله بالغ له أجل عن يومه لا يحوّل[2]

وفكرة الهداية بتوفيق الله، والإضلال بخذلان الله للعبد، تناول ذلك جرير فقال:

من يهده الله يهتد لا مضلّ له ومن أضلّ فما يهديه من هاد[3]

إلى غير ذلك من الأفكار الإسلامية كالبعث والنشور، والحساب بين يدى الله تعالى، وغير ذلك من الأفكار.

ويتردد مصطلح الخلافة، والنبوة فى أشعار شعراء الدولة الأموية، فيهجو جرير الأخطل، فيقول:

فعليك جزية معشر لم يشهدوا لله أن محمدًا لرسول

تبعوا الضلالة ناكبين عن الهدى والتغلبى عن القرآن ضلول

يقضى الكتاب على الصليب وتغلب ولكل منزل آية تأويل

إن الخلافة والنبوة والهدى رغم لتغلب فى الحياة طويل[4]

ويمدح الفرزدق الخليفة عبد الملك بن مروان، فيقول:

إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنصح والعلم قولاً غير مكذوب

مجاهد لعداة الله محتسب جهادهم بضراب غير تذبيب

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب[5]

ويقول جرير أيضًا:

---

(١) انظر: الأغانى (٦/ ٢٢٩).

(٢) انظر: ديوان الفرزدق (٢/ ٧٩).

(٣) انظر: ديوان جرير (٢/ ٧٤٣).

(٤) انظر: ديوان جرير (١/ ٩٥).

(٥) انظر: ديوان الفرزدق (١/ ٢٤).

إن الذى حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا[1]

وعن الأجل، والتوكل على الله، يقول الفرزدق:

ألا كل شىء فى يد الله بالـغ له أجـل عن يومـه لا يحـوْل

وإن الذى يغتر بالنصح ضائع ولكل سينجى الله من يتوكل[2]

وانتشر شعر الزهد فى حقبة العهد الأموى، الداعى إلى الزهد فى الدنيا، والرضا بالقليل، والرغبة فى نعيم الاخرة.

يقول سابق البربرى:

أين الملوكُ التى عن خطبها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

نـرجُـو ونـأمـلُ أيامًا تُـعدّ لنا سريعـة المـرِّ تـطـويـنـا ونطويها

أموالُنـا لذوى الميراثِ نجمعـهـا ودارُنا لخراب الدهـرِ نبنيها[3]

ويقول البربرى:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التُقَى ووافيتَ بعد المـوتِ مَنْ قد تزوَّدا

ندمتَ على أنْ لا تكون شرِكْتَهُ وأرصدْتَ قبلَ الموتِ ما كان أرصدا[4]

وعن يوم القيامة وأهواله، وحسابه يقول الفرزدق:

أخـاف وراء القبـر إن لـم يعافنى أشد من القبر التهـابًا وأضيقا

إذا جاءنـى يـوم القيـامـة قائـد عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مغلول القلادة موثقا

يقـاد إلـى نـار الجحيم مسربـلا سرابيل قطـران لباسًا محرقا[5]

واقترن الحديث عن الزهد بذكر الجهاد، ويبدو ذلك واضحًا بشعر الخوارج فى

(١) ديوان جرير (١/ ٣٨٧).
(٢) ديوان الفرزدق (٢/ ٧٩).
(٣) انظر: بهجة المجالس (٢/ ٣٣٧) لابن عبد البر.
(٤) انظر: حلية الأولياء (٥/ ٣١٨) لأبى نعيم
(٥) انظر: ديوان الفرزدق (٥٧٧).

تلك الحقبة، وازدهر شعر المديح والهجاء، والسياسى، والغزلى العذرى، والرثاء. ويطول حديثنا إذا تطرقنا إلى خصائص ومصادر الشعر فى العصر الأموى، وقد انتشر كذلك شعراء اللهو والعبث من ذكر الخمر، والكأس، والنساء.

وقد حصر صاحب الأغانى الأصفهانى شعراء الدولة الأموية، مع إيراد نماذج من أشعارهم، وكذا حصر الشعراء المخضرمين ممن عاصر دولة بنى أمية، وعاش كذلك فى عصر دولة بنى العباس، فلا داعى للتطويل بذكرهم.

ولكن نستطيع أن نقول أن جُلّ شعراء العصر الأموى حاولوا تحرير أشعارهم من الصعوبة، والوعورة إلى السلاسة والوضوح.

ويكفى المصنف الحصيف هذا القدر الموجز عن العلوم والفنون فى العهد الأموى.

أما الترجمة عن الحضارات الأخرى فلم تكن ذات بالٍ يذكر، ولكن نستطيع أن نلتمس فى كتب السير أن خالد بن يزيد بن معاوية كانٌ يطالع كتب اليونان، وكان يشتغل بالكيمياء، والطب، وكان حكيم قريش وعالمها فى عصره.

يقول ابن النديم: كان خالد بن يزيد فاضلا فى نفسه، له همة ومحبة للعلوم، خطر بباله حب الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين، ممن كان ينزل مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى.

وهذا أو نقلٍ كان فى الإسلام من لغةٍ إلى لغةٍ(١).

وقد شكك العلامة الذهبى فى كونه صنف فى الكيمياء ثلاث رسائل، فقال: هذا لم يصح(٢).

فهذا اعتراض على مبدأ التصنيف، وليس على كونه على اشتغالٍ بالكيمياء.

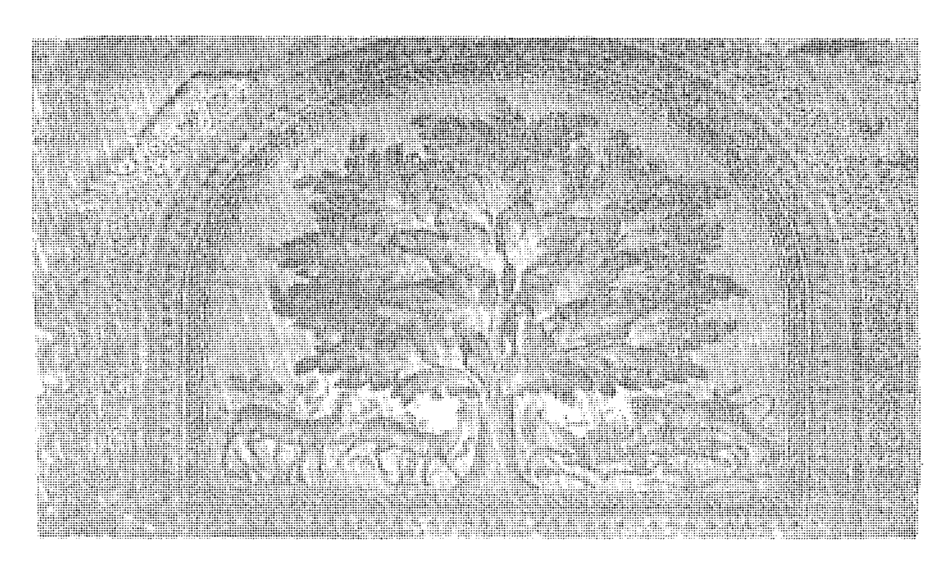
وقد اختلف فى سنة وفاته لكن الراجح أنها كانت فى سنة تسعين هجرية.

كما ترجم لمعاوية ـ رضى الله عنه ـ كتب الملوك وأخبار الماضيين.

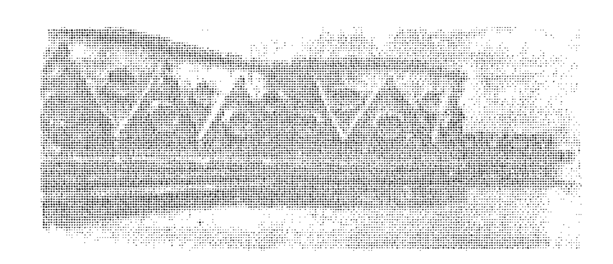
---

(١) انظر: الفهرست (١/٢٤٢)

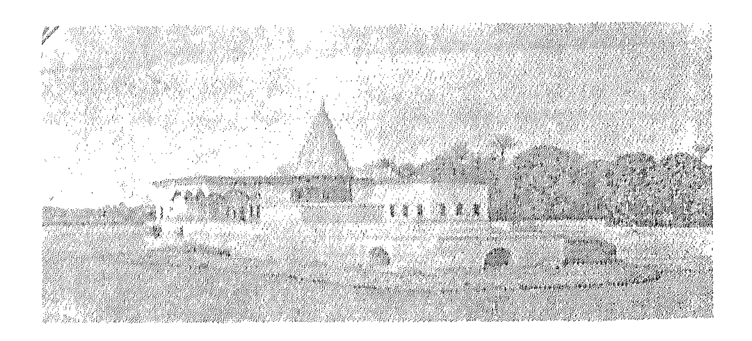
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٨٢ ـ ٣٨٣).



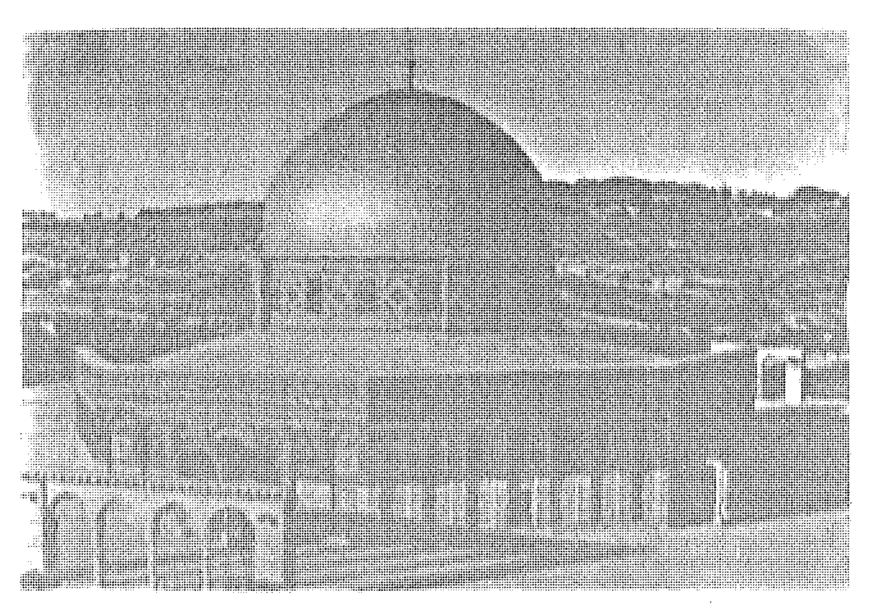
«لوحة فى قصر هشام» فى خربة المفجر شمال مدينة أريحا»



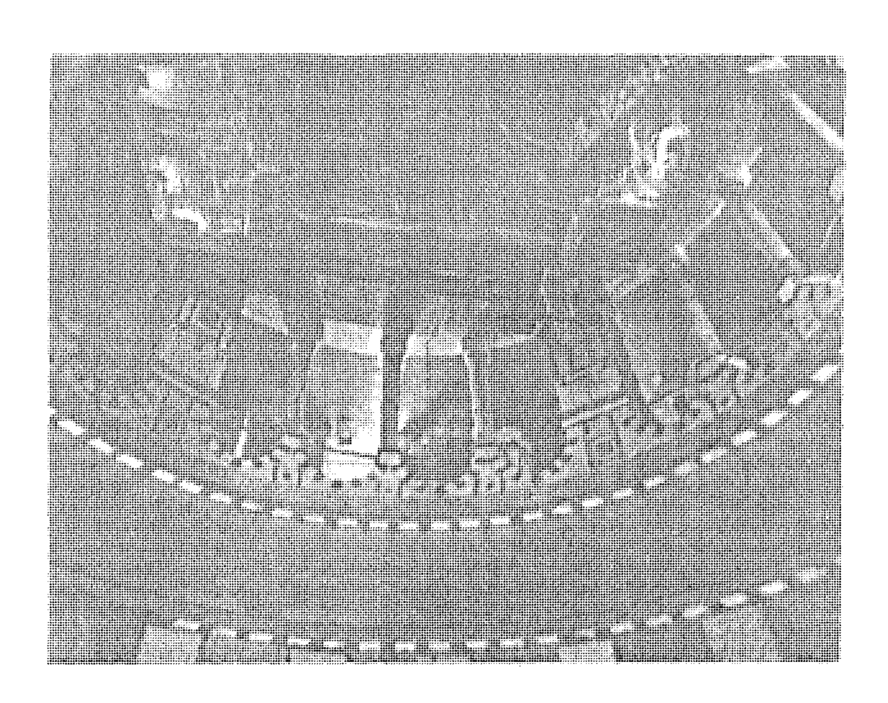
«واجهة قصر «المشتى» فى الجنوب الشرقى من مدينة عمان بالأردن»



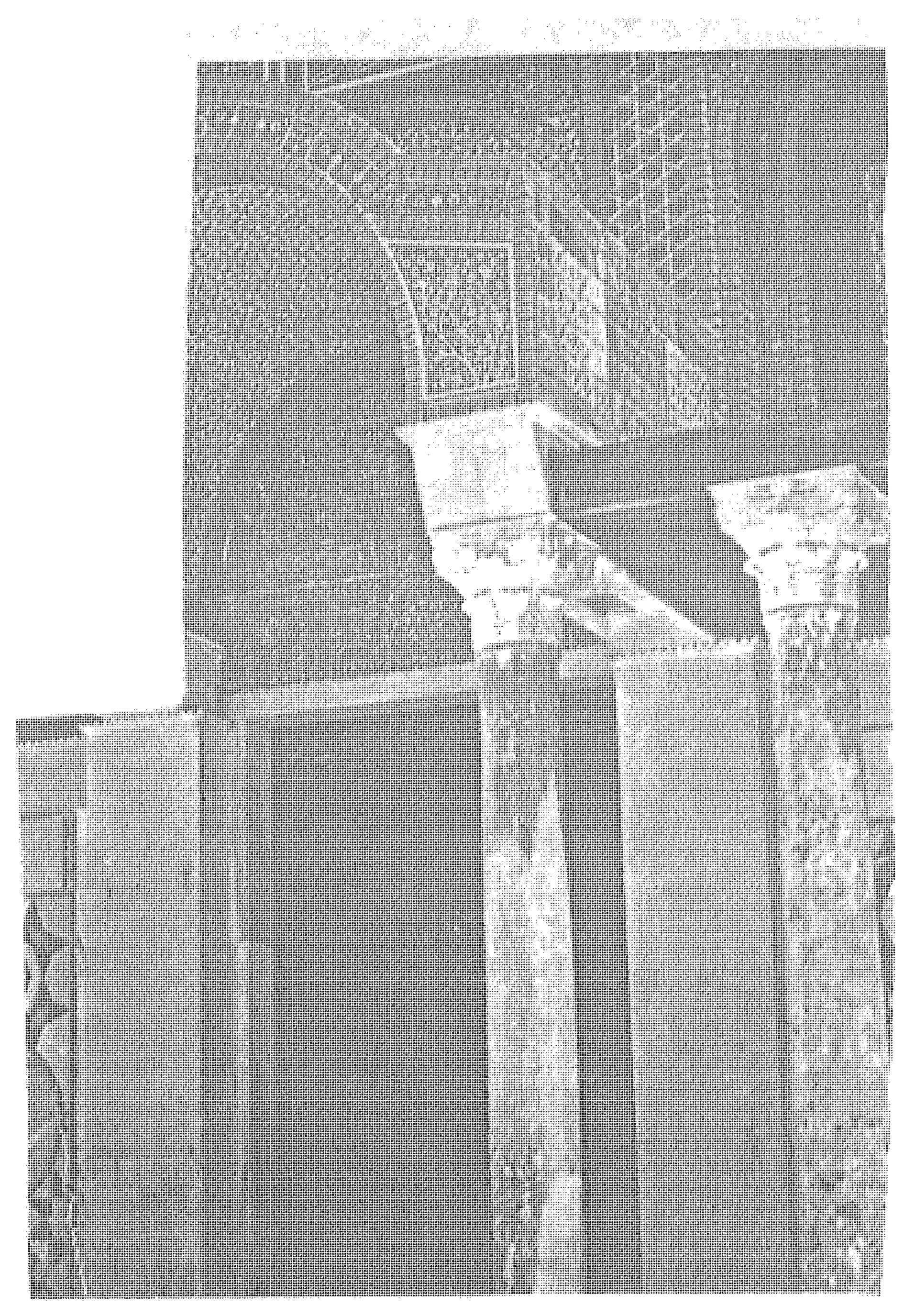
مقياس النيل بجزيرة الروضة بمصر



«قبة الصخرة فى المسجد الأقصى من تحف الدولة الأموية»



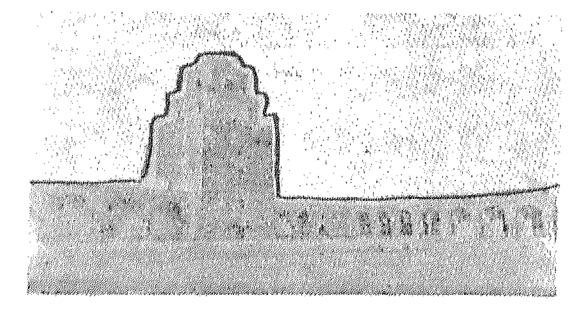
منظر داخلى للصخرة المشرفة



أعمدة قبة الصخرة المشرفة من الداخل

[٣٢٨/ الأُمويون/ صحابة]

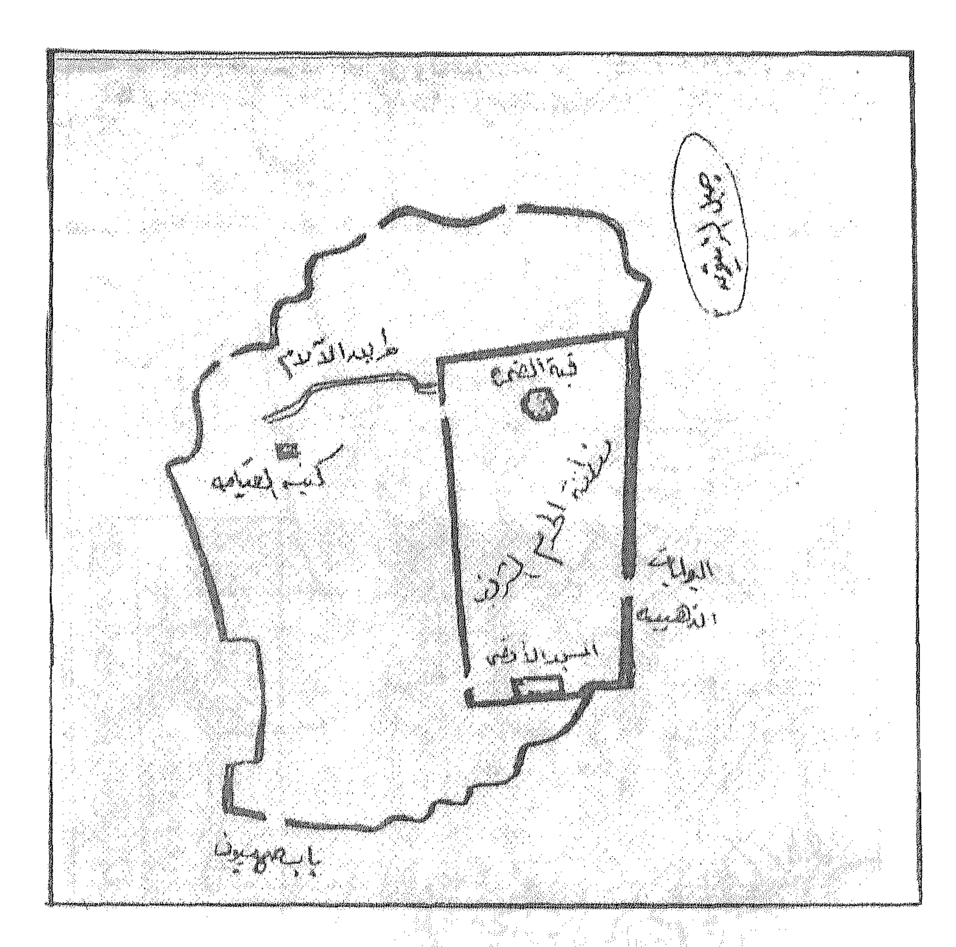
صورة لبعض الحلية والنقوش من داخل قبة الصخرة



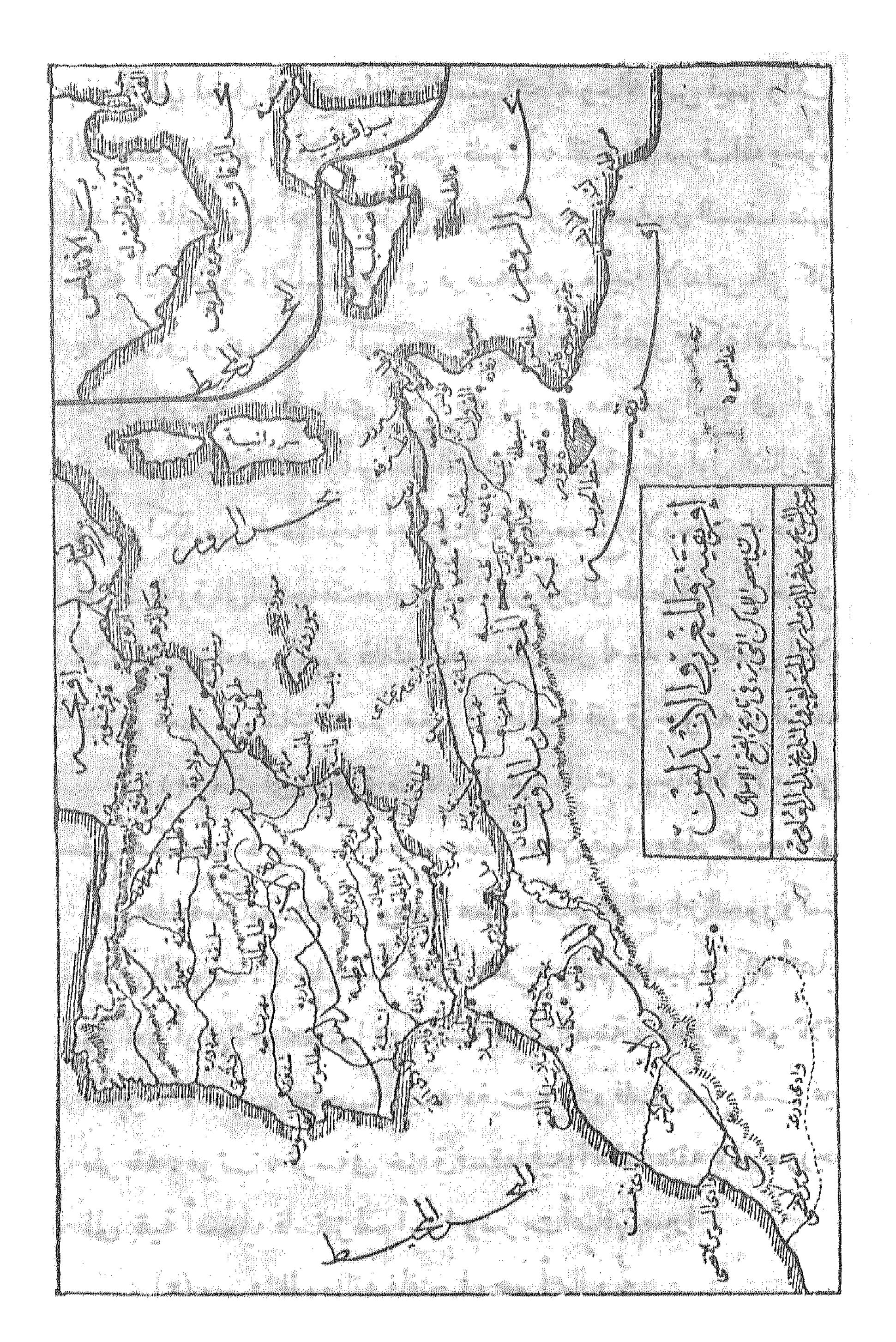
صحن ومئذنة المسجد بالقيروان تونس



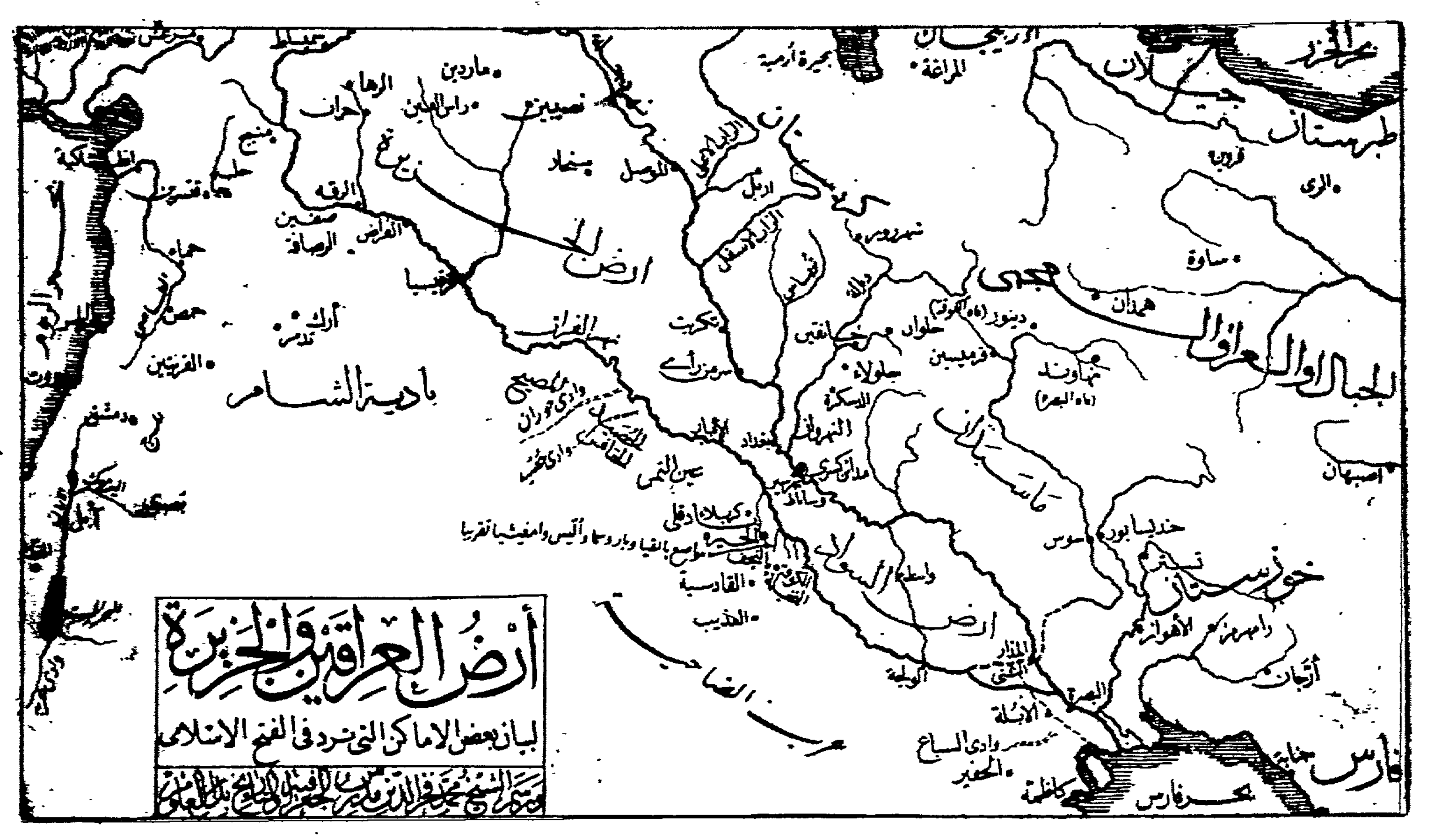
قصر «عمره» الذى بناه الأمويون فى البادية الأردنية

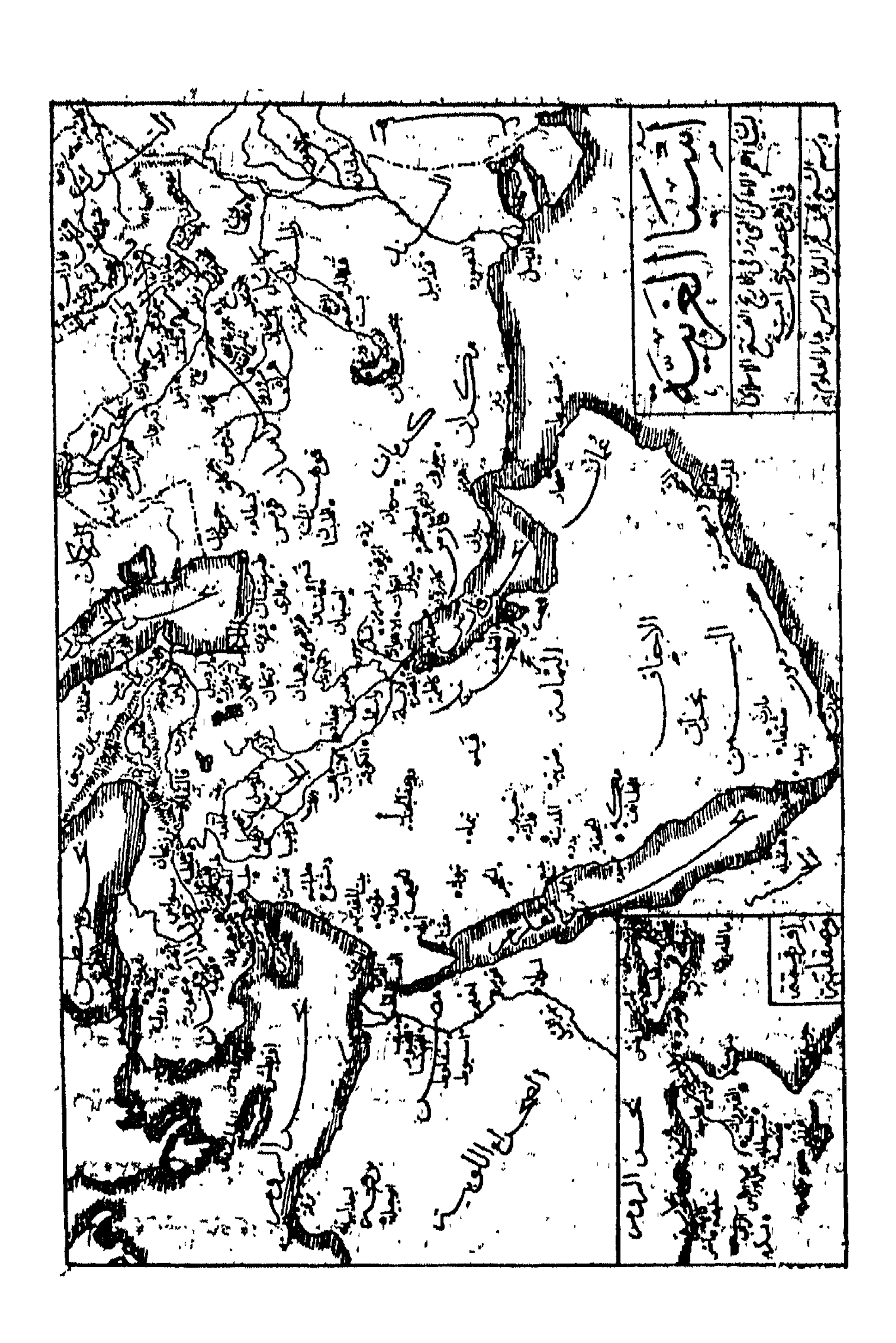


ـ مخطط للقدس القديمة يوضح منطقة الحرم وموقع قبة الصخرة



[٣٣٢/ الأُمويون/ صحابة]


أرض العراقين والجزيرة
لبيان بعض الاماكن التى ترد فى الفتح الاسلامى
طبرستان
جيلان
الجبال والعراق العجمى
خوزستان
فارس
بحر فارس
بادية الشام
أرض الجزيرة
أرض السواد
بحيرة أرمية
المراغة
قزوين
الرى
ساوة
همذان
دينور (ماه الكوفة)
قرميسين
نهاوند (ماه البصرة)
أصبهان
حلوان
خانقين
جلولاء
الدسكرة
النهروان
بغداد
مدائن كسرى
الأنبار
تكريت
سر من رأى
الموصل
أربل
شهرزور
نصيبين
ماردين
رأس العين
الرها
حران
الرقة
صفين
الرصافة
الفرات
قرقيسيا
تدمر
أرك
حمص
حماه
القريتين
دمشق
عين التمر
القادسية
العذيب
الحيرة
النجف
كسكر
واسط
السوس
الأهواز
رامهرمز
أرجان
المذار
الأبلة
البصرة
وادى السباع
الحفير
كاظمة



خاتمة

ما أصدق قول رب العالمين:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فلله تعالى الملك الخالص، وله ملك الدنيا والآخرة دون سواه، فيعطى ملكه من يشاء ويسلطه على من يشاء، ويأخذه ممن يشاء متى شاء.

ويعز من يشاء بإعطائه الملك والسلطان، ويذل من يشاء بسلبه لملكه، وتسليط عدوه عليه، ولا يقدر على ذلك إلا الله الذى بيده مقاليد كل شيء.

فالله يملك المنع والعطاء، وليس منعه بخلاً منه ـ وحاشا الله ـ ولكن منعه حكمة. وعطاؤه جود ورحمة.

فيحق على كل من علم أن الله هو المعطى والمانع، والمعز والمذل، والخافض والباسط أن يقطع قلبه عن مطامع الدنيا، وأن يرضى بربه إلهًا وخالقًا، ورازقًا، فلا يطلب إلا منه، ولا يرجو إلا رحمته، ولا يخشى إلا من عقابه، ولا يؤمل إلا مغفرته.

وقد أعطى الله ملكه بنى أمية بحكمته ومشيئته، ونزعه عنهم بحكمته وقدرته، وفى كل ذلك آيات وعبر، وعظات ودروس للموقنين، وفى آيات الله من المتفكرين.

وتأمل حكمته تعالى فى تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء.

وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تزول، وتنتهى، وقد رأينا ذلك رأى العين فى أحوال دولة بنى أمية.

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

فجميع أقضية الله تعالى على أتم وجوه الحكمة والصواب، تبارك العزيز الوهاب، وإلى أن نلتقى سويًا مع دولة بنى العباس أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله أولاً وآخراً

وعلى رسوله مصليًا ومسلمًا

أبو مريم

فهرس الأحاديث النبوية

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
أحداث سنة ثمان وأربعين	٥٥
أحداث سنة تسع وأربعين	٥٥
أحداث سنة خمسين	٥٥
أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد من بعده	٥٦
أحداث سنة إحدى وخمسين	٥٧
مقتل حجر بن عدى	٥٧
ندم معاوية على قتل حجر بن عدى	٥٩
أحداث سنة إثنتين وخمسين	٦٠
أحداث سنة ثلاث وخمسين	٦٠
أحداث سنة أربع وخمسين	٦١
أحداث سنةخمس وخمسين	٦٢
أحداث سنة ست وخمسين	٦٢
أحداث سنة سبع وخمسين	٦٣
أحداث سنة ثمان وخمسين	٦٤
أحداث سنة تسع وخمسين	٦٤
أحداث سنة ستين	٦٤
صفحات الجهاد فى ولاية معاوية	٦٥
أهم أعمال معاوية بن أبى سفيان.	٦٧
فكرة البريد السريع	٦٧
ديوان الخاتم	٦٧
وفاة معاوية بن أبى سفيان	٦٨
الباب الثانى	
بدء ولاية يزيد بن معاوية	٧٠
استرضاء يزيد للرعية	٧١
موقف يزيد بن ابن الزبير	٧٣
مشورة مروان بن الحكم بقتل الحسين	٧٩
خروج الحسين إلى الكوفة ومقتله	٨٣
حوار على بن الحسين مع يزيد بن معاوية	٨٤
ابن زياد يقتل الحسين	٨٧
موقف يزيد من مقتل الحسين	٨٩
رأى شيخ الإسلام ابن تيمية فى يزيد بن معاوية	٩٠
أهم الأعمال والأحداث فى عهد يزيد	٩٣
أحداث سنة إحدى وستين	٩٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تم الكتاب وربنا محمــود   وله المكارم والعلا والجود
وعلى النبى محمد صلواته   ما ناح قمر وأورق عـود

الطبعة الأولى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٦٨٢ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى I . S . B . N 977 - 272 - 343 - 3